الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

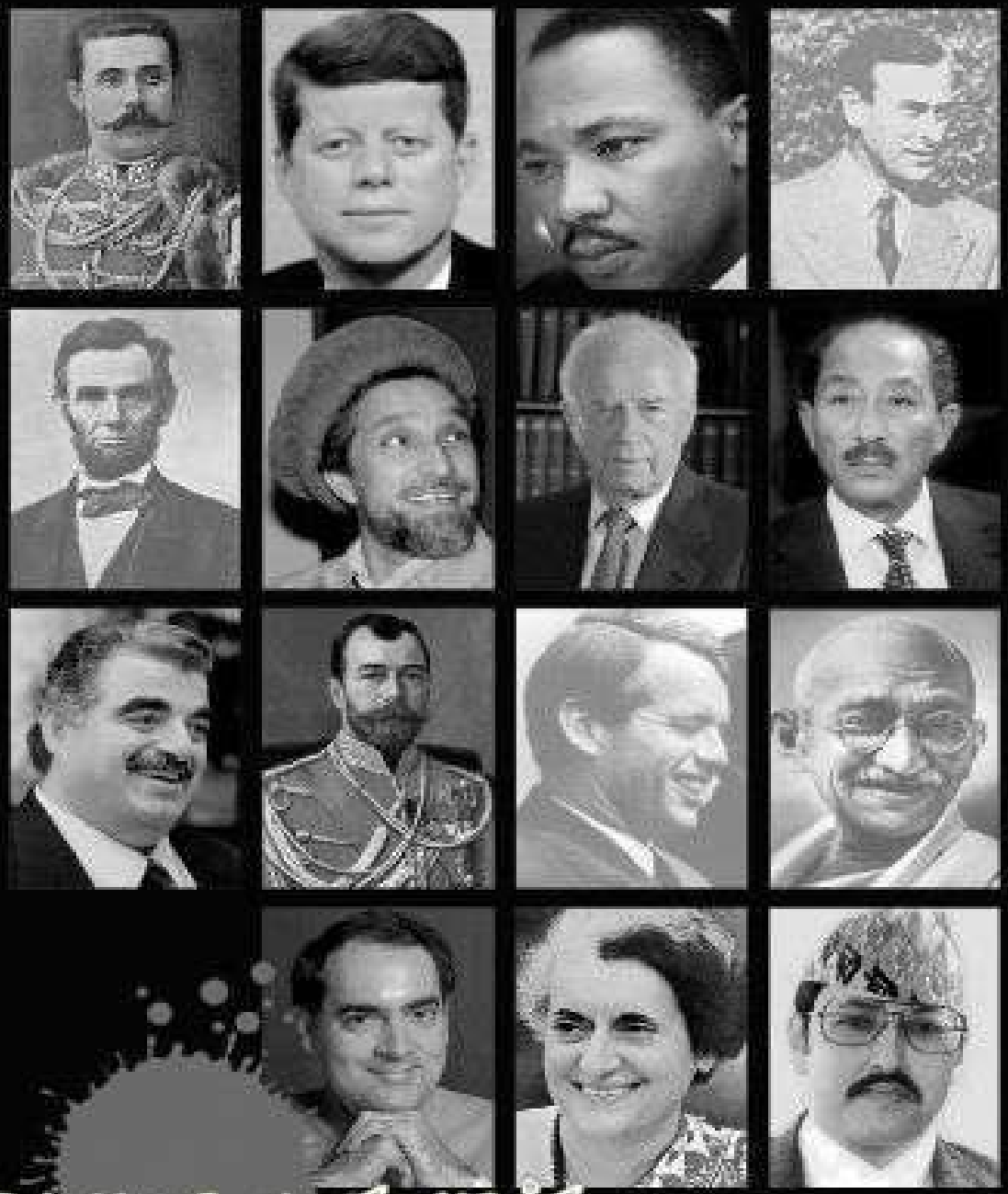

غيّرت مجرى التاريخ

مكتبة الكندي العربية

سانشيتا سينها و مفضّل خُمري

اغتيالات

غيّرت مجرى التاريخ

تأليف

سانشيتا سينها – مفضَّل خُمري

ترجمة

ضحى الخطيب

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l.

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
ASSASSINATIONS THAT ALTERED THE COURSE OF THE WORLD
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
MAGNA Publishing Co. Ltd.,
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 2006 by Magna Publishing Co. Ltd., and Paul Mann Inc.
All rights reserved

Arabic Copyright © 2007 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

ISBN: 978-614-421-213-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.
إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

لتنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

المحتويات

توطئة

مقدمة

أنديرا وراجيف غاندي

أنور السادات

إسحق رابين

جون ف. وروبرت كينيدي

الملك بيريندرا بير بيكرام شاهديف

فرانز فرديناند

مارتن لوثر كينغ

أحمد شاه مسعود

أبراهام لنكولن

اللورد لويس مونتبتين

القيصر نيكولاس رومانوف

رفيق الحريري

توطئة

الخارجون عن القانون، المطاردون، اليائسون. اللصوص، المغتصبون، القتلة، مدمنو المخدرات والمقامرون، القتلة، الإرهابيون. والإرهابيون فوق هؤلاء جميعاً. هم جميعاً مطلوبون بإلحاح بموجب القانون لدى مختلف الجهات في أنحاء العالم. كلهم خطرون ومسلحون وجاهزون ليقتلوا أو حتى ليُقْتَلوا. وهم مروِّعو المجتمع. إنهم تهديد للقانون والنظام والممتلكات والحياة. والصور الفوتوغرافية لوجوههم المشبوهة تزيّن لوحات الأكثرية من المطلوبين في أقسام الشرطة والمطارات ومحطات السكك المديرية والباصات والمراكز التجارية والقطارات، ومكافآت تصل إلى 27 مليون دولار لبعض منهم. فمن هم هؤلاء الناس؟ وما الذي يجعلهم خطرين إلى درجة أن أكثر الثروات تعرض كإكرامية لتسليمهم؟ ومن هم الناس أو المافيات أو المنظمات أو التجهيزات التي تمدهم بالإعانات والمأمن؟ وما هي المؤسسات التي تقتفي آثارهم نهاراً وليلاً؟

إن هذا الموجز هو حول مختلف السلالات من الرجال الذين هم ليسوا فقط خارجين عن القانون في دولهم، ولكن كثيراً ما لجرائمهم أهميتها وعواقبها على الصعيد العالمي، والتي تعتبر انتهاك للقوانين الأساسية والمعايير التي تحكم المجتمعات في العالم، الثقافة/الحضارة، الأخلاقيات، المدنية... وحتى الإنسانية. وهم يؤلفون مجموعة متنوعة متغايرة الخواص مؤلفة من أناس من مختلف المناطق والأديان والأعراق والأجناس البشرية. وهم ينتمون ابتداء من المعتوهين من أبناء القرى وصولاً إلى الكادحين في هذه الدنيا وإلى العلماء والمثقفين والتقنيين وخبراء العلاقات الإنسانية إلى المصابين بالفصام والخلل العقلي والعضوي أو بشذوذ وانحراف. إلا أنهم يتشاركون بخاصية عامة: إنهم جميعهم مطارَدون من قبل الأوصياء المدافعين عن المجتمعات المدنية. إنهم

هم المطارَدون، وهم في الوقت نفسه أيضاً المطارِدون الذين تكون ضحاياهم غالباً من فئات ومستويات مختلفة ويكونون أبرياء. تمّ توقيف البعض منهم، والبعض سُجن وقُتل آخرون. إلا أن العديد منهم ما زالوا طليقين. وهم محل رهبة وكراهية، لكنهم أيضاً محط إطراء ومديح وحتى الإفراط في الإعجاب من قبل بعض شرائح البشر كمنحرفين أو مسحورين بالقوة الخارقة على فقدان الإحساس وذلك بدافع من خلال بريق وعودهم ومزاعمهم الكاذبة.

إن هذا التجميع يحتوي وقائع صغيرة حول انحرافات بشرية عالمية بارزة مختارة والجهات التي تزودهم وتحتضنهم من منظمات بوليسية وهيئات عسكرية.

مقدمة

تأتي كلمة "اغتيال" في القواميس بمعنى قتل متعمد لشخص مهم أو لرمز سياسي استراتيجياً. إن القاتل/المغتال (الشخص الذي ينجز عملية الاغتيال على عاتقه أو تبعاً لأوامر مستخدميه) يعتبر ضحيته عائقاً خطيراً وهاماً يحول دون تحقيق إيديولوجياته أو جدوله السياسي. وربما تكون الدوافع الأخرى مالية (وذلك كما في حالة عقود القتل) أو للثأر أو القتل بناءً على طلب من قبل السلطة.

إنه من الممتع، وأكثر من ذلك في ظل مناخات اليوم بالنسبة للجهاديين في الوقت الحاضر، البحث في أساس جذر كلمة "القاتل". من الممكن أن يكون الجذر "الحشاشين"؛ ومن الممكن أن يكون "الحشاشون" قد اعتبروا جماعة دينية من الإسماعيليين المسلمين من المذهب الفرعي للنزاريين. وقد امتدّ نشاطهم من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر. تلك الفرقة كانت مختصة في إرهاب النخبة من العباسيين من خلال عملية اغتيالات سياسية قاسية. إن كلمة "قاتل" هي مشتقة من اسمهم، فقد كانوا يطلقون على أنفسهم لقب "فدائيين" من الجذر "فدائي" والذي يعني "الشخص الجاهز للتضحية بنفسه من أجل قضية".

في التقرير المفصل لماركو بولو (في الأقسام الرئيسية التي جاءت في شكل روائي) هو ذكر بأن الفدائيين كانوا موعودين "بالجنة" مقابل الموت من أجل قضية ما. وما كان يحدث فعلياً أنهم كانوا يتعاطون المخدرات مثل الحشيشة أو الأفيون أو الخمر، بالإضافة إلى أنهم كانوا مأمورين من قبل رؤساء كانوا

يهيئون لهم بأنهم موعودون بجنة فيها من مثل الخمر والنساء. وكانوا يوضحون لهم بأن جائزتهم مقابل فعلهم في سفك الدماء تفتح أبواب الجنة لهم. وعلى كل حال، فإن معظم هذه المعلومات مأخوذة من المؤلفات التاريخية الصليبية والتي يعتقد بأنها ضعيفة وغير موثوقة للأخذ بها عند التحدث عن مسائل دقيقة حساسة كتلك.

إن تاريخ القرون الوسطى وتواريخ العالم الحديثة هي مملوءة بالاغتيالات، بعضها أخفق وبعضها لاقى نجاحاً. ولكن على الواحد قراءتهما ضمن حقبة الماضي الحديث الممتدة إلى فترة الحرب الباردة، وهي ملأى بالأمثلة لدول وسلطات رعت عمليات قتل رؤساء دول أو رؤساء حركات وذلك لفهم ما جاء في كتب عديدة حول ذلك الموضوع عبر أجيال. وسواء أكان قتل القيصر قد تمّ على يد الوطنيين الديموقراطيين الرومان، أو أن الميتة المخيفة المرعبة المروعة لأحمد شاه مسعود قد تمّت من قبل انتحاري فجّر نفسه، فإن السياسة أو الاغتيالات لها واجهة تخدع عقول القراء. إن العمل الإرهابي هو عمل محرّم وينفّذ بأية حال، بواسطة الدولة أو من قبل أشخاص متنفّذين. وعناصر الانتقام الخدّاع، والتشويق في مؤامرة مدبرة تمّ تنفيذها، والتفكير بمن كان وراء تلك المؤامرة، هذا كله ما يحاول الكتاب الكشف عنه.

إن معظم العمليات كمثل تلك تترك إثرها سلسلة من المموِّهات من قبل تلك القوى، فتخفي أثرها إخفاءً تاماً لعدم ترك دلائل أو إثباتات حول تورط أحد من الواقفين وراءها. وفي معظم الحالات، فإن كبش الفداء هو الرجل الذي في الواجهة أو المنفّذ المباشر الذي لا يملك مفتاح المؤامرة – وهو ذاك الرجل الذي قبض مبلغاً فقط لإطلاق النار على الضحية، أو طعنها، والذي وبشكل سريع مفاجئ يسجن أو يشنق، تاركاً ثغرة فارهة للغز غير محلول. وحالات كهذه تساعد في إحداث عنصر التشويق لدى القارئ وتفتح شهيته على

قصص من هذا النوع. وليس سراً أو غريباً أن عملية اغتيال جون كينيدي ما تزال الحادث الأكثر تأويلاً إلى حدٍّ بعيد، والمحقق فيه على نحو واسع على الصعيد العالمي، والذي قاد إلى الكثير من المؤلفات في هذا الموضوع.

إن التمعن في جميع المؤامرات ومتابعة جميع عمليات الاغتيال الفعلية من الممكن أن تنسي الرجل أو المرأة حضورهما في هذا الزمن؛ لأن الضحية هو شخص له أهميته حتماً، ومن النادر أن يكون رجلاً عادياً يغتال في الشارع. هذا وإن الاغتيالات تتم عادةً من أجل ذيوع صيت أو لمصلحة شخصية أو لأجل إيديولوجية أحدهم. ولكن ما تحاول صفحات هذا الكتاب البحث عنه هو تأثير الفرد وتأثير عمله الحياتي على مجريات التاريخ. هناك أشخاص عظام كانت لهم مسؤوليات هامة اتجاه أبناء بلدهم، والعديد كان ينظر إليهم كمخلوقات إلهية أو كأمل كبير لشعوبهم وأُناسهم ومواطنيهم المعذبين المعانين. إن النهاية المبكرة لحياتهم والتي تأتي في غير أوانها تجعل حياتهم العملية قصيرة، وبالتالي فهي تساعد على تطوير ما يتعلق بشعوبهم أو حركاتهم. ولكن هناك ما يكفي من المعجبين بهم والأتباع لإتمام ما بدأوه من عمل ناجح، وفي تلك المسألة تكمن أهميتهم ويكمن تخليدهم.

المهاتما غاندي

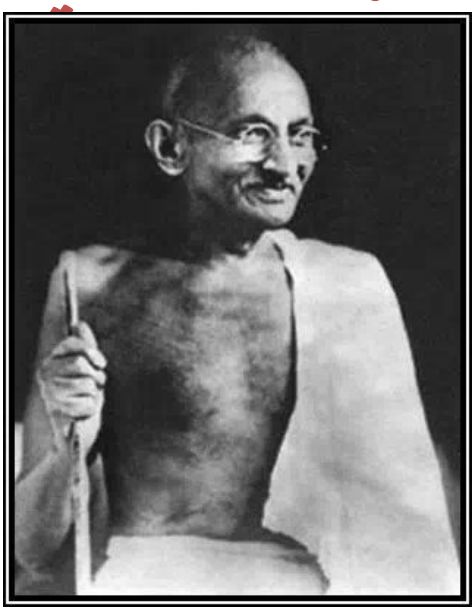

"مجرد رجل مسنّ بمئزره في هند البعيدة/القصية: وعلى الرغم من ذلك فعند موته بكت الإنسانية". هكذا كتب مراسل إحدى الصحف عند موت المهاتما. ثلاث طلقات باتجاهه في أمسية من أمسيات كانون الثاني/يناير الباردة وذلك عندما كان في طريقه لجلسة صلاة، حيث اجتمع جميع أتباعه من جميع أنحاء الوطن لرؤيته وسماعه، حاملين إلى المقدمة واحدة من أعظم المفارقات؛ رجل انتزع بقوة استقلال بلد عبر أعوام من المقاومة بغير عنف لقي مصيره بموت عنيف (مات شرّ ميتة).

ففي 28 من كانون الأول/ديسمبر من العام 1948 وعلى نحو يومين قبل إطلاق الرصاص عليه لقتله من قبل ناثورام جودز قال غاندي: "إذا كان لا بد من موتي من خلال رصاصة من رجل مجنون، عليّ تقبل ذلك وأنا مبتسم. ويجب ألا يكون أي غضب في داخلي. فالله هو في قلبي وعلى شفتي".

ظنّ المهنداس (المهاتما) كرامشاند غاندي أنه سيعيش ليبلغ المئة والخمس والعشرين من السنوات. كانت رغبته في الحياة قد تجددت بعد 13 يوماً من

الصوم والتي كانت على وشك القضاء عليه في كانون الثاني/يناير من العام 1948. رافضاً تناول حتى الماء، كان صيامه مستمراً لإيقاف العنف الطائفي بين الهندوس والمسلمين لتقسيم البلد. وقد لقي نتيجة. توقف العنف ولو كان ذلك بصورة مؤقتة وقد نذر غاندي لله أن يعيش إلى ما بعد 100 عام لأنه كان يعتقد بأن الحياة الحقيقية للإنسان هي على هذا امتداد. لقد كان نظامه الغذائي الشديد المؤلف من الفاكهة الطازجة وحليب الماعز وصيامه واستشفائه بالتبويل الذاتي كلها كيّفته باتجاه إعطائه حياة طويلة وسليمة. ولكن القدر وربما الكراهية وضعا ترتيباته في غير موضعها.

لم يكن يتخيل أبداً بأن أحداً من الممكن أن يكرهه هذا الكره الشديد إلى درجة يريد قتله؛ لأن العالم بأكمله كان في خشية من أفكاره/إيديولوجيته؛ لأنه باستطاعته إخضاع رغبات الأقوى من الناس من خلال قدراته الروحية وإيقاف الجماهير الغاضبة من الهياج وقتل بعضهم البعض؛ لأنه كان قد تقدّم مسافة طويلة منذ أيام إدارته في جنوب أفريقيا؛ لأن العالم كان قد وقف ولاحظ إدارته.

ولم يكن يتخيل أبداً بأنه سيقضي تقريباً أقل بـ 50 سنة مما أشار إليه وذلك في عمر الـ 78.

وفي مساء الثلاثين من كانون الثاني/يناير 1948 شوهد غاندي جالساً مع مندوب رئيس الوزراء في الهند، ساردار فالاّبهبهي باتيل في بيرلا هاوس. وفي الساعة الخامسة مساء ملأ المئات من الناس المكان الذي فيه الاجتماع لإقامة الصلاة. وعدد أزيدُ كانوا ما يزالون يتوافدون على الأقدام أو بالسيارات أو في عربات تجرها خيول. لم يكن غاندي عملياً أبداً متأخراً، إلا أن محادثاته مع ساردار أعاقته عن ذلك حوالى 15 دقيقة. ظهر في مقدمة المحتشدين القلقين متكئاً على أكتاف بنت أخته المخلصة مانو، وفتاة أخرى آفا. ملتفاً بشال صوفي اتقاء من هواء دهلو البارد، سار عبر المرج باتجاه الأرض حيث جمع المصلين غافلاً نهائياً عن الخطر الكامن بين الجموع.

وقد حصل ساعتئذ أن ناثورام جودز خطا خطوات إلى الأمام من الحشد متقدماً مانو ومقترباً من المهاتما. وسألته مانو بأدب عن السبب الذي جعله

يؤخر غاندي كثيراً، لأنها ظنت أنه كان على وشك السجود على الأرض للترحيب بالمهاتما كما يفعل الناس. وعوضاً عن ذلك سحب بندقيته النصف الأوتوماتيكية بيريتا ووجّه ثلاث رصاصات إلى هدفه المشهور في موضع مسدّد في هدفه؛ واحدة في بطنه واثنتان في صدره. وسال الدم بسرعة عبر ملابسه البيضاء القطنية، قائلاً عند سقوطه: Hey Ram.

وحالاً تمّ استدعاء الطبيب، وانتشر رجال البوليس/الشرطة في محاولة لتشتيت الجموع وللمساعدة في حمل جسده الجريح إلى بيرلا هاوس Berla House. تجمّع عدد كثير باكين خوفاً من الأسوأ.

وتالياً في ذاك المساء، خاطب/وجّه رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو إلى شعبه خطاباً عبر الراديو ليعلن وبلطف خبر وفاة المهاتما:

"أيها الأصدقاء والرفاق، لقد أفل النور من حياتنا، وحلّ الظلام في كل مكان ولست أدري حقاً ماذا أخبركم وكيف أقول ذلك. قائدنا الحبيب، بابو كما كنا ندعوه: "أب الشعب (الأمة) الذي لم يعد بيننا. لكنني ربما أكون مخطئاً إذا قلت ذلك. مع ذلك إننا لم يعد بوسعنا رؤيته مجدداً، كما كنا نراه عبر سنوات عدة، لن نركض إليه في نصيحة أو للبحث عن تعزية ومؤاساة، وهذا لهو صدمة مروعة، ليس بالنسبة لي فقط، بل بالنسبة للملايين والملايين في هذه الدولة".

إلا أن ناثورام جودز لم يحاول حتى الفرار. وعوضاً عن ذلك وقف شاحباً بانتظار رجال الشرطة للقبض عليه، وكأنه سيعدم من غير محاكمة من قبل الجموع المحمومة، وقد تمّ إنقاذه بقدوم رجال الشرطة الذين اعتقلوه، وقد وقف المتآمران معه، نارايان أبت وكاركار، على مسافة قريبة مراقبين عملية القتل، ليفرا من ثم، وليتم القبض عليهما آنفاً وذلك بعد انقضاء 12 يوماً مساقين إلى السجن برفقة خمسة آخرين بمن فيهم شقيق جودز، جوبال جودز وفيناياك دامودار سافاركار، الثائر البارز ورئيس حزب هندو ماهازابه Hindu

Mahasabha. حوكموا في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1949. وقد وجد بأن هؤلاء جميعاً ما عدا فينياك دامودار كانوا مذنبين حكم عليهم بالإعدام. وتمّ إعدام المدانين جميعاً وذلك في الخامس عشر من شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1949 حاملين خرائط الهند الواحدة غير المجزأة وأعلام حركة الهندوس.

ولد في عائلة براهمن التقية، ونشأ جودز كهندوسي قوي وسليل لتاريخ الهند وحضارتها. وقد تأثر بدادابهي نوروجي، وفيفيكاناند، وجوخال وتيلاك وقرأ بدقة ما كان قد كتبه فير سافاركار وغاندي وما تحدثا عنه. لأنه، وكما ذكر في شهادته، "إن هاتين الإيديولوجيتين قد ساهمتا في تشكيل أفكار وأفعال المواطنين الهنود خلال حوالى الثلاثين عاماً الأخيرة، أكثر من أي عامل آخر".

إن كلّ قراءته وما تلقاه من تعليم أقنعاه بأن واجبه هو الوقوف والدفاع من أجل الهندوس، كوطني وكمواطن عالمي. وهو اعتقد بأن حماية الحرية ووقاية مصالح ما قيمته حوالى 300 مليون روبية للهندوس يؤسس لحرية ولرخاء الهند الذي يشكل شعبها خمس العرق البشري.

وبالنسبة له، فإنه وبعد وفاة لوكمانيا تيلاك Lukmanya Tilak، أصبحت قوة غاندي أكبر في البرلمان. ومن هذا الموقع للقوة، وطّد علاقته شيئاً فشيئاً مع المسلمين البارزين من خلال طريقة معاملته. ويدعي جودز بأن غاندي كان واضحاً في مواقفه من خلال تصريحاته حول اعتماد اللغة الأهم في الدولة. وأولاً عندما كان قد أعلن اللغة الهندية اللغة المختارة، ولاحظ أن المسلمين غير راضين. ولإرضائهم، أعلن بأن اللغة الهندوستانية هي لغة الدولة الأولى. وما بين الهندية والأوردو كانت في الواقع هي اللغة التي لم تبقَ. كانت تقريباً لغة محلية بدون قواعد أو مجموعة مفردات خاصة بها.

وجاء ثانياً تقسيم الهند حسب وصية تحالف القادة المسلمين والجناح. وعلى الرغم من تفاخر البرلمان بالوطنية والاشتراكية، قبل بتمزيق الشعب من خلال الخضوع لنزوات الجناح. وقد تمّ تمزيق الهند وأصبح ثلث الدولة أرضاً غريبة وذلك في الخامس عشر من شهر آب/أغسطس من العام 1947، أشهر

عشرة كاملة قبل التاريخ الذي فيه وضع اللورد مونتبتين اليد الرسمية على القوة.

وتصاعدت حدّة غضب جودز ضد غاندي وذلك عندما شرع في الصيام رداً على مسألة احتلال الهندوس لمسجد في دلهي. ولكن عند قيام المسلمين بذبح الهندوس في الباكستان، لم يقم هو بأي إجراء ضد الحكومة الباكستانية أو المسلمين أصحاب الشأن، وذلك ربما لأنه أدرك أنه لن يكون هنا أي تعاطف مع صيامه في الباكستان، ولأنه ربما سينتهي به إلى الموت.

وفي شهادته المعبرة يقول: "لقد كان يشار إلى غاندي كأب للشعب. وإذا كان هذا صحيحاً، هو أخفق في واجباته الأبوية وذلك عندما تصرّف تصرفاً كان بمثابة غدر شديد لبلده بقبوله تقسيمه. وإنني أؤكد وبجرأة بأن غاندي قد أخفق بواجبه. وأثبت بأنه كان أباً للباكستانيين.

إن مذهبه في اللاعنف الذي يعتنقه والنابع من قوة روحية داخلية، تكسر أمام إرادة جِنَّاح الحديدية بل وبرهن أنه بلا فائدة.

والقشة الأخيرة كانت ربما محاولة غاندي الأخيرة في الصيام حتى الموت، والتي من خلالها أجبر غاندي الحكومة الهندية على إعطاء الحكومة الباكستانية مبلغاً من المال يقدر ب. 550 مليون Rs وذلك مقابل كل الاتفاقيات التي تعقد من قبل هيئات التقسيم. وكان جودز يعتقد بأن كل تصرفات غاندي هي مؤيدة لقضايا الإسلام، وهو يهمل بالإجمال احتياجات هندوسيي الهند.

وعلى كل حال فإن الحقيقة هي بالإجمال غير ذلك. ففي وقت مبكر من العام 1946، فإنه وعندما اقترح مجلس البعثة الإنكليزية ضمّ ولايات الأكثرية المسلمة، رفض غاندي عرضهم ذاك خوفاً من أن يكون ذلك بمثابة بادرة تقسيم. لقد كان العديد من المسلمين يعيشون جنباً إلى جنب مع الهندوس والسيخ، إلا أنهم ولم يكونوا يميلون إلى هند موحدة. وعلى كل حال، وللمرة

الأولى، فإن البرلمان لم يلتفت إلى نصيحته خصوصاً لأن نهرو وباتل علما بأنه إن لم يوافق البرلمان على الخطة، فإن سيطرة الحكومة ستمر إلى تجمع المسلمين.

ومباشرة وخلال العام 1946 قتل أكثر من 5000 شخص خلال حركة عنف طائفية عبر البلاد. إلا أن محمد علي جِنَّاح أمر بدعم كبير لغرب البنجاب، والسند، وشمال غربي حدود الإقليم وشرق البنغال. وطالما أنه كان من المستحيل بالنسبة للهيئة التشريعية المضي قدماً بدون دعم غاندي، قام ساردار باتل بإقناعه بأن التقسيم هو الحل الوحيد لتحاشي حرب أهلية. وبخلاف كل آرائه التي يؤمن بها، أعطى غاندي المنكوب المحطم موافقته.

وفي يوم الاستقلال، لم يشارك غاندي الآخرين في الدولة بالاحتفال وعوضاً عن ذلك، أخذ يتفجّع وحيداً في كلكتا، ونذر أن يعمل باتجاه إنهاء العنف القائم بين الهندوس والمسلمين، وقاد لقاءات مكثفة بين رؤساء الجماعات، عاملاً على تهدئة العواطف المحتدمة في شمالي الهند كما في البنغال.

في العام 1947 شنّت الباكستان هجوماً على الهند. وقد اعتقد غاندي بان دفع مبلغ 550 مليون Rs المقرر من قبل المجلس التقسيمي سيساعد على إيقاف الحرب. وبالنسبة له، فإن عدم الاستقرار والتداعي اللذين عاشا تجربتهما سيتفاقمان وينتشران عبر الحدود، والعداء الموجود داخل الهند سيجعل البلاد تنتهي فجأة إلى حرب أهلية طاحنة، شاملة. ولكن كان ساردار باتل حقيقة ضد الدفع. وكان ممن يعتقد بأن الحكومة الباكستانية ستوظف المال فقط في سبيل تمويل الحرب ضد الهند.

إضافة إلى ذلك فإن العنف بين الهندوس والمسلمين زادت حدّته. ولم يكن باستطاعة رؤساء الجماعات وضع خلافاتهم جانباً والتفاهم مع بعضهم بعضاً. وتمّ التأكيد على طلب ترحيل جميع المسلمين إلى باكستان. وعند ضياع السبل للاتفاق على هذه القضايا، شرع غاندي بصوم حتى الموت. وكانت مطالبه تتمحور في توقيف العنف، ودفع الـ 550 مليون Rs للحكومة الباكستانية. ورافضاً النزول عن مطالبه، فقد أقنع رؤساء المسلمين والسيخ وقادة

الهندوس بمن فيهم المتطرفون راشتريا سويامسيفاك سانج (RSS) والهندو ماهاسابها، بالتخلي عن العنف والحكومة الهندية باجتزاء مبلغ من المال. حينها فقط قام بارتشاف عصير البرتقال منهياً صيامه.

وبالكاد بعد أيام قليلة، سقط غاندي بفوهة بندقية جودز.

وعلى نحو هام لم يعرف العديدون بأنه كانت هناك محاولات اغتيال خمس أخرى في حياة غاندي. يعود تاريخ المحاولة الأولى إلى العام 1934 عندما كان يسير مع زوجته كاستوربا في بان. وفي طريقهما إلى قاعة المجلس البلدي حيث كان غاندي متوقّعاً أن يلقي خطاباً. وقد اضطر إلى توقيف السيارة التي كانا يستقلانها في سفرهما وذلك عند تقاطع سكة الحديد واحتجزت خلف سيارة أخرى. وفور وصول السيارة الأولى إلى القاعة، تمّ قذف قنبلة على السيارة. ونتيجة للانفجار سقط الضابط المسؤول في البان منيسبال كوربوريشن Pune Municipal Corporation بعد إصابته بجروح بالغة مع رجلين من رجال الشرطة، وسبعة أشخاص آخرين. ومن المفاجئ أنه لم يكن هناك أي تسجيل لأي اعتقال أو حتى تحريات مرتبطة بهذا التفجير. وعلى كل حال فقد ادعى العديدون بأن هذه المحاولة قد جرت على يد ناثورام جودز وشريكه في الجريمة ناريان أبت.

والمحاولة الثانية هي أقل من محاولة اغتيال وأكثر من حالة غضب شديد. ففي العام 1944، وبعد أن أطلق سراحه من سجن قصر آغاخان، عانى غاندي من نوبة ملاريا. نصحه الأطباء للانتقال إلى موقع على تلة مرتفع لاسترداد عافيته، وهكذا انتقل إلى بانشغاني بالقرب من بومباي. وعند سماعهم أنه كان في قريتهم، قامت جماعة من 20 رجلاً غريباً تحت قيادة ناثورام جودز، باحتجاج خارج شقته، رافضين التحدث إليه عند دعوتهم. على كل حال وعند اللقاء المسائي للصلاة، اندفع جودز باتجاه غاندي وبيده خنجر، صارخاً بشعارات مناهضة لغاندي، إلا أنه تمّ التغلب عليه، وطبعاً تمّ إبعاده.

وقد سجلت هيئة كابور، والتي تمّ تعيينها للتحقيق في اغتيال غاندي، هذا الاعتداء، إلا أنها تمّ رفضها في ذات الوقت لأن العديد من أصحاب غاندي لم

يكونوا موجودين.

كانت المحاولة الثالثة أيضاً دليلاً دافعاً، مع أن الذين كانوا يدلون بشهاداتهم أمام هيئة كابور ذكروها كمحاولة قتل. ففي التاسع من أيلول/سبتمبر من العام 1944 وفي طريقه إلى بومباي لبدء المحادثات مع مجموعة، أوقف غاندي من قبل جماعة من الهندوس النشطين الذين لم يكونوا يرغبون البدء بالمحادثات وكان منهم، ناثورام جودز، قائد المعارضة الذي وُجد معه خنجر. وأخبرت الدكتورة سوشيلا نايا، هيئة كابور بأنها على يقين بأنها كانت محاولة لاغتيال غاندي.

هذه الحادثة أيضاً وجدت مكاناً لها في فيلم ريتشارد أتينبورو وغاندي، ولكنها صوّرت على أنها احتجاج سلمي، وقد عُرض المتظاهرون وهم يلوّحون بأعلام سوداء لإبداء استيائهم.

وفي 29 من حزيران/يونيو من العام 1949 سجلت المحاولة الرابعة. كان القطار، "خاص لغاندي"، يقلّ غاندي بين محطتي نيرال وكارجات بالقرب من بومباي. يذكر التقرير بأن السائق وسائق القاطرة ذكرا بأن صخرة كبيرة كانت على الطريق بغاية إخراج القطار عن الخط. وعلى كل حال فإن شرطة بيون أنكرت تلك الواقعة قائلة بأنه ربما تمّ وضع الصخرة بغاية إخراج القطار عن الخط وسرقة قطار البضائع. لكنه لم يكن هناك في جدول المحطة عن قطار ينقل البضائع باستمرار على ذاك الخط قبل أو بعد قطار غاندي الخاص. لذا من الممكن جداً بأن القطار الذي كان يقلّ غاندي وحاشيته كان هو الهدف.

وفي العشرين من شهر كانون الثاني/يناير العام 1948، وقبل عشرة أيام على آخر محاولة، قدم كلٌّ من مادانلال باهوا، شانكار كشيتايا، ديجامبار بادج، فيشنو كاركار، جوبال جودز، ناثورام جودز، ونارايان أبت، قدموا إلى بيرلا هاوس في محاولة لقتل غاندي. وقد حاول مادانلال باهوا أن يرشي، السائق شوتورام في بيرلا هاوس، ليدعه يمكث خلف المنصة بحجة التقاط صور إلا أن شوتورام تشكّك في حاجته في التقاط الصور من الخلف، والأهم من ذلك أنه لم يكن يحمل كاميرا ولكنه ترك مادانلال يفعل ذلك، غير أنه استغرق وقتاً لوضع القنبلة في الحائط خلف المنصة وجعلها جاهزة للانفجار

وإشعالها. وقد انفجرت القنبلة دون أن تسبب أي أذى أو هلع. إلا أن بقية المجموعة تخلّت عن مادانلال باهوا واختفت عن الأنظار.

وقد كشف مادانلال عن الخطة الأولية وذلك عند الاستجواب. وكعضو في جماعة من سبعة أفراد عزمت على قتل المهاتما، فقد تمّ تعليمه كيفية تفجير القنبلة عند أقرب نقطة للمنصة قدر المستطاع. وتحت ظرف الهلع الناتج، كان ديجامبار بادج سيصوب الرصاص على رأس غاندي، وكان فيشنو كاركار سينضم أثناء تلك البلبلة من خلال رمي القنابل. وخططوا للهروب، وأملوا أن يتبع ذلك تشتتهم. وعلى كل حال فإن شكوك شوتورام أجبرتهم على إجهاض مخططهم.

وأُرشِد رجال الشرطة للفندق الشريف الذي نزل فيه معظم أفراد العصابة، وأيضاً لفندق مارينا حيث ناثورام جودز ونارايان أبت كانا ينزلان. إلا أن رجال الشرطة كانوا قد تأخروا كثيراً، فقد انصرف الجميع. ولكن تمّ العثور على رسائل وبعض الملابس وعليها الأحرف "ن، ف، ج" التي يفترض أنها خاصة ناثورام فيناياك جودز. وعلى كل حال، إلا أنه لم يكن هناك من دليل مادي حول هوية جودز وتورطه في هذه المحاولة.

وأثناء النقاش حول مقتل/اغتيال المهاتما غاندي في الجمعية التشريعية التأسيسية في الهند، سأل بالكريشنا شارما حول ساردار باتل: "حقاً بأنه وفي يوم انفجار القنبلة، وأثناء البحث في غرفة في الفندق مارينا، فإن الملابس التي تمّ العثور عليها كانت تجعل الشبهات تحوم حول الأحرف الأولى "ن ف ج – ناثورام فيناياك جودز". وهكذا فإن رجال الشرطة ذهبوا إلى بومباي وطلبوا من شرطة بومباي أن يبحثوا عن ذلك الشخص فأكد هؤلاء لشرطة دلهي أن

عليها القيام بما يلزم ثم العودة، إلا أنهم لم يفعلوا شيئاً. هل حقاً أن رجال شرطة بومباي أخفقوا في متابعة أثر ناثورام فيناياك جودز؟

وقد أجاب عنه ساردار باتل بقوله: "إن التعليق صعب ولا داعي له، فإن القضية ما زالت رهن التحقيق. وأود فقط أن أقول بأنه وبعد القبض واستجواب الشخص الذي قام بعملية التفجير، ذهب ضابط من شرطة دلهي إلى بومباي ووكّل الـ C.I.D. بهذه القضية. وبعد التوكيل فقد تقرر بأن هناك بعض الأشخاص الذي يجب القبض عليهم، إلا أن القبض عليهم مباشرة يؤدي إلى المزيد من المؤامرات تجري في الخفاء. لذا قرّر رجال شرطة دلهي وبومباي C.I.D. تأجيل عملية القبض على هؤلاء بعض الشيء لتمكينهم من الكشف عن المؤامرة والمتورطين فيها. وفعلاً فقد كان رجال الشرطة مستمرين في البحث عنهم، لكن جميعهم لم يكونوا في بومباي.

وتقريباً وبعد ستة عقود تلت على حادثة إطلاق النار على غاندي، بات هناك القليل من المعلومات المبهمة حول خلفيات مؤامرة الاغتيال. تمّ اتهام الـ RSS لإعطائهم الشرعية لناثورام جودز. وشرعت هيئة كابور في التحقيق في عملية القتل، وأمضت وقتاً طويلاً محاولةً حلّ لغز لما اعتقدته المؤامرة الكبرى. إلا أن هويات القوى التي تقف وراء عملية الاغتيال أفلتت من القاضي ج. د. كابور J.D. Kapoor.

وقد كان رأي المنظرين بأن الأسلوب الذي تمّت فيه عملية القتل تشير إلى دعم قوي من المؤسسات الحاكمة. فهل إن البريطانيين الذين كانوا ضد الكثير من فلسفات وآراء غاندي التي ناضل من أجلها وبيّنها بوضوح هم وراء تلك العملية؟ لقد كانوا يعملون ما في وسعهم للتأكيد بأن علاقة الود ليست موجودة بين الهنود والباكستان. أو أنه حتى من الممكن أن يكون من عمل جماعة الهندوس المتطرفين R.S.S. وجماعة ماهاسابها Mahasabha من الهندوس الذين كانوا وراء فكرة تقسيم الجماعة المسلمة عن جماعة الهندوس. ويعتقد المؤرخون أيضاً بأن البريطانيين كانوا نشطين في دعم نشاطات الـ R.S.S. لصبّ الزيت على النار الطائفية في محاولة للتأكيد على هدفهم في أن يتركوا وراءهم شبه جزيرة مجزأة.

إن الاتجاه العام للآراء حول عملية الاغتيال مبني على جدلية تاريخية تقول بأن اغتيال غاندي لم يكن عملاً صادراً عن بضعة رجال غاضبين. إذ ورد في إحدى النظريات التي وضعت من قبل محرري Executive Intelligence Review في كتابهم الاغتيال الاستنتاجي Derivative Assassination أنه وفي الغالب أن السفّاك ليس لديه أية معلومات حول الجهة المدبّرة للعمل الذي يؤديه. وكل ما يملك هو باعث قوي للقتل، ولكن لن يكون هو نفس الباعث لدى الذين اختاروه. هذا يؤكد بأن لاحتمالات عزو عمليات الاغتيال إلى جهات عليا هي تقريباً قليلة ويمكن إهمالها لأنها لا تعطي صورة واضحة للكشف عن الظروف التاريخية لدوافعهم.

إن مؤامرة عملية الاغتيال التي توظف دوافع منفذها هو الشرك الذي يقع فيه هذا المنفذ، كما هو الحال مع جودز. فإن كرهه لغاندي هو الشرك الذي وقع فيه. من هنا فإن على المتواطئين النجاح في إحداث مناخات تقود الآخرين للاقتناع بأن ما فعله منفذ العملية صادر عنه وحده فقط بكل ما في الكلمة من معنى. وكما نعلم، فإن جودز جاء بمفرده مخلفاً وراءه ما يخصه في محطة سكة الحديد في دلهي.

ولكن ما يشير إلى تورط قوى نافذة كانت تقف خلف عملية اغتيال غاندي هو أنها جرت قبل ما يقارب العشرة أيام من المحاولة الواهنة التي دبرت للقضاء على حياة المهاتما. وخلال استجوابه، اعترف مادانلال باهوا بأن جماعته أخذت قراراً بقتل غاندي. إلا أنه لم يكن هناك أي التفات لإفادته، ولم تجرِ هناك أي اعتقالات إضافية. وربما فإن العمل المثير للتساؤل هو أن ساردار باتل كان يجلس مع غاندي قبل أن يسير الثاني إلى مصيره. وحتى وعندما تمّ إطلاق النار عليه، فإن ساردار هذا لم يكن واضحاً في موقفه من

حيث اندفاعه إلى المستشفى، إذ هو عوضاً عن ذلك قام بالتوجه فقط إلى غرفته في بيرلا هاوس.

إنما السؤال الأكثر التصاقاً بالموضوع والأكثر إرباكاً هو متعلق بـ جِنَّاح Jinnah الذي كان يقود عملية تقسيم الهند. فهنا لِمَ لَمْ يكونا جِنّاح كما غاندي مستهدفين من قِبَل جودز؟.. وعوضاً عن ذلك وقع الاختيار على الشخص الذي وبشدة عارض التقسيم؟ هل أن ذلك يأتي بسبب القوى التي أرادت وببساطة إزاحة غاندي عن الطريق.

وهذا ما لا يمكن الكشف عنه مطلقاً.

واليوم فإن ذكريات غاندي تستريح هناك في Rajghat (دلهي الجديدة) مع كلماته الأخيرة "أيا رام" "Hey Ram" المحفورة على نصبه التذكاري. وما زال الهنود يعظّمونه ويجلّونه وذلك كـ "أب الشعب".

وهذا الرجل الشديد النحول، ملك تأثيراً غريباً على بقية أجزاء العالم على السواء، فهو ملك تأثيراً قوياً على نيلسون مانديللا ومارتن لوثر كنج في كفاحهما الشخصي ضد الظلم والاضطهاد. يقول مانديللا عن غاندي: "الهند هي مسقط رأس غاندي، وجنوب أفريقيا هي بلده بالتبني". وقد عبأ شعبه ضد الحكومة البريطانية التي انتهكت واغتصبت حرياتهم. وهو يقر بقوله: "إن اللاعنف هو الموقف الرسمي للائتلافات الأفريقية الرئيسية. وقد بقي الأفريقيون الجنوبيون وبإصرار ضد العنف على مدى وجوده".

لقد اتبع مانديللا مبدأ اللاعنف ضد التمييز العنصري بقدر استطاعته. ولكن تأتي هناك مسألة وذلك عندما لا يكون بالإمكان مواجهة القوى الوحشية بمقاومة فعالة. حينها فقط أسّس "قوات أنخونتو" ومنح مقاومتهم أبعاداً عسكرية. ومع ذلك، فقد كان تركيزهم فقط على التهديم لأن هذا لا يستلزم

خسارة الحياة.

ولم يكن غاندي نفسه يستبعد العنف نهائياً فقد قال: "عندما يكون الخيار واقعاً بين الجبن والعنف، أنا أنصح بالعنف.. أنا أفضل استعمال السلاح دفاعاً عن الشرف عوضاً عن البقاء شاهد على الخنوع".

ويتساءل الواحد: ما هو شكل السياسة في الهند لو أن غاندي لم يواجه موته سريعاً بعد الاستقلال؟ لو أن غاندي لم يلقَ حتفه لكان باستطاعته إنجاز الفضيلة الغاندية التي كان يرغبها كثيراً، لأن عملية التقسيم بين الهندوس والمسلمين جرت في العمق. ولكنه كان سيمارس وبكل تأكيد مزيداً من التأثير على أعمال الحكومة الهندية وسيؤثر وبدرجة كبيرة في تنظيم وكتابة دستور الهند.

وربما لكان أيضاً حاز على جائزة نوبل للسلام. والغريب أنه كان قد رشح لنيل هذه الجائزة مرات خمس إلا أنه لم يحصل عليها أبداً. وفي الحقيقة فإنه وفي العام 1948 لم يتم منح جائزة نوبل للسلام لأي شخص على الأرض لأنه لم يكن هناك مرشح حي مناسب. وفي العام 1989 عندما تمّ منح دالاي لاما جائزة نوبل للسلام، فقد قال رئيس اللجنة "كانت الجائزة وفي جزء منها لتكريم ذكرى المهاتما غاندي".

إلا أن التكريم الأكثر تلاؤماً، كما أعتقد، كان ذاك الممنوح من قبل ألبرت آينشتاين الذي قال: "إن الأجيال القادمة ستصدق بارتياع بأن شخصاً كهذا قد يجتاز جميع أنحاء العالم جسداً وروحاً".

آنديرا وراجيف غاندي

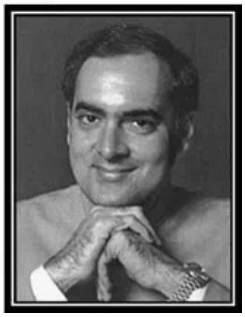

"أمسك بتاجك، مير، كن حذراً، دلهي مكان لا يُؤمَن له".

إن بيت الشعر السابق هو من نظم "مير تقي مير" عميد مدرسة الشعر الأوردي في دلهي. وهو يقف بمثابة شهادة على عاصمة الهند التي كانت لقرون عديدة موضع القوة والمطامح. وقد شهدت دلهي العديد من الحروب الدامية من أجل الهيمنة السياسية والعسكرية، وقد حلّقت الأسر الحاكمة عالياً بطموحاتها إلا أنها ما لبثت أن سحقت لتخلف كل منها وراءها تركة من المكائد والمؤامرات. لقد شهدت عاصمة جمهورية الهند علواً ثم انهياراً للعديد من السلالات الحاكمة والإمبراطوريات. إن العداوات والصراعات الداخلية الطاحنة مهّدت السبيل للمكائد السياسية والملاحم المكيافيلية، حيث تنافس كل منها على البقاء كعلامة مميزة في تاريخ الهند.

من هذه الأسر الحاكمة عائلة نهرو غاندي التي سيطرت على الهند

المستقلة ذات الأعراف الديموقراطية بعد نيلها الاستقلال من البريطانيين. وقد كانت الأسرة الأولى في السياسة الهندية والتي حكمت الشعب بصورة مباشرة على مدى ما يقارب الـ 37 عاماً. وذلك قبل العام 1947. فقد كان جواهر لال نهرو أول رئيس وزراء للهند والذي تبعته ابنته أنديرا غاندي ثم ابنها راجيف غاندي.

وعندما أصبحت أنديرا رئيسة وزراء الهند في 19 كانون الثاني/يناير 1966، كان التاريخ يعيد نفسه وذلك لأن الهند عادت لتُحْكَمْ من قبل امرأة بعد ما يقارب الـ 730 عاماً. ففي العام 1236م، اعتلت العرش السلطانة راضيا (وكانت معروفة أكثر برازيا سلطانة) وكانت ابنة شمس الدين التومش، وقد تربعت على عرش دلهي، لتصبح أول امرأة تحكم الهند. إن شبه القارة الهندية في القرن العشرين قد أبرزت نساء عديدات سيطرن على السياسة القومية. منهن: سيريمافا باندرانايكا من سيريلانكا التي فتحت الباب كأول رئيسة وزراء في العالم ولتصبح ابنتها شاندريكا كوماراتونجا رئيسة جمهورية. وأيضاً فقد كان لكل من بنغلادش والباكستان حصتهما وذلك مع الشيخة حسينة واجد وخالدة زيا وبينازير بوتو. وتجدر الإشارة إلى أنهن كنّ جميعاً من عائلات سياسية حاكمة، ونجحن كبنات وزوجات لرؤساء وزراء سابقين أو رؤساء جمهوريات، ومن خلال أساليب متعددة. وهن يمثلن شهادة صامتة ومضنية لشبه هذه القارة ذات "التركيبة الإقطاعية" والتي تمّ وضعها وبشكل أفضل ضمن "نظام ملكي ديموقراطي".

ولدت أنديرا بريادارشيني في 19 من تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1917م في الله أباد الواقعة على ضفاف نهر الغانج، الطفلة الوحيدة لجواهر لال نهرو وكمالا نهرو، التابع المتحمس للمهاتما غاندي، القائد لحركة الهنود للتحرير/ التحرير الهندية. وكان جدها موتيلال نهرو محامياً ثرياً وعضواً سابقاً في حركة التجمع. وكانت أمها سياسية يمينية بارعة، إلا أنها دائمة الاضطراب بسبب النكسات الصحية والتي كان أقساها إصابتها بمرض السل الرئوي والذي لم تبرأ منه.

مرّت أنديرا الصغيرة بطفولة موحشة، فقد كانت عائلتها في حركة مستمرة إلى السجن وخارجه؛ طوراً في السجن وطوراً خارجه وتزامن ذلك مع ذروة

الكفاح الهندي لنيل الاستقلال. وبالنسبة لأنديرا الصغيرة، فقد كان العمل الأثير (المُفضَّل) لديها الوقوف على طاولة مرتفعة بعد تجميع الخدم حولها، لتلقي عليهم خطبة سياسية مدوّية. ومما وعته ذاكرتها إضرام النار في الهواء الطلق في باحة دارها لإحراق البضائع (الأجنبية)، وكان تمثلها لذلك الموقف وكطفلة إيقاد النار بدُماها كإشارة منها على مقاطعة البضائع الغربية أيضاً. ومن ناحية ثانية وفي وقت مبكر من طفولة محرومة؛ برهنت سلسلة رسائل والدها التوجيهية التربوية التي خطّها لها من سجنه، بأنها مجموعة ملهمة وقيّمة. وعند بلوغ أنديرا الثانية عشرة من عمرها قامت بإنشاء فرقة هي "فرقة القردة" "Vanar Sena"، والتي تخصص أعضاؤها في سرقة الجنود البريطانيين القدامى بما في ذلك الرسائل ذات الطابع السياسي.

دخلت أنديرا ما يفوق السبع مدارس في دول مختلفة: في سويسرا وإنكلترا والهند. وكانت دائماً بعيدة عن عائلتها. توفيت والدتها وكان لها من العمر تسعة عشر عاماً. بعدها توجّهت أنديرا إلى إنكلترا وكان ذلك في العام 1936 لدراسة التاريخ في جامعة أكسفورد، لتقوم هناك بالانضمام إلى حزب العمال البريطاني، ولتقع من ثم أسيرة أفكار كريشنا مينون ولتصبح من المحرضين في رابطة الهنود التي تحثّ على الاستقلال. وبصورة عامة فقد مرّت أنديرا في طفولتها باضطرابات؛ تعليم كيفما اتفق، صحة رديئة، موت والدتها المبكر، وإحساس بفقد الأمان وذلك نتيجة لتواجد والديها في السجن بين فترة وأخرى.

وفي لندن، تمّت لأنديرا معارفها الشخصية أبرزها معرفتها بالطالب النشط فيروز غاندي الذي كان يتردد بشكل منتظم على أناند بهافن (منزل عائلة نهرو في الله أباد) كما أنه كان إلى جانب سرير كمالا نهرو في المستشفى التي كانت ترقد فيه بالقرب من لوزان في سويسرا وذلك عند وفاتها. وقد وجدت أنديرا برفقته عزاء لها بعد فقدها والدتها كما وفي صراعها السياسي والشخصي في حياتها وفي وحدتها المتزايدة.

ونظراً لضعف صحتها وبسبب بدء نشوب الحرب العالمية الثانية، اضطرت

أنديرا للعودة إلى الهند في العام 1941. وقد حال المعدل المنخفض لسجلها الأكاديمي دون حصولها على أية شهادة رسمية. ومن ثم وبعد رجوعها وفيروز إلى أرض الوطن، أعربت أنديرا عن رغبتها في الزواج منه. كان والدها نهرو متخوفاً ومتردداً؛ إلا أنه وبتأثير من المهاتما غاندي أعلن موافقته. وبعد مرور بضعة أشهر من الزواج، كان الزوجان نزيلين في السجون البريطانية وذلك بتهمة التدمير أثناء "حركة الهند الفعلية". امتدت فترة سجن أنديرا الأولى حوالى 13 شهراً، وبعد إطلاق سراحها أقامت وزوجها في الله أباد. وفي العام 1944 أنجبت راجيف غاندي وبعد عامين أبصر سانجي النور. كان فيروز في البداية يعمل كمحرر في صحيفة ناشيونال هارولد، حيث كان زواجهما يسير في الفترة الأولى على نحو جيد؛ إلا أنه شهد تدهوراً فيما بعد عندما انتقلت أنديرا إلى دلهي لتكون بقرب والدها الذي كان حينها رئيساً للوزراء، لمساعدته في مهماته المتنوعة كرئيس دولة. وأصبحت مضيفته الرسمية، والمؤتمنة على أسراره، والسكرتيرة والممرضة، وأصبحت أدوارها هذه أكبر وذلك بعد وفاة حليف نهرو الوثيق وحلاّل مشاكله رافي أحمد كيدوي.

وشيئاً فشيئاً ومع الوقت أصبحت أنديرا بمعزل عن فيروز باستثناء ابنها الذي ظلّ يعيش معها ملازماً لها، إلا أنها وعند اقتراب انتخابات الهند العامة في العام 1952، قامت أنديرا بإدارة حملة انتخاب والدها وزوجها الذي كان منافساً لباريللي، لكنه فاز عليه. وسرعان ما تنامت سمعة فيروز في كونه المتكلم الناقد باسم التجمّع ضد الفساد، وأدى ذلك إلى الكشف عن فضيحة مندهار التي زعزعت شركة التأمين على الحياة (شركة الهند للتأمين) وأجبرت من ثم وزير المال في ذلك الوقت ت. ت. كريشنا فاشاري على الاستقالة. إلا أن فيروز وحالاً وبعد انتخابه، أصيب بنوبة قلبية، فاصطحبته أنديرا إلى كشمير للاستشفاء، فأصبحت العائلة أكثر اقتراباً من بعضها، ولكن فيروز توفي في الثامن من أيلول/سبتمبر من العام 1960 وكان ذلك أثناء وجود أنديرا في الخارج مع نهرو.

وبالعودة، فقد بدأت حياة أنديرا السياسية مع قرارها الانفصال عن زوجها والعيش مع والدها. وكابنة للشعب كانت ترافق والدها حيثما ذهب، وكانت تعرف معظم رؤساء العالم من خلال أسمائهم الأولى، وكان نهرو قوي الثقة

بها، إلا أنها لم يكن لديها أية مواقف سياسية واضحة وذلك عند اقترابها من الأربعين. كانت تستظل بظل والدها المرموق الذائع الصيت. وفي العام 1955 دقت الفرصة بابها وذلك عند تعيينها عضواً في لجنة العمل النافذة في حزب التجمّع. ومستغلة تلك الفرصة، قامت أنديرا بزيارة كل جزء من أجزاء الهند حتى المنعزلة منها، لتصبح أنديرا بذلك الشخصية الثانية في الهند الأكثر شهرة. وفي العام 1959 تمّ تعيينها رئيسة لحزب التجمّع من قبل الرسميين فيه. وكان أكثر ما يذكر خلال فترة ولايتها القصيرة هو موقفها ضد الشيوعية والذي أجبر الحكومة المركزية على حلّ الحكومة الشيوعية الأولى أبداً المنتخبة بديموقراطية في منطقة كيرالا (تجمّع أقاليم جنوبي الهند).

وأخيراً أصبحت أنديرا حاضرة في المشهد السياسي الهندي، حيث كانت ماثلة من العام 1966 إلى العام 1984 كرمز عظيم، باستثناء فترة قصيرة كانت من العام 1977 إلى العام 1979. وبالإشارة، فإن أنديرا وخلال عام برهنت وبعد نجاحها في مهماتها، على أنها مديرة متمكنة، وقائدة حملات من الطراز الأول لحزب التجمّع، إلا أنها وفي العام تخلّت عن مهماتها بسبب حاجتها لتكون بقرب والدها.

وعند وفاته؛ "وفاة أب الهند الحرّة الديموقراطية"، وكان ذلك في 27 أيار/ مايو من العام 1964، تقبلت ابنته تلك الفاجعة بوقار شديد، حيث قامت بتجهيز كل التفاصيل الخاصة بتشييعه وحتى إنها طارت لتشرف على نثر رماده فوق ثرى جميع أنحاء البلاد. إلا أنها فقط وعند انتهائها من تلك المراسم الرسمية، أحست بهول تلك الفاجعة إلى درجة أنها أصبحت تذرف دموعاً لا تجف وركنت إلى حزن لم يعد يفارقها أبداً واستمرت على هذه الحال إلى وقت طويل. ولكن ومع قدوم بهادور شاستري كرئيس للوزراء، عرض عليها منصب وزارة الخارجية، وفي رغبة منها للبقاء بعيداً عن الأضواء، قبلت أنديرا مهام وزارة الإعلام والنشر. وكخطوة في ممارسة مهماتها، وكخطوة عاجلة، سارعت أنديرا إلى تحرير محطات الإذاعة والتلفزيون كناطقين بلسان الحكومة، كما أنها عملت على زيادة ساعات البث الإذاعي. وقد كان لمعالجتها الماهرة للقضايا اللغوية الحساسة في منطقة التاميل، قلب جنوبي الهند، صداها، إذ إنها عمدت إلى إرساء اللغة الهندية في تلك المنطقة

بصفتها اللغة الرسمية في الهند، وهذا جعلها شخصية محبوبة في تلك المنطقة التي بقيت معقلاً قوياً لدعم أنديرا في مهماتها السياسية.

وعلى كل حال فإنها لم تكن تتوقع بأن القدر سرعان ما سيدفعها إلى كرسي الرئاسة؛ رئاسة وزراء الهند. ففي كانون الثاني/يناير العام 1966 حضر رئيس الوزراء المنتصر شاستري خان ورئيس الباكستان المهزوم محمد أيوب مؤتمر قمة في تاشكنت/طاشقند لتوقيع بيان تاشكنت لإنهاء الأعمال العدائية بين البلدين، إلا أنه وفي اليوم التالي توفي في آذار/مارس شاستري الرجل البطل في حلّ الصراعات الهندية الباكستانية للعام 1965 والذي أعطى الهند شعارها الدائم (تحية للجنود، تحية للمزارعين)، توفي إثر نوبة قلبية.

وعند انتشار نبأ وفاته في أنحاء الهند، شاعت في الأجواء أسماء لأشخاص من المتوقع أن يحلّوا محله، وكان منهم س. ك. باتل، الرئيس السياسي على ولاية بومباي، ووزير الدفاع ي. ب. شافان ورئيس الوزراء المفوض جلزاريلال ناندا، البيوريتاني الكبير وزير الموارد المالية السابق مورارجي ديسّي، وأنديرا التي لم تكن تملك أي وزن سياسي، إلا أنها وضعت في حينه في هذا السباق.

كانت مهمة اختيار رئيس وزراء للبلاد تعود إلى حزب "السيندكة Syndicate/ الاتحاد" وكان المعسكر قد انقسم وبوضوح بين المحافظ مورارجي ديسّي والمفوض بأعمال رئيس الوزراء جلزاريلال ناندا. وكان صانع الملوك في تلك الآونة هو الماكر كومارا سوامي كاماراج نادار، رئيس حزب التجمّع. وكان دوره في إيجاد مرشح مقبولاً من كلا الجناحين اليميني واليساري، وقد وقع الاختيار على أنديرا. وكان كاماراج الاتحادي يعتقد بأن أنديرا إنما هي شخصية سهلة الانقياد، وسرعان ما ستقع تحت المؤثرات، إلا أن الزمن فقط سيبرهن كم أن أصحاب هذا الرأي كانوا مخطئين وعلى نحو لافت.

وعلى كل حال، فقد كان مورارجي ديسّي صلباً، ورفض ترك السباق، وظلّ ملتزماً، آخذاً على نفسه عهداً بإعادة عملية الانتخاب ضمن الحزب. ونتيجة

لتلك الانتخابات حصدت أنديرا على 355 صوتاً مقابل 169 صوتاً لمورارجي ديسّي. وفي 24 كانون الثاني/يناير من العام 1966 كانت أنديرا قد أدّت يمين القسم كأول رئيسة وزراء للهند. وكانت هناك استحقاقات انتخابية في العام 1967. إلا أن ما كان يمثل ضغطاً بشكل أكبر هو القحط الذي أصاب محاصيل القمح في الهند. لذا وفي العام الأول من وجودها في ذاك المنصب، قامت أنديرا بزيارة الولايات المتحدة للحصول على دعم للاقتصاد الهندي الواهن، ولاحقاً قامت بزيارة الاتحاد السوفياتي وذاك يأتي على نهج خُطى والدها الداعي لعدم الانحياز. ثم قامت أيضاً بمنح السيخ مطالبهم التي تمثلت في فصل البنجاب كإقليم.

ثم تأتي الانتخابات العامة في دورتها الرابعة للعام 1967 وفي دورتها الأولى بالنسبة لأنديرا التي كانت ترى بأن حزب التجمّع يمتلك أكثرية ضئيلة في البرلمان بمقاعد هي 283 مقعداً من أصل 520 من المقاعد. وقد أدّت أنديرا يمين القَسَم كرئيسة للوزراء، ومورارجي ديسّي كنائب لرئيسة الوزراء ووزيراً للمالية. وفي ذاك العام 1967 قامت أنديرا بتأميم البنوك التجارية، وعمدت في العام 1970 إلى اقتطاع الستة مليون دولارٍ من مخصصات الحكومة وذلك لصالح مهراجات الولايات الأميرية السابقين. من هنا فإن ازدياد أوتوقراطية الحكم في سياستها جعل خصمها المحافظ يلتفّ حول منافسها الرئيسي، نائب رئيس الوزراء مورارجي ديسّي الذي سارعت إلى إقصائه من منصبه وذلك بسبب الاختلافات المتزايدة.

ومن ثم قامت بالإعداد لانتخاب فارهجيري فينكاتا جيري كرئيس للهند عندما كان مرشح التجمّع الرسمي هو سانجيفا ريدّي. وكان هذا التحول بمثابة آخر مسمار في النعش، إذ تمّ عزل أنديرا من قبل الحرس الملكي بدعوى عدم الانضباط. ورافضة تلك الإجراءات، أعلنت ولاء معظم أعضاء البرلمان المنتخبين لمصلحة شعار "التجمّع الجديد" وفازت بالتصويت بالثقة في البرلمان. ثم دعت في النهاية للانتخابات في العام 1970، ثم اكتسحت الاقتراع في آذار/مارس 1971 وحازت على 350 مقعداً وذلك عن لوك سابها (مجلس النواب للممثلين في البرلمان الهندي Lower House of Representatives in the Indian Parliament) وذلك بنسبة ثلثيْ الأكثرية. والآن أصبحت إمبراطورية

الهند بأكملها تحت القيادة، حيث استطاعت أنديرا التغلب على جميع خصومها في التجمع.

وقد برهنت قيادتها وحماسها وجلدها على جديتها وبهذا أوصلت شرقي الباكستان إلى الاستقلال عن غربيها في العام 1971. وساعدت حرب البنغلادش على رفع أنديرا فعلياً إلى مقام "الآلهة الأم" في الهند. بالإضافة إلى ذلك كشفت عن أنها تملك استراتيجية عسكرية متألقة ودبلوماسية، حطّت من قدر نظيرها الباكستاني الجنرال آغا محمد يحيى خان. وفي العام 1972، ساعدت أنديرا الهند على البدء في إطلاق برنامجها النووي، وفي أيار/مايو من العام 1974 قامت الهند بتفجير قنبلتها النووية الأولى لتصبح الدولة السادسة في ذلك المجال. إلا أن التوتر العام بدأ يلقي بظلاله على الاقتصاد وذلك عندما ترنحت الهند تحت وطأة مشاكل اللاجئين البنغلادشيين بالإضافة إلى نفقات الحرب. ثم وفي العام 1947 كانت الهند تواجه الارتفاع المفاجئ لأسعار النفط والتضخم المالي، والبطالة، ومشكلة المزارعين بلا أراضي الذين وقعوا فريسة الفقر. أضف إلى ذلك كله الفساد المتفشي الذي انتشر في الدواوين والحكومة. كانت الهند تغرق في حينه وكذلك أنديرا.

وقام كلٌّ من جاي براكاش نارايان، عالم الاجتماع البالغ الثمانين من عمره، ومورارجي ديسّي، بحشد القوى لتشكيل حزب الجناتا لمحاربة الفساد الحكومي وقيادة أنديرا غير اللائقة. واجتمعت الحشود المتحركة وتحركت بسرعة متزايدة في كل أنحاء البلد وأصبحت الإضرابات والعنف أكثر احتداماً؛ ثم في الثاني عشر من حزيران/يونيو من العام 1975 وجد الحاكم "سينها" في المحكمة العليا في الله أباد وفي حكمه المريب الذي أصدره بحق أنديرا بأن أنديرا متهمة بالقيام بأعمال محظورة خلال الانتخابات الخاصة بمقعدها في لوك سابها. وقد حرمها قرار الاتهام من إدارة أية دائرة انتخابية على مدى ست سنوات، وحالما استأنفت أنديرا الحكم في المحكمة العليا التي أصدرت قراراً بإيقاف ذاك الحكم في 24 حزيران/يونيو. وفي اليوم التالي أعلنت الأحزاب المعارضة خططاً لإجبار أنديرا على الاستقالة من خلال التنادي إلى حركة عصيان مدني. وتحت ضغط الانتقاد قاربت أنديرا الرئيس فخر الدين علي أحمد لإعلان حالة الطوارئ في البلاد، وقد لان واستجاب لهذا المطلب معلناً وفي 26 حزيران/يونيو من

العام 1975 حالة الطوارئ.

بعدها أصبح كل رئيس من رؤساء المعارضة السياسية الهندية مسجوناً فعلياً، أو تحت الإقامة الجبرية لعامين على الأقل، ولم يُسْتَثْنَ من ذلك أيضاً البعض من الصحافيين والأكثر شهرة من المحامين والمثقفين والطلاب والمتظاهرين والناشطين السياسيين الذين طالهم السجن أيضاً، وبالإجمال فقد بلغ عدد الذين وضعوا خلف القضبان حوالى الـ 50.000 شخص، كما أنه تمّ وضع رقابة شديدة على الصحافة.

وقد شهدت البلاد أثناء حالة الطوارئ صعود سانجي غاندي ابن أنديرا الأصغر، وأصبح متفرداً بالتأثير عليها مع جماعته المؤلفة من بانسي لال، أوم ميهتا، ف. س. شكلا، ر. ك. دهاوان، سيدهارثا شانكار راي، محمد يونس وسوامي دهيريندرا براهماشاري (الذي كان راسبوتين السياسة الهندية). كان هؤلاء وبكل معنى الكلمة، يديرون البلاد خلال حالة الطوارئ. كان سانجي شاباً متهوراً ووسيطاً قديراً لا يخضع للقانون، إلا أنه كان يملك سمعة أنديرا، وكانت تُهيأه ليكون خليفة لها. وقد قادته تجاوزاته فيما بعد في العام 1978 إلى السجن بما في ذلك حملته الشائنة للتعقيم الإجباري، تحطيم الأكواخ، وتخريب طبعات فيلم "آمرت نهاتا/وداعاً كورسيكا". وكان هناك نقد شديد بالنسبة لحالة الطوارئ والسياسيين الذين هم في السلطة.

إلا أنه، وعلى خط آخر كان لحالة الطوارئ مكاسب اقتصادية، فنتيجة لاستقرار الأسعار، زاد الإنتاج، وعمّ ارتياح مالي. وكان هناك شعور بالارتياح في جميع أنحاء البلاد بالعودة إلى الحالة الطبيعية. وتمّت معاقبة المهرّبين والهاربين من أداء الضرائب، وأصحاب السوق السوداء كلهم على السواء. وربما كانت دعوة أنديرا للانتخابات هو بسبب المكاسب الاقتصادية من ناحية، وخوفاً من تزعزع أركان الجيش من ناحية أخرى. هذا وإن سنوات حالة الطوارئ التي مرّت بها البلاد من 1975 إلى 1977 أبرزت شعاراً هو: "الهند أنديرا، وأنديرا الهند". وهذا كان محل اختبار في قادم الأيام، حيث قادت التجمّع إلى حملة انتخابية.

وتمّ إطلاق سراح معظم السجناء السياسيين، وسرعان ما قام جاي براكاش نارايان بإعادة الحياة لحركة "جاناتا Janata movement" بالاشتراك مع مورارجي

ديسّي. وفي الانتخابات اللاحقة التي جرت في شباط/فبراير 1977 فَقَدَ كلٌّ من أنديرا وسانجي مقعديهما، فقد منحتهما حركة جاناتا التي تملك 295 مقعداً نسبة ضئيلة، وأصبح مورارجي ديسّي رئيساً للوزراء، وكانت أعباء الفساد تتوالى ضد أنديرا، وسجنت مرتين، إلا أنها لم تقاضَ بسبب فقدان الأدلة. لكن تلك المرأة التي لا تعرف الكلل ربحت في الانتخابات الفرعية في العام 1978 من شيكماجالور، ودخلت البرلمان تحت لواء تجمّع I) I/Congress)، (ويرمز ال- I إلى أنديرا)، والذي قامت أنديرا وداعموها بتشكيله في العام 1978. وقد توقف نشاط حزب جاناتا بعد عامين من وصوله إلى السلطة بسبب مشادة كلامية، ومُنّي أعضاؤه بالفشل في توفير بديل للشعب الهندي، وسقطت الحكومة، وفي الانتخابات العامة في العام 1980 عادت أنديرا عودة المنتصرين من خلال فوزها بثلثي الأكثرية في البرلمان.

وفاز سانجي غاندي بالانتخابات لأول مرة عن لوك سابها، وأيضاً بقي خارج مجلس وزراء والدته. إلا أن نمطه في الحياة اللامبالي والمتهور قاده إلى موته باكراً. فبعد ستة أشهر أو أقل من حصوله على مقعد في البرلمان في العام 1980، استقل سانجي طائرة ولم يكن مؤهلاً لقيادتها. ومتهوراً حاول التوقف على ارتفاع منخفض جداً لترتطم طائرته بالأرض ملاقياً حتفه.

ولم تتعافَ أنديرا أبداً من لوعة فقدان سانجي، فقد كانت الصدمة قوية بالنسبة لها. ولكنها ما كادت جثة سانجي يُذَرُّ رمادها حتى سارعت لتطويع ابنها الكبير راجيف في الحياة السياسية، الذي كان شديد الحياء، وكان ربان طائرة في الخطوط الهندية، ولم تكن لديه أية اهتمامات أو طموحات سياسية. وفي الغالب لم تكن لديه الرغبة في لبس عباءة أخيه. ولد راجيف في العشرين من آب/أغسطس سنة 1944، فكان الولد الأكبر لأنديرا وفيروز. تزوّج من سونيا ميدو من الجنسية الإيطالية في العام 1996، وأنجبا طفلين: بريانكا وراهول غاندي.

وقد قام البرلمان بإرسال عريضة يلحون فيها على راجيف بأخذ مكان أخيه. وبعد لأْيٍ، ونزولاً عند طلبهم، وفي حزيران/يونيو 1981 وقف في الانتخابات الفرعية في آميثي (أتر براديش، الإقليم الهندي الأكثر سكاناً والمنطقة في أواسط الهند) وفاز عن مقعد أخيه في البرلمان كما وأيضاً مكانه عن اللجنة

التنفيذية لجناح الشباب في الحزب.

إلا أن الأمور لم تكن جيدة على هذا الحال ضمن عائلة غاندي. فالحرب على الخلافة لم تكن لتمضي على الإطلاق، فقد دخلت مانيكا غاندي أرملة سانجي الميدان السياسي، حيث قامت بتكوين حزبها السياسي الخاص "منبر سانجي الوطني The national Sanji platform"، إلا أن أنديرا طردتها من المنزل فشدّت هذه الخصومة العائلية انتباه جميع الأوساط.

وعلى الصعيد الوطني لم يكن هذا مناسباً بالنسبة لأنديرا حيث كانت الهند غارقة في ويلات الفقر، والطائفية (تعايش المجتمعات المختلفة)، والجور في تباين المستويات، والتفاوت الفاضح في الثراء والتعليم. وكان الفرد محاصراً في حياته اليومية، مما انعكس على الحياة بصورة عامة التي أصبحت مرهقة بشكل متزايد. بالإضافة إلى ذلك فإن حزب التجمّع الذي تسود أعضاءه السذاجة والنفعية شهد نتيجة لذلك انشقاقات وانعكس ذلك سوءاً على نشاطاتهم في أقاليم الهند الثلاث: كشمير، أسّام، والبنجاب.

فالانفصاليون الكشميريون لطالما، ومنذ وقت طويل، طالبوا باستقلال كشمير. واستمر القائم على أمور حرب الباكستان في تكتيكه الداعم للمقاتلين في الكشمير. وفي الشمال الشرقي، كانت أسّام تحترق بنار قضايا المهاجرين البنغلادشيين التي كانت تشغل هذه المرحلة. وأصبحت أعداد كبيرة من الأقليات بلا مأوى، وحطمت مذبحة نيللي في العام 1983 صورة أسّام كإقليم وادع سالم، موئلاً للتعايش السلمي العلماني المتعدّد الأعراق.

ولم يكن ليستثنى إقليم البنجاب، الإقليم الأكثر ثراء في الهند، ومحط الرخاء الاقتصادي، إذ بدأ الداعون للانفصال يبرزون برؤوسهم عالياً. وكانت أنديرا قد منحت البنجاب حقه في الاستقلال الأمر الذي كان مرفوضاً من قبل والدها، خوفاً من أن الحق الممنوح للسيخ والذين كانوا يشكلون جماعة ذات عقيدة

ولغة، سيفتح الباب للمضي بعيداً في تجزئة البلاد على قاعدة دينية. وقد كانت مخاوفه في محلها إلى حدّ الإذهال، حيث قرّر المقاتلون السيخ فصل خالستان موطنهم الأصلي. ويمكن للواحد تذكّر كلمات السيد تارا سينغ التي كانت بمثابة نذير سوء، وذلك في وقت الانفصال: "أخذ المسلمون بلدهم الباكستان، والهندوس هندستان، ولكن ما الذي حصل عليه السيخ؟!"

وهكذا هددت دائرة العنف بتحطيم الإرث الديموقراطي الهندي، إذ سرعان ما انفجر العنف الطائفي والمذهبي، وأصبح جرحاً متقيحاً. وفي فترة تاريخية ما فإن المديح للهند والذي قدّمه الأمير خسرو، الشاعر الأسطوري والملاك المتصوف في القرن الثالث عشر بدا بعيداً عن الواقع:

"إذا كان هناك جنّة على وجه الأرض، إنها هذه، إنها هذه.. إنها هذه..".

وكان عنف المنشقين الأسوأ يحتدم في إقليم البنجاب. وكان قد جعل نجاح "الثورة الخضراء" في وقت متأخر من ستينيات القرن العشرين، هذا الإقليم مزدهراً ومتمتعاً بمستوى معيشي عالٍ بالمقارنة ببقية أقاليم الهند، حيث شكّل جزيرة ازدهار في بحر من الفقر! وعلى الرغم من موافقة أنديرا إلحاق قندهار بالبنجاب كعاصمة لها في العام 1970 إلا أن ذلك بقي وعداً غير منجز. وقد حاولت إرضاء السيخ بخيبتهم من خلال تعيين جياني زيل سينغ كوزيرٍ من طائفتهم، والذي أصبح لاحقاً رئيساً للهند. وعلى كل حال فقد تمّت إثارته ثم تخوينه من قبل رئيس حزب الأكالي، حزب السيخ السياسي. وفي وقت مبكر من ثمانينيات القرن العشرين طالب بعض السيخ بمواطن مستقلة خاصة بهم وعوضاً عن ذلك طالبوا ليس بأقل من دولة لهم، "خالستان المستقلة" دولة السيخ أو "أرض الصفوة". وقد أدى تصاعد مطالب السيخ بأنديرا إلى رفضها التسوية مع رؤساء حزب الأكال المعتدل الذين طالبوا بالاستقلال. وخدم ترددها في مواقفها المتعصب سانت جارنيل سينغ بهيندرانويل، وجعله ذلك قوياً في مواقفه مما أدى إلى الرفع من قيمة المقاتلين السيخ.

وخلال العام 1984 أدت اشتباكات السيخ إلى تدمير إقليم البنجاب، الذين أظهروا القليل من الاحترام للقانون والنظام. وكانت البلاد تسير نحو أسوأ مرحلة من مراحل العنف والتمرد المدني، والذي هدّد بتمزيق الهند وتقسيمها إلى أجزاء ذات أعراق مختلفة. وفي نفس العام قام بهيندرانويل مع جماعة مقاتليه بالسيطرة على أضرحة القديسين السيخ، وتمّ تحويل المعبد الذهبي إلى قلعة مقدسة. ورداً على الأعمال العبثية، وعلى عمليات القتل، لم يكن لدى أنديرا أي خيار سوى الانقضاض على تلك المزارات المقدسة. وقد سميت تلك العملية بـ "عملية النجم الأزرق" التي تمّ تنفيذها في أوائل حزيران/يونيو 1984. وبعد ليلة من القصف المدفعي، قام الجيش بنقل المستودعات والجنود إلى داخل المعبد، واستمر احتدام المعارك أربعة أيام بلياليها انتهت بالقضاء على بهيندرانويل وعلى معظم مقاتليه، وأسفرت عن وفاة مئة جندي على الأقل، وبقاء مئات الأبرياء في جحيم النار. وكانت المغامرة السياسية الأجرأ لأنديرا غاندي، مع الانتخابات في العام 1985 التي كانت تلوح في الأفق، والتي دفعت حياتها ثمناً لها.

ففي 31 تشرين الأول/أكتوبر 1984 تمّ إطلاق النار على أنديرا في عملية ثأر من قبل اثنين من السيخ من حرسها الخاص، وذلك في حديقة منزلها في نيودلهي. حدث ذلك في صباح خريفي جميل ومشرق، وكان النسيم يهب لطيفاً على امتداد رقعة واسعة من الأرض على طريق سافدارجانغ في نيودلهي حيث المقر الرسمي لرئيسة الوزراء. كانت قد بلغت السادسة والستين من عمرها وما زالت تتمتع بصحة جيدة وبروح حماسية. في ذلك الوقت، كانت أنديرا تحضّر للدورة الخامسة لانتخابات رئاسة الوزارة.

وفي طريقها للقاء المخرج الممثل البريطاني بيتر يوستينوف الذي كان في انتظارها مع الطاقم في التلفزيون لنقل لقائهما. وعند تحركها ومرورها باثنين من حرسها قامت بالانحناء على طريقة الهنود محيية بقولها "ناماست". كان أحد الحرسين واسمه بنيت سينغ أثيراً (مُفضَّلاً) لديها إذ كانت على معرفة به منذ عشر سنوات وكان يقف والآخر وهو ساترانت سينغ على بعد سبعة أقدام منها عندما سحب بنيت مسدسه الـ 38 مطلقاً رصاصات في تجويف بطنها. ولدى سقوطها على الأرض تابع سينغ إطلاق الرصاص مفرغاً رصاصات

مسدسه الأوتوماتيكي في جسدها المنهار. ومن فورها فارقت رئيسة الوزراء الحياة.

ويذكر بأن مدير تنظيم الاستخبارات المركزية كان قد نصحها في تموز بالاستغناء عن الرجال السيخ في جهازها الأمني، لكن أنديرا رفضت ذلك مباشرة، مجيبة بتهكم: "كيف ندّعي بأننا علمانيون؟!"

وفي اليوم التالي لمقتلها بدأ السفاحون المتعطشون للدماء في العصابة الإجرامية في التجوال في الأحياء المجاورة للسيخ، وحول دلهي، حيث أخذوا بإضرام النار في السيارات والمنازل والمحال، آخذين بذبح السيخ مخلّفين آلاف الضحايا، والمزيد من الجرحى والمشردين وذلك في أسوأ اضطراب ديني منذ تقسيم الهند.

إلا أن السياسة تمرّ بفترات مبهجة قصيرة الأمد. فبعد أقل من اثني عشر ساعة على وفاة أنديرا، وقع اختيار البرلمان [I] على الابن الأكبر لأنديرا راجيف غاندي ليكون رئيساً لهم، وبذلك يكون الشخص الثالث في عائلة نهرو الذي يحتل ذلك المركز.

في ذلك الوقت؛ أسئلة كانت تدور بالأذهان: هل سيقود موت أنديرا الهند إلى فوضى إضافية وتهديد يلوّح بالتفتت؟ وكيف سيقوم راجيف بإدارة تركتها السياسية؟ هل سيشعر المواطنون بعذاب الضمير لإضاعتهم الشخصية السياسية البارزة المتفردة الأكثر مهابة؟ كانت تلك التساؤلات وغيرها الكثير مُثارة في رؤوس الملايين من الهنود. وقد وُضع شعار أنديرا أثناء إعلان حالة الطوارئ في البلاد "الهند هي أنديرا وأنديرا هي الهند" موضع الاختبار.

لقد كان لأنديرا وكسياسية شخصية سلطوية، براغماتية (عملية) حادة، صلبة، تألف القوة (وقد أدمنت ذلك فيما بعد) وبقيت على ذلك بعناد مدى

حياتها. لم تكن أنديرا تثق بجماعة المفكرين، كان لديها القليل من التردد، وكانت معروفة بتسامحها ولكن ليس أمام أي انتقاد. كانت تكره طبقة المثقفين، وتشعر بطمأنينة مع العامة الذين شكلوا محيطها المباشر. كانت أستاذة ذات استراتيجية ضمن حزبها السياسي، وعلى الطرف الآخر، كانت تلعب دورها كزميلة وكأستاذة على الآخرين، لم تكشف يوماً أوراقها، وكان لديها شك دائم بمن حولها. وكانت إنسانة بضعفها وبزلاتها وشكوكها. وإنَّ موت سانجي غاندي المفاجئ هو الذي قصم ظهرها، حيث بدأت تشعر بالوحدة بشكل متزايد. إلا أن ذلك كله جعل العامة تلتف حولها متعاطفة معها وداعمة لها. لم تكن أنديرا قادرة على تحمل ابتعادها عن موقعها في السلطة، ولم تكن الهند أقلّ معاناة من معاناة أنديرا في ذلك؛ إلى درجة أنها فشلت في التوصل إلى حلول نهائية لويلات الهند المزمنة، وتحديداً معاناتها بسبب التشدد الديني، وعنف المنشقين. لقد حصّنت قوتها بمناورات سياسية مع تلك المواقف التحريضية. وإلى الآن، فإن الهند قد استطاعت الاستمرار بنجاح وكبلد ديموقراطي بعد موت أنديرا. وإنه لأمر بليغ ألاّ يكون باستطاعة الديموقراطية تحدّي موتها، على الرغم من أن أنديرا كانت متفردة بالسلطة حيث استمرت في السيطرة على المشهد السياسي على مدى عقدين من الزمن.

لو أن أنديرا غاندي بقيت على قيد الحياة؛ لكانت حازت على الفوز في انتخابات العام 1985. في حين أنها بموتها باتت الفرصة سانحة للبرلمان الذي استطاع الفوز بأكثريته بنسبة عالية منقطعة النظير لم يشهدها من قبل. ولكونها سياسية بارعة، كان عليها تهيئة راجيف على مدى أكثر من أربع

سنوات قبل تسليمه السلطة. لقد كانت السلطة والنفوذ رفيقيها وحسب؛ ولم تكن لتتخلى عن نشاطها السياسي. وحتى لو أنها سلمت السلطة لراجيف؛ إلا أنها كانت تتابع لعبتها السياسية من خلف الكواليس إلى آخر رمق من حياتها. لقد كانت أنديرا امرأة عملية، وحافظت على تلك المزية التي اشتهرت بها إلى النهاية. وليس من باب الدعابة اعتياد الناس القول: "لقد كانت أنديرا الرجل الوحيد في المجلس الوزاري".

وبالعودة، يمكن القول بأن راجيف باشر مهماته السياسية تحت صفة "الرجل النظيف" وذلك دون ماضٍ مرهق. وقام بمحاولة، وخلال الفترة القصيرة، وقبل الدعوة لانتخابات جديدة، بتطهير البرلمان من الفساد المترسخ فيه من خلال إلغائه بطاقة الاقتراع للسياسيين الفاسدين. وكان ذلك موضع تقدير المقترعين؛ لأن البرلمان كان يمرح وعلى نحو واسع في مقره الرئيسي بنسبة أعضاء بأعداد منقطعة النظير، ومن بينهم الأحزاب المعارضة التي كانت تملك 19 مقعداً في البرلمان وكان هذا نصراً حاسماً بالنسبة لراجيف غاندي، وكأن أنديرا وهبت بموتها تفويضاً لراجيف، والذي يؤكد على نجاحها متابعته خطها السياسي.

كان من أولويات راجيف غاندي ترشيد الاقتصاد الهندي الهابط. فقد عمل باتجاه حصر الرخص وإنهاء الروتين الحكومي، والترحيب بالاستثمارات الغربية. كان ينصرف عن فوبيا نهرو الاشتراكية باتجاه سوق اقتصادية مندفعة نشطة تقود الهند نحو القرن الواحد والعشرين. ليخفِّف الفقر، عمد راجيف إلى تسرُّب الثروة إلى الطبقات الفقيرة في المجتمع في حين قامت حكومته بتشجيع القطاعات الخاصة. ومنح شبابه الهند دماءً جديدة، وركب في العامين الأولين من حكمه الموجة الشعبية (انساب معها).

ومهما يكن من أمر، وفي البدء كان هناك شعور بالارتياح (الغبطة) إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، إذ بدأت الحملات تشتد على سوء الإدارة والفساد، لتبدأ معها حملات لتشويه العديد من منجزاته ليسقط معها في مستنقع فضائح

الفساد. وقد جاءته الطعنة السياسية الكبرى من وزيره المالي ف. ب. سينغ والذي قام في العام 1987 بالكشف عن حالات لم تدفع فيها العديد من البيوتات الصناعية الهندية الضرائب. وتمّ نقل سينغ إلى وزارة الدفاع، حيث كشف من موقعه عن خوات مالية للحصول على أسلحة وعلى الأخص من الشركة السويدية "بوفورز Bofors"، وتبع ذلك صخب سياسي، ثم استقالة سينغ من المجلس الوزاري متهماً راجيف بتدخله في تحقيقاته. وفي ذاك الوقت، احتلت مسألة تصادم راجيف مع الخائن جياني زيل سينغ موقع الصدارة، حيث حاولت جماعة البرلمان، وتحت بند حماية الرئيس، تنحيته.

وعلى الرغم من أن راجيف صنع حسناً في قمع الاضطرابات في إقليم البنجاب من خلال توقيعه اتفاقية البنجاب مع هارشاند سينغ لونغوال، إلا أن كشمير حلّت محل إقليم البنجاب كمسرح جديد للعنف ولحركات الانفصاليين. وتصاعدت أعمال الإرهاب والاضطرابات في كشمير التي كان شبابها يقاومون الاحتلال الهندي والذين كانوا في توق لنيل الاستقلال عن الهند. وتجاوبت الحكومة معلنةً أحكام الرئيس بإيقاف مفعول الانتخابات المحلية، دافعة بالمزيد من القوات العسكرية إلى أن تمّ وضع البلاد بأكملها تحت قرار منع التجول والأحكام العرفية.

ومهما يكن من أمر، فقد ثبت أن موطن الضعف لدى راجيف يكمن في مشكلة التاميل المنشقين السيريلانكية. وتفجّر الصراع بين الأكثرية البوذية السيلانيّة السيريلانكية وأقلياتها التاميلية الهندوسية حرباً أهلية. وقد اعتبرت الهند بأن وجود مجتمع تاميلي قويٍّ سياسياً يمتلك قوة سياسية ذاتية هو من الأهمية بمكان وأن الاضطرابات هي من الاهتمامات الجديرة بالذكر. وفي العام 1987 قامت الهند بتوقيع اتفاقية سلام مع سيريلانكا تمنح بموجبها التاميل إقليماً مستقلاً ضمن سيريلانكا الموحدة. ومضت الهند بعيداً وقررت إرسال قوى لحفظ السلام (IPKF) لتجريد التاميل المنشقين من أسلحتهم. إن قوات حفظ السلام كانت قد أرسلت لتجريد نمور التحرير Liberation-Tiger من

التاميل الإيلم (LTTE-Tāmil Eelm) والقوى الأخرى من التاميل وسريعاً ما وجدت الهند نفسها متورطة بقتال مع نمور التاميل كما كانوا يُدعَون. لم تكن الاتفاقية معروفة أبداً بين التاميل أو السيلانيين. وبحلول العام 1989 أذعنت الحكومة الهندية للضغوط السيريلانكية بسحب فصائلها. وأما جماعة النمور التاميلية للتحرير (LTTE) فقد كتموا حقدهم على راجيف، إلا أنهم سرعان ما قاموا بالثأر لأنفسهم.

ومن ناحية الجبهة الداخلية، فقد تحول راجيف إلى شخص انفعالي وبشكل متزايد، وعلى مدى 39 شهراً من وجوده في مركزه قام بتغيير 12 وزيراً في البرلمان الحاكم في البلاد و16 سكرتيراً عاماً في الحزب، كما أنه قام بإعادة تنظيم المجلس الوزاري 22 مرة. وعندما تمّت الدعوة للانتخابات في العام 1989 شرع المعارضون تحت إمرة ف. ب. سينغ بإجراء تعديلات في البرلمان. وفي الانتخابات التي أجريت في تشرين الثاني/نوفمبر استطاع راجيف وبشق الأنفس الاحتفاظ بمقعده في لوك سابها وفقد البرلمان أكثريته وقام كلٌّ من حزب الجاناتا دال بدعم من حزب بهارتيا جاناتا (BJP) وحزبين اشتراكيين بتشكيل ائتلاف حكومي؛ إلا أن حكومة ف. ب. سينغ وكما حكومة حزب جاناتا للعام 1977 لم تعمر سوى القليل.

وفي العام 1991 ومع سقوط حكومة شاندرا شيكار الذي حلّ محل ف. ب. سينغ كرئيس للوزارة كانت البلاد تواجه انتخابات عامة أخرى. جرت الدورة الأولى من الانتخابات في الواحد والعشرين من أيار/مايو 1991. وعندما كان راجيف يتحدث في اجتماع عام تمّ اغتياله وذلك في سريبيرومبودور في تاميل نادو. ونفّذت هذه العملية على يد فتاة قامت بعملية تفجير انتحارية أثناء وضعها إكليل على صدر راجيف. وتنتمي هذه الفتاة إلى جماعة (ل. ت. ت. إي) باسم تينموزهي راجاراتنام (آكا دهانو). وانفجرت الكتلة البلاستيكية المتفجرة التي كانت قد خبأتها لتقتله في الحال.

ومهما يكن من أمر؛ فإن موت راجيف لم يقدم للبرلمان انتصاراً بأغلبية ساحقة كما حصل نتيجة لوفاة والدته في العام 1984. لم يحصل البرلمان على أية أكثرية، إلا أنه شكّل حكومة ائتلافية برئاسة ناراسيمها راو. لم يكن راجيف كأنديرا، لقد كان بحاجة إلى شخصية مسيطرة كشخصية أمه. وبالمثل، فإن

المقترعين الهنود كانوا في قلق مستمر في استمرار تعاقب هذه الأسرة على الحكم.

ولو أن راجيف بقي حياً، لكان استمر في صعوده إلى أن يصبح رئيساً للوزارة في الدورة الثانية، إلا أن البلاد كانت تفتقد معارضة موثوقة، حيث كانت تواجه مرض الاضطراب السياسي على مدى عامين وذلك عندما كان المعارضون في السلطة. وبعبارة مختصرة، لو أن راجيف غاندي بقي حياً لم يكن للشعب خيار سوى التصويت إلى جانبه لإدارة دفة البلاد. ولكان عليه التعلم من أخطائه السابقة وتشكيل إدارة قديرة من خلال العودة إلى من صان البرلمان من القدماء لحمل المسؤولية لتنعم البلاد بالاستقرار.

ويمكن القول بأن المدة التي قضاها راجيف في الحكم كانت قصيرة بحيث لا يمكن أن تعطي صورة عن مقدار مساهمته في الميدان السياسي. إلى جانب أنه كان يعيش وعلى مدى حكمه في ظل منجزات والدته. وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع راجيف مدّ السياسة الهندية بدم شبابي جديد. وفي الأربعين، وعندما أصبح رئيس الوزراء الأصغر في البلاد، كان حلم راجيف بأن يجعل الهند تعتمد على نفسها ساعية بجهد نحو ازدهارها. واليوم، وعند دخول الهند القرن الحادي والعشرين بقوة شبابها، فإن التركة السياسية لرئيس وزرائها الشاب تعالج بشكل جيد من خلال سلطة البرلمان التي استعادت شبابها وسارت في ركب الهند المعاصر.

آنور السادات

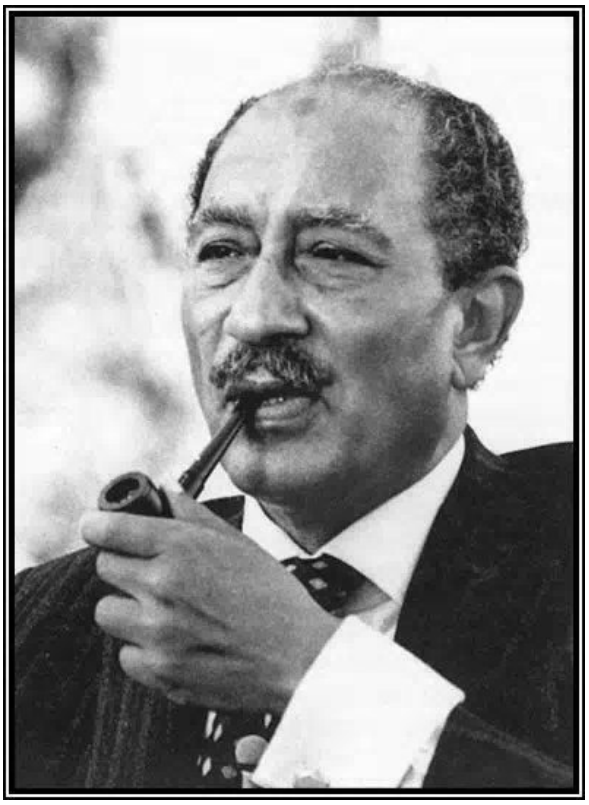

تمّ تكريم أنور السادات وتمّت إدانته لكونه الرئيس العربي الأول الذي وقّع اتفاقية سلام مع إسرائيل. أتَهَكّم هذا؟ نعم ولكنها الحقيقة بكل معنى الكلمة، وأيضاً أن ذاك حقاً هو السبب وراء موته في غير أوانه.

ولد السادات في عائلة مصرية كبيرة متوسطة الحال، وكان واحداً في أفرادها المكونين من 13 أخاً وأختاً وذلك في قرية ميت أبو الكوم التي تبعد 40 ميلاً شمالي القاهرة. كانت مصر التي فيها ولد السادات مستعمرة إنكليزية. وكان قد أجبر الدين القومي للحكومة المصرية لبيع حصتها في "قناة السويس المصممة فرنسياً" لبريطانيا. وبعد أن أصبحت منطقة السويس وقناتها خاضعتين للأولى ومدارة من قبل الأخرى، قامت هاتان الدولتان بالتأسيس للسيطرة السياسية وبمقدار كافٍ على الشؤون المصرية، فكانت مصر تدعى بالمستعمرة البريطانية.

وعند نشأته، كان لدى السادات شخصيات أربع هي موضع إلهام بالنسبة له: الشخصية الأولى؛ زهران. رجل كالسادات كان من مدينة صغيرة. كان زهران قد أعدم من قبل البريطانيين لدور كان له في اضطرابات أدّت إلى موت ضابط بريطاني، وقد مشى زهران إلى المشنقة بشجاعة غير اعتيادية. الشخص الثاني الملهم للسادات كان كمال أتاتورك. لم يظفر أتاتورك بالحرية من أجل بلده فقط بل هو أيضاً قام بإنجازات اجتماعية وإدارية ساهمت في نقل تركيا من بقايا إمبراطورية إلى أمة حديثة متحدة. وكان الشخص الثالث مهانداس غاندي الذي وخلال تطوافه عبر مصر في أوائل الثلاثينيات أخذ ينادي بمبدأ عدم الانحياز (Ahimsa) أو المعارضة بغير عُنف كوسيلة للخلاص. وأخيراً كان السادات ملهماً من قبل شخص مختلف هو هتلر. وبالنسبة لعقلية السادات التي هي ضد المستعمر، فقد كان هتلر المنافس للمستعمر الإنكليزي.

وبطريقة ما، عملت الإدارة البريطانية حسناً تجاه سادات الشاب. وأيضاً مع حزب الوفد، فقد أسست بريطانيا المدرسة العسكرية وكان السادات من بين طلاب الدفعة الأولى. وحين تخرجه رابط في المواقع الأمامية حيث التقى وصادق جمال عبد الناصر، رئيس مصر في قادم الأيام. وقد شكّل كلاهما بالإضافة إلى ضباطٍ شباب، جماعةً ثوريةً آلت على نفسها هزم الإنكليز.

وقد قاد السلوك الثوري السادات إلى السجن مرتين، وكشف اعتقاله في المرة الثانية على أنه أصعب من الأول. وعلى الرغم من ذلك فقد أمضى ساعات يعلّم نفسه اللغتين الإنكليزية والفرنسية لأنه كان وإلى حدٍّ بعيد وحيداً في سجنه/معتقله. وهكذا وبعد أن تمّ الإفراج عنه عاد لممارسة الحياة المدنية والتجارة والأعمال. وخلال تلك الرحلة القصيرة، التقى بالمرأة التي ومع الوقت أصبحت زوجته.

وحالاً وبعد اجتماعه مجدداً مع صديقه ناصر ومعرفته بأن حركتهم الثورية أحرزت تقدماً مهماً، وفي 23 تموز/يوليو 1952 قام الضباط الأحرار بانقلاب مسقطين الحكومة الملكية. وفي ذلك الوقت وصاعداً أصبح السادات الساعد الأيمن الموثوق لناصر. وفي البدء أعطي السادات مهام وزارة العلاقات العامة، ثم عهد إليه أمر الإشراف على التنازل الرسمي للملك فاروق.

وخلال السنوات التالية، تعلّم السادات مباشرة كيفية بناء شعب وسط منافسات قوى عظمى. وقام ناصر وببراعة ببناء مصر كدولة من دول عدم الانحياز. ولم يكن ذلك كله سهلاً. فقد جاءت محاولة ناصر تلك بعد تأميمه قناة السويس. ولاستعادة السيطرة على ذلك الخط الهام إلى حدٍّ بعيد والواصل بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، قام الإنكليز والفرنسيون والإسرائيليون بشن هجوم متفق عليه ضد مصر. وانتهت الحرب فقط بعد أن أجبرت الولايات المتحدة تلك الدول على الانسحاب حيث ظهرت مصر منتصرة، وناصرٌ بطلاً.

إلا أن بروزه خلال حرب الأيام الستة التاريخية سيكون له ردة فعل. وللثأر من الخزي بسبب خسارتها في الحرب المبكرة، هاجمت إسرائيل مصر، مستولية على كل سيناء وقاضية على الألوف من الجنود المصريين. وقد نُكبت مصر في تلك الحرب وأصبحت على حافة الإفلاس. ولم تكن الأمور لتسير بسهولة بالنسبة لناصر حيث جدّ النزاع بين الدول العربية وتنامت حركة الفلسطينيين، فكانت وفاته في العام 1970 تاركاً البلاد في قمة اضطرابها.

كانت مهمة السادات الأولى إعادة الاقتصاد إلى وضع صحيح وذلك نتيجة حرب الأيام الستة. وكانت علاقات مصر مع العالم الخارجي بحاجة إلى مزيد من العناية والاهتمام. لذا قام السادات أولاً بتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل مقابل استعادة منطقة سيناء التي تمّ احتلالها خلال الحرب، مبعداً السوفيات الذين برهنوا عن عدم مصداقية كحلفاء لرفضهم منح مصر الدعم العسكري.

هذه التحركات الجريئة عملت على جعله وإلى أبعد حدٍّ بحاجة إلى إقرار وموافقة من شعبه.

وسائراً على خطى ملهمه التركي، شرع السادات في تحرير وتحديث مصر، ومنح السجناء السياسيين الحرية ورفع الرقابة عن الصحافة، وأسس لسياسة الباب المفتوح الذي يسمح للاستخبارات الأجنبية في القطاع الخاص في محاولة لإنعاش الاقتصاد. وبعدها فقد شهدت الاستثمارات الدولية زيادات وتبعتها المساعدات الأجنبية.

وفي ذات الوقت، فإن صندوق النقد الدولي وضع ضغوطاً على السادات لرفع الدعم الحكومي على المواد الغذائية إذ هي تجتزأ من الاحتياطي المالي للدولة. ولكن وربما ولإغاظة صندوق النقد الدولي لم يتردد السادات في عدم رفع الدعم الحكومي، إلا أنه فعلها ذات يوم مما أدى إلى مضاعفة الأسعار وإيقاف الاضطرابات حول موضوع وقف الدعم عن المواد الغذائية، وحالما سحب صندوق النقد الدولي قراره داعماً الإعانة المالية رافعاً من قيمة القروض الممنوحة لمصر. وحتى إن المساعدات المالية الأميركية زادت.

إلا أن ما جعل من السادات بطلاً حقاً، وأعطاه المصداقية في عيون المصريين هو حرب يوم الغفران (حرب أكتوبر التحريرية) في العام 1973، ففي مساء يوم احتفالات اليهود بعيد الغفران، شنّ السادات هجوماً على إسرائيل. وعلى الرغم من أن الهجوم المباغت دام فترة قصيرة وانتهت الحرب بأزمة، فإن التقدم الاستثنائي الذي خلّفه المصريون في الأيام الأولى منحهم مذاق الانتصار ودفع الدولتان بشكل منفرد تماماً باتجاه السلام.

إلا أن الحالة الاقتصادية في البلاد استمرت بالتداعي. وانتشرت النزاعات الداخلية والاضطراب في البلاد. مقتنعاً بأن السلام مع إسرائيل سوف يحصد "حصص سلام" كثيرة، آلى السادات على نفسه التفاوض على السلام مهما

كلف الأمر. وقد قاد خطاب ألقي في الكنيست الإسرائيلي إلى اتفاقية كامب ديفيد في العام 1979. ونتيجة لذلك، أعادت إسرائيل صحراء سيناء. وبعودة تلك المنطقة الغنية بالبترول ضمن حدودها برهن السادات على أن ذلك هو جيد على الصعيدين الاقتصادي والمعنوي.

وفي العام 1978 مُنح السادات جائزة نوبل للسلام وذلك لجهوده في تحقيق السلم لمنطقة الشرق الأوسط، وأيضاً وفي نفس العام تسلّم رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن جائزة نوبل للسلام.

إلا أن الأمور ساءت وسارت باتجاه الأسوأ. وفي الوطن، وبعد معاهدة السلام مع إسرائيل، كان ينظر للسادات على أنه خائن، ينفّذ ويعمل لمصلحة الغرب. وأيضاً فقد كانت مصر الدولة العربية الأولى التي قبلت واعترفت بإسرائيل. إن هذا أبعد مصر عن بقية البلدان العربية. وقد تمّ نقل الجامعة العربية من مصر إلى تونس، كما قطعت العديد من الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع مصر.

إضافة إلى ذلك، فإن التحرر الاقتصادي أوسع الفجوة بين الفقراء والأغنياء. وعلى الرغم من تشدد السادات، فإن الداعين الإسلاميين أخذوا دوراً غير متوقع. فإن الإخوان المسلمين، الجماعة الإسلامية الأصولية، برزت وأصبحت أكثر قوة وأكثر نقداً لسياسة السادات الدولية، وبدأ الأصوليون بالتخطيط لإسقاطه. ولمواجهة هذه الانتفاضة الشعبية، شنّ السادات اعتقالات عشوائية أكسبته رفضاً في الأوساط الشعبية. ولم يكن الأمر سوى مسألة وقت ليتحول ذلك الاستياء إلى كره وليلاقي السادات من ثم حتفه.

وخلال مدة ولايته بأكملها كرئيس، عاش السادات تحت تهديد الموت. وقد كان عليه قمع تلك الثورة بواسطة علي صبري الذي كان يتوقع السادات أنه

يمثل مرحلة انتقالية لفترة الرئيس ناصر. وبعد عدة سنوات، وعندما سافر السادات إلى إسرائيل ليبدأ بمحادثات السلام، أخبره سكرتيره بأن هناك أربعة عشر تنظيماً، بما فيهم التنظيم الشيوعي في مصر والمعارضون في الحكومة الليبية، وجنوب اليمن، وإيران وسوريا كما أيضاً تجميع الفلسطينيين لديهم في قائمتهم القضاء على السادات. وقيل بأن عملاءه قاموا بإحباط ما يقارب الأربعين محاولة استهدفت حياته.

إلا أن ما جعل حراسة السادات أكثر صعوبة هو إيمانه بالقضاء والقدر وتصلبه في ذلك والذي كان ملازماً خلال رحلاته. حتى إنه كان يصر على ركوب سيارة عادية لإيصال حفيده إلى المدرسة. وقد تلقت الحكومة أيضاً معلومات حول مخطط لقتل السادات عند زيارته للمنصورة. وعلى ما يبدو، فقد تحوّل ذلك ليكون بمثابة تحضيرات لانقلاب يعقب اغتيال السادات.

ومن سخرية الأقدار لرجل كان حوله حراسة مشدّدة، أن تستغرق عملية القضاء على حياته بالكاد ثلاثين ثانية وذلك على مرأى من جيشه بكامل عدته. في ذلك اليوم المشؤوم، كان لديه حرس على أربع مستويات: حرسه الخاص، المؤيدون الجمهوريون، مغاوير من الجيش وقوى أمن داخلي من المؤيدين، وحرس من دائرة الأمن المركزي. إلا أنه لم يكن لدى القتلة أي مشكلة في إطلاق النار عليه وإردائه قتيلاً.

كان ذلك في السادس من تشرين الأول/أكتوبر 1981 وأرتال تمّ اختيارها من جميع أنحاء مصر قَدِمَتْ معاً لإجراء عرض عسكري احتفالاً بالذكرى السنوية لحرب يوم الغفران/أكتوبر. ودون أخذ حياة الرئيس بعين الاعتبار، أصرّت مؤسسة الاستخبارات العسكرية بأن يسلّم كل موظفو المشاركين ذخيرتهم الحيّة

وبنادقهم. والغريب مع ذلك أن مسؤولي مؤسسة الاستخبارات العسكرية والقسم العسكري المركزي كانوا قد غادروا إلى مكة لأداء فريضة الحج في ذلك الحين.

ولكن ربما كان القدر هو الذي يسيّر الأمور في ذاك اليوم. فقد سأل الرئيس السادات حارسه الوحيد الواقف على اليمين الجلوس ومتابعة العرض، ولو أن ذاك الحارس لم يجلس لكان شكّل حاجزاً للرئيس حال دون الرصاصات المباشرة للقاتل. وقد اكتشف لاحقاً بأن المئة والخمسين من فريق الحرس الجمهوري كانوا حديثي العهد في التدريبات، وكانت تلك المرة الأولى التي فيها يقومون بحفظ الأمن في عرض عسكري. فقد كانوا متحلّقين حول منصة العرض، عوضاً عن أن يكونوا إلى جانب الرئيس مما يساعدهم على التصرف بشكل سريع لدى أي هجوم من الجهة الأمامية/المقابلة.

كانت طائرات القوى الجوية ميراج قد أقلعت لتوها لأداء التفافات طيرانية متألقة وحركات في وسط السماء بهلوانية، وعندها كانت كل العيون شاخصة باتجاه السماء. عندها فقط، إذ بشاحنة من وسط العرض تنتصب بملاصقة منصة الرئيس وفريق من خمسة جنود يقفزون منها باتجاه الشخصيات البارزة ملقين بالقنابل اليدوية مطلقين النار عشوائياً؛ وظنّ السادات بأنه يتلقى تكريماً عسكرياً فنهض واقفاً مقدماً في حركته تلك العون للقاتل ليكون هدفاً واضحاً وسهلاً. كانت الرمية الأولى قاضية حيث خرقت الصدر ومزّقت الشريان، وتبعتها باقي الرصاصات، بينما كان الرئيس يسقط قائلاً: "مش معقول مش معقول".

وليس هناك داعٍ للقول بأنه وعند مقتل السادات، أخذت الحكومة الدهشة مخافة أن يستتبع ذلك انقلاب عسكري. وأقام الحرس تدابير تفتيشية فورية

بحثاً عن المفجّرين محتجزين كل الفرق المشاركة في العرض. وأُطلقت صفارات الإنذار في جميع أنحاء القاهرة وفي محيطها. وأُغلقت مداخل المدينة مثل طريق السويس – الإسماعيلية، وتمّ احتجاز الفرق ضمن محطات إذاعة وتلفزيون القاهرة. وفيما بعد وضعت جماعات عند كل النقاط التي قد تشكل هدفاً ثانياً كالمنازل والمكاتب والوزارات ومكاتب مجلس النواب الوطني، ومكاتب الوزراء في الجيزة، ومكاتب المحافظين. وحالاً قامت وزارة الداخلية بتحصين القاهرة وأمرت قوى الشرطة باتخاذ أوضاع عسكرية.

ولكن لم يكن هناك أوامر بتحقيقات مناسبة في حق هذه الجريمة الشائنة واعتقد الكثير من المصريين بأن مبارك كان وراء تلك العملية. كما أشارت حوادث غريبة بالأصابع إلى مبارك. وكان سعد الدين إبراهيم، مصري ناشط بحقوق الإنسان، على وشك تكوين فريق تحقيق مستقل للكشف عن التفاصيل المثيرة لعملية الاغتيال عندما تمّ اعتقاله ليقيَّد ويلقى وراء القضبان من قبل مبارك.

إن بطل الحرب والسلام، كما كان السادات معروفاً على صعيد شعبي، كان قد فصل مبارك في حزيران/يونيو من نفس العام، ولم يسمح له سوى بالجلوس بالمكتب ريثما يجد بديلاً عنه. وحسب تقارير شهود عيان التي وردت في الأسبوعية المصرية "العربي الناصري" وذلك في 19 حزيران/يونيو 2005 بأن السادات عيَّن النائب السابق لرئيس الوزراء الدكتور عبد القادر حاتم نائباً للرئيس. وكان عليه توقيع أوراق رسمية في ذلك اليوم، إلا أن ذلك ما كان ليحدث أبداً. وقد ذكر التقرير أيضاً بأن السادات كان في قلق من مبارك لإجرائه اتصالات مع الجيش من وراء ظهره. وقالت تقارير أخرى بأن مبارك قد ضبط وهو يُجري اتصالات مع حكومة العربية السعودية التي كانت قد قاطعت مصر بعد توقيعها معاهدة السلام مع إسرائيل. وقد سمع بأن

السعوديين يدينون السادات لإنجازه السلام مع اليهود، "أعداء الله".

كل هذه الأسباب، وعلى ما يبدو، أعطت مبارك حجة قوية في رغبته في إقصاء السادات من الطريق، وهي السبب في رفضه المصادقة على إجراء تحقيقات شفافة في عملية الاغتيال.

وقد عمل مبارك أيضاً على طرد رئيس تحرير إحدى الصحف لنشره صورة جسد السادات المثقب بفعل الرصاص؛ وحتى إنه مضى بعيداً في ذلك الأمر إذ إنه قام بحظر تلك الصحيفة.

إن حسني مبارك قائد الدفاع الجوي المصري سابقاً، كان قد تمّ تعيينه بشكل لا يمكن تفسيره نائباً للرئيس من قبل السادات وذلك في العام 1975، ومن الجائز أن يكون مردّ ذلك إلى كون زوجة الرئيس السادات جيهان ابنة عم زوجة مبارك، وربما يكون سبب هذا التعيين يعود إلى ما زعمه مبارك بأن الحكومة الأميركية فرضته على السادات وبأن الحكومة الأميركية هي التي دبّرت عملية الاغتيال. إلا أن هذا الأمر هو غير صحيح بشكل صارخ للعلاقة المتينة التي عقدها السادات مع الغرب، وبشكل خاص مع الولايات المتحدة الأميركية.

وبالعودة إلى مبارك فإنه وفوراً وبعد تعيينه مضى في توطيد مركزه، وعيَّن أصدقاءه الحميمين في المراكز الحساسة، في الجيش وفي إدارة المخابرات. وكانت إحدى التعيينات تخص أبو غزالة الذي كان قائداً لوحدات المدفعية لينتقل بعد التعيين إلى مركز ملحق عسكري في واشنطن. وعيَّن مبارك أيضاً نسيبه منير سابت كرئيس لتسليح الجيش في واشنطن. وبعد مضي ثلاث سنوات تمّ استدعاء غزالة من قِبل وزارة الدفاع لتحمّل مهام مدير الاستخبارات العسكرية. ولما كان ذلك يتعارض مع مخططاته، نصح مبارك غزالة بتجاهل أمر ذلك التغيير والبقاء في واشنطن. وسرعان ما عمل مبارك وفي كانون الثاني/يناير 1981، وفي خطوة جريئة على تعيين غزالة رئيساً للأركان، وهو المركز الثاني الأفضل لوزير الدفاع. وبعد مضي أقل من ثلاثة أشهر لقي وزير الدفاع حتفه مع ضباط رفيعي المستوى وذلك في حادث تحطم طائرة

مروحية. وقد ثار جدل حول ذلك الحادث. وقد كان من المفترض أن يكون غزالة على نفس الطائرة، إلا أنه جاءه أمر من مبارك بإلغاء رحلته، وبذلك حلّ غزالة محل وزير الدفاع.

وبوصفه نائباً للرئيس كان مشروع مبارك الأول التخطيط لعرض سنوي لتخليد ذكرى حرب يوم الغفران أكتوبر في حين كانت البلاد بعمومها تعرف بأن المتطرفين الإسلاميين سيحاولون قتل الرئيس.

إلى جانب أنه وبعد توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل، أصبحت العلاقات مع الدول العربية الأخرى مع الوقت في انحدار مستمر. وأعلنت المملكة العربية السعودية رسمياً الجهاد (الحرب المقدسة). وفي وقت مبكر في أيلول/سبتمبر، وبنصيحة من مبارك، حشد السادات حوله كل الصحافيين الإسلاميين المناوئين والكتّاب والسياسيين ورؤساء الأحزاب. إلا أن ذلك لم يضعف من وطأة تهديد حياته في أي صورة من الصور. إلا أن الإجراء الاحتياطي الذي يمكن اتخاذه هو زيادة الأمن أثناء العرض، والذي تمّ.

لكن ذلك لم يكن باستطاعته إعاقة القتلة. ومن الواضح أن إجراءات تدابير الوقاية المتخذة للعرض لم يكن بإمكانها التغلب على العقبات بلا عون من قبل الرسميين الحكوميين من ذوي المراكز العالية، وأن المرور عبر عشر نقط تفتيش بذخيرة حيّة لهو مهمة عسيرة. وكيف باستطاعتهم التوقع أن خمسة رجال بإمكانهم التغلب على 150 رجلاً من الحرس حول الرئيس؟ ومما لا شك فيه أن الدعم الذي هو من أحد المقرّبين من الرئيس لا بد أعطاهم الشعور بالثقة.

إن عملية الاغتيال تلك كان قد خُطِّط لها بدقة. فبعد ثلاث سنوات في الخدمة كملازم أول، ترك الإسلامبولي، الذي يفترض أنه كان مسؤولاً في الأمن، الخدمة فجأة. وتبع ذلك أوامر مشدّدة ليكون في الاستعراض. وبعد ذلك

دُعي من قبل الجماعة الإسلامية لإتمام مهمة الجهاد وذلك ومع أربعة آخرين من الجهاديين المفترض أن يكونوا من ضمن مجموعته. وفي الواقع، كان أحدهم قناصاً في الجيش وبطلاً في الرماية. وقبل ثلاثة أيام من موعد عملية الاغتيال أبعد الإسلامبولي هؤلاء الأربعة واستبدلهم بجهاديين خاصين به. ومكث هؤلاء الأربعة في الثكنة وشاركوا في التدريبات الأخيرة للعرض. وعلى الرغم من أن الذخيرة الحيّة كانت محظورة في العرض، إلا أن الإسلامبولي قاد عربة مدفعية محشوة ببنادق فيها قذائف ورصاص حيٌّ.

وتمّ تنفيذ المخطط بكل دقة. وأولاً: تمّ تحرك المئة والخمسين من الرجال المدربين الخاصين بالسادات وذلك قبل قدوم عربة القتلة بدقائق. وقد وُضع الحرس خلف المنصة، حيث كانوا قد أخبروا عن هجوم متوقع من الجهة الخلفية. وثانياً: تبع ذلك العرض الجوي الذي أُدرج ليبدأ بعد انتهاء العرض الأرضي قُدِّم فتكون العيون كلها متوجهة وشاخصة باتجاه السماء. وثالثاً: فقد أخبر مبارك السادات للوقوف لتحية الضباط الذين يقتربون منه والذين نزلوا لتوهم من عربة المدفعية وبذلك يتيح هدفاً أفضل لرصاصات القاتل. ورابعاً: أحدهم يترك المقعد خالياً في الجانب الآخر من الحائط لتفريق الجموع عن المنصة وبمن فيهم القاتل. وذلك كان ليستعمله الإسلامبولي للوقوف عليه وإطلاق النار على السادات. ولم يكن باستطاعته بدون هذا المقعد التصويب جيداً نحو السادات.

هذا الرامي الماهر/الهداف رمى السادات في رقبته للتأكد بأنه مات على الفور. وأما بقية الإصابات فقد تركزت حول مناطق البطن والصدر. إلا أنه لم

يكن هناك من تفسير للإصابة البسيطة التي على جنبه. وعلى ما يبدو فإن هناك شخصاً ملاصقاً له قد أطلق عليه النار أيضاً، شخصاً لم تكن لديه الرغبة في أن تكون لديه فرص للنجاة من هذا الهجوم.

ومن الغريب أن القتلة الذين رشقوا النار عشوائياً، حذروا مبارك وغزالة للابتعاد، فقد نادى القاتل عطا طايل على غزالة "اهرب"، وصرخ مساعد القاتل عبد الحميد عبد العال بمبارك "لست أنت من نسعى إليه، إنما نحن نريد فرعون".

إلا أنه حتى ولو لم يكن مبارك موضع شك، فكيف نفسّر عدم صرف غزالة من الخدمة. إنه الذي أصبح بعد ذلك كله وزيراً للدفاع والمنظم الرئيسي للعرض، ولم يكن هناك أمر بإجراء تحقيقات رسمية في عملية الاغتيال. وبدلاً من ذلك تمّت ترقية غزالة إلى رتبة مشير ثم نائبٍ لرئيس الوزراء. وقام بحظر عرض فيلم يتعلق بعملية إطلاق النار في الاستعراض من قبل إقليم مصري يملك محطة تلفزيون. والفيلم يظهر بوضوح مبارك وغزالة وهما يومئان إلى السادات للوقوف بينما كان القاتل يقترب من المنصة. كما أن الجزء الآخر لحقيقة ظروف هذه الجريمة الذي تمّ حظره هو الفيلم الذي يري القتلة وهم يتدربون في الصحراء. وقد ذكر وزير الداخلية الأسبق النوابي إسماعيل بأن قتلة السادات الأربعة كانوا تحت مراقبة مشدّدة من قبل مديرية الأمن (المباحث) وذلك على مدى أسبوعين على الأقل قبل الاستعراض. ولكن كيف لم يتم إلقاء القبض عليهم أبداً؟!!

وقد بدأت عملية إتلاف بقية الأدلة الممكنة سريعاً بعد عملية القتل؛ حيث

تمّت مصادرة الكاميرات والأفلام من كل شخص كان حاضراً الاستعراض، بمن فيهم رجال الصحافة.

ومما يثير السخرية في عملية القتل هذه هو أن السادات هو الذي سمح للحركة الإسلامية بالعودة إلى نشاطها وازدهارها بعد عملية قمع أنزلها بها ناصر. وقد أمل السادات بأن خطوته هذه ستساعد على إقامة توازن بعد تنامي الجماعات الماركسية في عهد ناصر. ولكن النموذج الذي أراد أن يشكل من خلاله حكومته وشعبه كان مرفوضاً من قبل المتشددين.

ومن ناحية أخرى، فقد مهّدت عملية اغتيال السادات الطريق أمام كثير من حركات الإرهاب الحديثة التي شاركت في الجهاد الأكبر ضد الاتحاد السوفياتي في أفغانستان. وبعد الحرب، وبعد عودة معظم الجهاديين إلى الوطن، فإن المصريين منهم (المنبوذين في بلدهم) رحلوا إلى باكستان ليشكلوا العمود الفقري لجماعة القاعدة تحت تياره المتشدّد اليمني القائد أسامة بن لادن، بالإضافة إلى الفلسطينيين الإسلاميين الذي كانوا قد أبعدوا عن مصر وتوجهوا إلى غزة ليدعموا حركة حماس التي كانت قد تشكلت حديثاً. إنهم قطفوا اليوم ثماراً غير متوقعة من خلال فوزهم في انتخابات شرعية عامة وتشكيلهم حكومة، على الرغم من المعارضة الدولية لهم.

وعلى الرغم من الفترة الرئاسية القصيرة للسادات فهي تعتبر من العهود البارزة في تاريخ مصر. لقد مشى على طريق خاف آخرون السير عليه، ماضياً في مجالات لم يمضِ فيها رئيس عربي قبله. وفي فترة حكمه المتميّزة بالفاعلية، كانت مصر موعودة بارتياد طريق النمو والرفعة. وكان قد عمد إلى

حفظ الأمن من جهة الحدود مع إسرائيل من خلال اتفاقية سلام، وربح مقابل ذلك ثقة ودولارات أميركا، وكان قد وضع مصر على طريق التحديث بتجديد مجتمعها المدني. ولكن للأسف، لم تكن البلاد بعد على استعداد لتقبل خطة التحديث، ولا حتى إن أهلها ارتفعوا عن معاداة الصهيونية لفهم أبعاد السلام مع إسرائيل.

لو أن السادات لم يمت، لكانت البلاد اليوم تملك القوة التي يحسب حسابها، كقائدة على طريق خارطة السلام الشرق الأوسطي، والدولة الحليفة لعالم الغرب والوجه الإسلامي الحديث والمعتدل للإسلام. ومن خلال سياسته المتحررة، لم يكن المتطرفون والقتاليون على مستوى من العنف كما هم اليوم في مصر. فمحمد عطا والظواهري كلاهما قد برزا في مصر.

إلى جانب ذلك، ومنذ وفاة السادات وقعت مصر تحت وطأة سياسة مبارك الراكدة، والسياسة القمعية، والنزعة الدكتاتورية المتصاعدة/المتزايدة. والآن، فإن عهد مبارك قد أتم ما يقارب الربع قرن دون أن يظهر في الأفق أية إشارة تساعد على تأسيس رؤية لبوادر ديموقراطية. وفي الانتخابات الرئاسية الأخيرة، قام مرة أخرى بتولّي الحكم متجاهلاً وحتى معتقلاً صنوه المنافس الوحيد في الانتخابات.

إسحق رابين

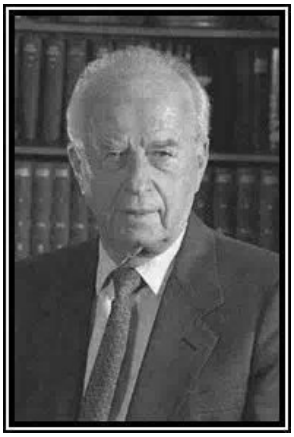

"الإنسان ليس مصنوع من الفولاذفلديه قلب وروحهو يبكي ويضحكهو يحب ويكرههو يقاضيهو يصاب ويصرخفهو لحم ودم".

هذا ما أكّد عليه رابين خلال حديثه أمام تجمّع جرحى طواقم الدبابات في لاترن التي تبعد 15 كيلومتر غربي مدينة القدس في العام 1994. وهذا ما أراد رابين البرهنة عليه عندما وقع ضحية رصاصات القاتل في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر، بأنه لحم ودم.

وإلى هذا، فهو ما زال أكبر من الحياة، ملأ مكاناً لم يحلم أحد بملئه. وعند وفاته، كان رابين هو الرئيس الحادي عشر للوزراء، ووزيراً للدفاع وشاغلاً لمنصب وزير الشؤون الدينية والعمل والشؤون الاجتماعية. وكان جداً حنوناً وعطوفاً لنوا بن آرتزي Noua Ben Artzi الذي يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، العضو الوحيد في العائلة الذي تحدّث في مراسم الجنازة قائلاً: "كنت دعامة من نار أمام المُعَسْكَر.. وغدا المعسكر بعدك في ظلام". وحقاً فقد أصبحت إسرائيل في ظلام بفقدانها قائدها المتعدّد الأبعاد.

ولد إسحق رابين في القدس في العام 1922 من عائلة يهودية انتقلت إلى فلسطين عندما كان له من العمر سنة تقريباً. كان والداه ناشطين متطوعين يطبعان في الذهن واجب الخدمة العامة في كلا أطفالهما. وحول هذه الذكريات كتب رابين: "كان منزلنا منزل عاملين... لم يكن منزلنا بيت دينيّ، لكن كان مُتشرِّباً بكوننا ينمُّ عن فخرنا بأننا يهود... كان منزلنا مخترقاً بالشعور

بالدعوة... وكان العمل يعتبر قيمة بحدّ ذاته".

وقد أخذت شخصيته بالتبلور أكثر مع بدئه بالخدمة العسكرية في العام 1940 عندما انضم إلى "البالماخ"، الفئة النخبة في حزب الهاغانا. وسرعان ما برز في القوات المسلحة، حيث قام في حرب الاستقلال في العام 1948 – 1949 بقيادة هاريل بريجيد في جبهة القدس. وبقي رابين وعلى مدى عشرين عاماً مع قوى الدفاع الإسرائيلي (IDF) ونشأ بينهم. وبرز في القيادة الشمالية الرئيسية للعمليات للقوى المسلحة، رئيساً للعمليات لينتهي إلى رتبة رئيس أركان من العام 1964 إلى العام 1968، وحتى ليقود قوى الدفاع الإسرائيلي خلال حرب الأيام الستة التاريخية، وليستقيل بعدها مباشرة وليضطلع بمهام السفير في الولايات المتحدة الأميركية.

وأصبح وبعد خمس سنوات عضواً فاعلاً في حزب العمال وحتى إنه تمّ انتخابه كعضو في الكنيست وذلك في أواخر العام 1973. وفي الواقع، وبعد أن شكّلت غولدا مائير حكومتها تمّ تعيين رابين وزيراً للعمل. ولكن وبعد حرب يوم الغفران (حرب أكتوبر)، كانت هناك معلومة بأن قرار غولدا مائير بعدم القيام بضَرْبة وقائية أدى إلى نزاع ضمن الحكومة. وطرحت أسئلة حول استراتيجية إساءة الحكم إلى جانب الخلل في القيادة مما أدى إلى استقالة غولدا مائير وليحل رابين محلها في الثاني من حزيران/يونيو في العام 1974.

ورابين هو أول رئيس وزراء لإسرائيل بحُكْم المَولِد، وكان صادقاً ومستقيماً إلى درجة جعلته فظاً. وبالعودة إلى الإدارة، واجه رابين المهمة الصعبة في تصحيح الوضع الاقتصادي المتدهور في البلاد، معيداً ثقة العامة في كلتا القيادتين المدنية والعسكرية، كما وإصلاح قوى الدفاع الإسرائيلي وحلّ المشكلات الاجتماعية. إن تدارك الفضائح الداخلية، وتسوية الاضطراب في القطاع الصناعي والتنافس ضمن الحكومة ذاك كله جعله في وضع لا يحسد عليه.

ففي العام 1975 قام باختراق خط جديد، وذلك بتوقيعه على اتفاقية مؤقتة

مع مصر، حصل لبلاده من خلالها على مرور حرّ عبر قناة السويس. وفي هذه الصفقة كان عليه سحب أعداد من الجند من السويس. وتبع ذلك مذكرة تفاهم مع الأميركيين أكدت على مزيد من الدعم والمساعدة الأميركية. لكن "عملية عنتابي" هي التي جعلت منه حقاً بطلاً. إن إنقاذ الركاب عند خطف طائرة الخطوط الجوية الفرنسية في أوغندا سلّطت عليه الأضواء عالمياً. كانت هذه هي العملية الجريئة التي تمّ فيها تحرير الرهائن في بلد غريب وإعادتهم سالمين إلى إسرائيل.

وسرعان ما انقلب حظه، فقد أطاح التصويت بحكومته لعدم منحها الثقة. وحالاً وبعد أن أخذ يعد حزبه لانتخابات جديدة تسرّبت أخبار حسابات زوجته في البنوك الأميركية إلى الصحافة والعامة (وهذه ذهبت وبشكل فاضح ضد أنظمة النقد الغربية) مما أرغم رابين على الاستقالة من قيادة حزب العمال، فقط قبل انتخابات العام 1977.

وقد أنجز رابين ولعقدين قادمين قوانين مختلفة في الحكومة، من موقعه كعضو في الكنيست ووزيرٍ للدفاع، وحتى كعضو معارض في الكنيست. وكوزير للدفاع نفَّذ التدابير الأمنية على الحدود اللبنانية التي سمحت للجنود الإسرائيليين بالانسحاب إلى حدود ضيقة آمنة. وقام أيضاً بقيادة المعارضة في البلاد إلى "الانتفاضة".

وفي العام 1992، وعلى الرغم من تغيّر الالتزام، إلا أن رابين غدا رئيساً لحزب العمال ثم وعلى وجه السرعة رئيساً للوزراء. إلا أن منصبه كرئيس للوزراء للمرة الثانية كان زاخراً بالأحداث، فقد شهد اتفاقية أوسلو مع الفلسطينيين، ومعاهدة السلام مع الأردن. وكانت هناك محادثات مع عرفات حول المناطق المتنازع عليها في غزة، جودي والسامرية وحتى حول التأسيس لسلطة فلسطينية. وهذا جعله يحوز على جائزة نوبل للسلام مع بيريز وعرفات للعام 1994.

وبعد عام تقريباً في شهر تشرين الثاني/أكتوبر عام 1995 ومساء اليوم الكبير، عيد الغفران عند اليهود، تجمع عدد من الإسرائيليين بقيادة آفيجدور

إسكين (أحد الإسرائيليين المتطرفين) حول منزل إسحاق رابين، مرتدين لباس الصلاة، ومنشدين أنشودة آرامية (أسياط النار) لغة الكابلستك: "إنني أسوق إليكم ملائكة السوء والغضب، إسحق، ابن روزا رابين، الذي بإمكانكم وجعله خيالاً وإلقائه في السرير لتذبل صحته وتنزل كارثة بأفكاره، وتشتيت عقله حتى يضمحل بانتظام إلى أن يموت. اجعلوه يموت هذا إسحاق الملعون، فهو ملعون ملعون ملعون". وبعد أقل من شهر وفي الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر بشّر إسكين على إحدى المحطات الفضائية بأن لعنته حلّت بحق.

كان رابين في مساء ذلك اليوم الذي توفي فيه رجلاً مضطرباً، فمحادثات السلام لم يكن لها ذاك الوقع الإيجابي عند شعبه. وفي الواقع، وفي استفتاء صحفي صدر تقرير بأن نسبة 78% من المواطنين يرغبون في توقيف المحادثات إلى حين إجراء استفتاء عام يجيز الموافقة عليها. وجاءت الموافقة بنسبة 20% تقريباً على عملية السلام. وربما كان رابين يدخل المرحلة الأكثر رفضاً بشخصه على المستوى الشعبي، وتجلّى ذلك اكثر في إحدى مباريات كرة القدم في آب/أغسطس حيث قام فيها حوالى 40.000 إسرائيلي بالتهكم عليه جميعاً.

إلا أن رابين كان واثقاً من التجمع في اليوم التالي الذي نظّمه الجناح اليساري لائتلاف الأحزاب السياسية وذلك لإيصال دعمهم له وللتغيرات التي أحدثها بين هؤلاء الذين يريدون له الخير. وبقي الموت آخر ما توقع.

ولم تجرِ الأمور بسهولة في ذاك المساء. عشرات الآلاف من الإسرائيليين الذين يحملون الرايات ويهتفون: "نعم للسلام، لا للعنف" لتعزيز دعمهم مرة ثانية لرابين. قال رابين في خطابه: "كنت أعتقد على الدوام بأن الأكثرية في الشعب التي تريد السلام هي على استعداد للمجازفة في سبيله. وأنتم هنا الآن، في هذا التجمع تبرهنون، مع العديد الذين لم يحضروا، بأن الشعب يريد السلام بصدق ويعارض العنف". وليس من حاجة للقول بأنه تلقى إثر كلماته

تلك عاصفة من التصفيق. وبعد نصف الساعة سار باتجاه منطقة محاطة بعازل حيث كانت السيارة بانتظاره لتقلّه.

كانت الأشياء تبدو طبيعية إلا أنها في الواقع ليست كذلك. أولاً: لم يكن هناك سيارة إسعاف. لأنه في العادة تكون هناك سيارة تركن بقرب سيارته حيثما كان له ظهور علني. ثانياً: وحيثما يجب أن يكون هناك أعداد من رجال الشرطة، لم يكن في مكانهم سوى بضعة رجال يقفون للحراسة. وثالثاً: فإن تلك المنطقة الخاصة بركون السيارات كان من الواجب أن تكون مغمورة بالأضواء، إلا أنها كانت تقريباً مظلمة.

لكن رابين المنتشي بفعل نجاح خطابه مشى متقدماً زوجه باتجاه السيارة. وقبل ثوانٍ من وصوله إليها، وقف مفوض الأمن من قبل مصالح الأمن العامة (شاباك) الذي عهد إليه مهمة المحافظة على الأمن في تلك المنطقة وحماية ظهره، تنحى جانباً متيحاً للقاتل ياغال عامير بتصويب ثلاث طلقات صائبة في ظهر رابين.

ومُكَوَّماً على نفسه وضع في سيارته بواسطة حارسه الخاص الذي أسرع به إلى أقرب مستشفى حيث توفي متأثراً بجراحه مسيراً عجلة الخلافات من بعده.

والتكهن الأول برز في نفس الشهر الذي توفي فيه رابين؛ حول "اليميني" أو "المستوطن" أو "المتدين" وفي بعض الأوقات اسم يضم هذه الأسماء مجموعة الثلاثة. وقد صاغ المؤمنون بهذه النظرية شعاراً: "لن يُغْفَر له أبداً، وسيبقى في الذاكرة". وبعد ثلاثة أيام من وفاته تمّت إدانة اغتيال رابين من قبل تجمع السلام (حلف من جماعات ذوي أصل كنساني وأخرى من أقصى

اليسار في جماعة الانتفاضة) متهمين في ذلك مواطنين دينيين متطرفين.

والرأي الآخر حول عملية الاغتيال يشير بالأصابع إلى شاباك (مصلحة الأمن العام). فالكثير من الإسرائيليين يعتقدون أن عامير أطلق رصاصات مسدسه على رابين، وأن رابين قُتل فعلياً في سيارته في طريقه إلى المستشفى. وعامير الذي كان يعتقد بأنه سيكسب مليون دولار على كتابه: "تحدث عن كل شيء Tell all" أدلى بأنه ممثل للحكومة، وهو سيكشف المؤامرة برمّتها في كتابه إذا سنحت له الفرصة.

ولكن الدليل القاطع لصالح عامير جاء من أخصائي قضائي، باروخ جلاتستين. فقد ذكر في إفادة له حول محاولة عامير مقرراً بأنه ومن خلال فحصه لملابس رابين، كان متأكداً بأنه تمّ إطلاق رصاصتين من على مدى نقطة تصويب محكم قتلته. وقد شوهد عامير بل حتى إنه وبالواقع ضبط خلال فيلم تمّ تصويره وهو يطلق النار من على بعد مسافة خمسة أقدام (150 سم)، ومع ذلك يؤكد جلاتستين، بأن إحدى الطلقات كانت من على بعد 25 سم والأخرى كانت طلقة ملامسة. وبناء على حكمه المنطقي فإن قميص رابين الذي تمزّق أشلاء"، بالإمكان تمزقه على هذا الحال في حال تفجر الرصاصة عند ملامستها المباشرة لبشرته.

وذهب بعيداً ليقول بأن روبن (حارس رابين الخاص) الذي تلقى الرصاصة في ساعده، ظهر في الثغرة التي تركتها الرصاصة آثار نحاس ورصاص، في حين أن رصاصات عامير كانت مصنوعة فقط من النحاس. وهذا يعني أن عامير لم يطلق الرصاص على روبن أيضاً. وقد دعمت بيِّنة (شهادة) جلاتستين من قبل الدكتور سكولنيك، الطبيب الجراح الذي أجرى العملية لرابين وانتهى إلى أن جراحه كان سببها رصاصات التلامس.

وبعد عدة أشهر، استمعت محكمة التمييز الإسرائيلية لشهادة سائق التاكسي الذي أقلّ راكباً يوم إدانة عامير. وقد أخبر هذا الراكب السائق

وبوضوح بأنه كان أخصائياً في علم الأمراض في مستشفى آشيلوف حيث لفظ رابين أنفاسه الأخيرة وبأنه كان قد قام بفحص رئيس الوزراء عندما أُحضر إلى هناك وكان على يقين بأن جراحه كانت بسبب رصاصات أطلقت من على مدى نقطة محكمة. حتى إنه أبرز بطاقته للتأكيد على هويته.

من جانب آخر فقد صدف أن الهاوي المصوِّر روني كمبلر كان قد قام بتصوير فيلم بالتزامن مع عملية الاغتيال. لم يكن ليملك كاميرا خاصة به، فاستعار آلة تصوير أخته ليقف على الشرفة وذلك على مرأى من الساحة حيث التجمع. وقد ذكر بأنه كانت لديه مشاعر غريبة حول عامير لذا قام بتركيز الكاميرا عليه لفترة طويلة.

وعلى الرغم من كون الفيلم سيئ اللقطات والإخراج إلا أنه تمّ إعادته مليون مرة وقد كشف عن تفاصيل مشؤومة. فبعد أن تمّ إطلاق الرصاصات فإن رابين الذي كان من المفترض أن يكون قد أصيب برصاصات ثلاث في ظهره لم يترنح نحو الأمام إثر ذلك. وعوضاً عن ذلك نظر حوله بدهشة وهو متيقظ وواعٍ لما يجري حوله. وبعدها، وبعد أن تمّ تمديد رابين وحارسه على المقعد الخلفي للسيارة فإن شخصاً ما قام بالابتعاد مغلقاً الباب الخلفي للسيارة من الداخل من الجهة الثانية. وهل كان هذا الشخص وكأنه ينتظر رابين في داخل السيارة؟

وبالنظر بتمعن في الفيلم، بإمكاننا رؤية عامير وهو يرسل إشارات إلى شريك له في الجريمة(؟) وذلك قبل دقائق فقط من إطلاقه النار. وبإمكاننا أيضاً الملاحظة وبوضوح حركة العميل المكلف بحراسته من الخلف – كان

يمضي في إخلاء المكان خلف رابين ليجعل الطريق سالكاً لعامير. إلا أن السؤال المطروح هو: ماذا لو لم تكن الرصاصات غير حقيقية؟ لكان العميل وفوراً وبعد إطلاق النار أخذ بالصراخ "عقيمة عقيمة".

والأبعد من ذلك، فإن الهاوي الذي صوّر فيلم الأحداث بأكمله كان موظفاً في مكتب المراقب الحكومي، المكتب الذي كان متولياً أمر التحقيقات لدى ربّ العمل السابق للقاتل.

وقد توقف كمبلر عن التصوير في اللحظة التي تمّ فيها إطلاق النار على رابين. وبناء على مقابلة أجراها مع القناة الثانية، في التلفزيون الإسرائيلي قال بأنه توقف عن التصوير لأنه كان قد رأى ما فيه الكفاية. إلا أنه قال لأحد الصحفيين بأنه أسقط الكاميرا، وما زال هناك صحفي آخر يذكر بأنه طلب منه من أحد رجال الشرطة التوقف عن التصوير. وقد ظهر كمبلر مرة واحدة على شاشة التلفزيون وذلك عند عرض فيلمه. وفيما عدا ذلك فهو لم يعد للظهور ولا لمرة ثانية على العامة، وأيضاً لم يؤخذ منه أي حديث لأية صحيفة في أي مكان أبداً.

والشيء الثاني الخارج عن المألوف هو إفادة شيمون بيريز (وزير الشؤون الخارجية الإسرائيلي). فعند رؤيته له في المشفى صرّح بأن جبهة رابين كانت قد تورّمت وكان فيها كدمات، والذي يعني بأنه قد تمّ دفعه إلى الرصيف بعد أن تمّ إطلاق النار عليه. ولكن بناء على إفادة شاهد عيان ميريام أورين التي كانت خلف رابين عند إطلاق النار عليه، بأن رابين مشى إلى السيارة على قدميه. فإذاً من أين أتت هذه الكدمات؟

وهناك حادثة وقعت على الطريق إلى مشفى آشيلوف والتي هي تقريباً على مسافة دقائق من المكان الذي تمّ فيه إطلاق النار على رابين. إن الوصول بالسيارة أخذ نحو عشر دقائق. أثناءها توقف ميناحيم دامتي سائق رابين ليقل رجل الشرطة بنحاس تيريم ليرشده إلى طريق المشفى وأنه لمن المستغرب أن يجهل سائق متمرّس الطريق إلى أقرب مشفى في تل أبيب. ومن المستغرب أكثر أنه وبينما رئيس الوزراء ملقى بجراحه البالغة، كان حارسه يسأل رجل الشرطة بأن يربط له ذراعه قائلاً: "لقد جُرِحت فاربط ذراعي". أَما كان من الواجب أن يكون رئيس الوزراء في أولوياته؟! وقال تيريم في إفادته أيضاً بأن دامتي أخفق بالاتصال بالمشفى بأنه في طريقهم إليها. لذا لم يكن طاقم المشفى كلياً مستعدين.

وتستمر الأمور الغريبة مع ذلك. فإفرائيم جور، ابن بلد رابين وعضو في الكنيست، ترك أحيلوف وأخبر الصحفيين بأنه شاهد رابين وبأن رئيس الوزراء قد أصيب في صدره وفي بطنه.

وإضفاءً للمصداقية على هذا الرأي، وحالاً وبعد عملية الاغتيال، فقد نشر تقرير في المعاريف (صحيفة إسرائيلية) في أوائل كانون الثاني/يناير العام 1996، والذي جاء فيه، بأن عامير احتج لدى الضابط الذي كان يأخذ إفادته قائلاً: "إنهم يريدون قتلي هنا". فأجابه الضابط: "هذا ليس معقولاً". "أنت لا تصدقني، إني أخبرك بأنها كانت مؤامرة. لم أكن أعرف بأنني سأقتل رابين". "ماذا تعني؟ أنت كبست على الزناد، هل هذا من البساطة بمكان!" "ثم لم يخبر رافيف عني؟ هو علم أنني سأفعلها ولم يوقفني ثم لماذا لم يُطلق عليَّ النار لإنقاذ رابين؟" ومضيفاً قال: "إنني أعلم بما فيه الكفاية لكي أُسقِط نظام الحكم بكامله. فكانت كل تلك المهمات مجرد تمثيلية، فالنظام بكليته فاسد. وسيتم الصفح عني عندما يعلم الناس القصة بكاملها".

كان ياغال عامير قد خدم بإخلاص في النخبة في لواء غولاني في جيش الدفاع الإسرائيلي. وبعد تسريحه في العام 1993 تمّ إرساله إلى ريجا في لاتيفيا في مهمة سرية من قبل شعبة الاتصالات في مكتب رئيس الوزراء. مُعَدَّةً في الأصل لإنقاذ اليهود من خلف الحائط الحديدي، فقد تحولت شعبة الاتصالات إلى مركز للتجسس.

وسريعاً وفي أعقاب الاغتيال، كانت هناك قصص إدانات تمّ نشرها في الصحف. وكان أغربها أن ياغال عامير كان عميلاً للشاباك. وكان من أوائل الذين تقدموا ومن البارزين في ذلك الاتهام البروفسور ميشيل هيرسيجور، البروفسور من جناح اليسار السياسي في جامعة تل أبيب. ففي الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، بعد أسبوع من جريمة القتل، أخبر أحد الصحفيين من صحيفة يدعوت أحرنوت التالي: "ليس هناك تفسير منطقي لاغتيال رئيس الوزراء، فليس هناك توضيح لهذا الانهيار وليس من سرْد بماذا حصل. ولكن من وجهة نظري أنه لمن المستحسن البحث عن الرابط بين عامير والشاباك. من الممكن بأن هناك تآمراً. ويتبيّن أن القاتل كان في الشاباك عندما سافر إلى ريجا. فقد تمّ إمداده بمستندات كاذبة التي استطاع من خلالها تسلم رخصة بندقية. ويبدو وكأنه هناك ارتباط مع الشاباك في وقت الجريمة".

وذاك أقحم الحكومة بعمل تمويهي مفرط؛ فقد أعلن مكتب الإعلام الحكومي بأن عامير كان أستاذ يهودي في الريجا على مدى خمسة أشهر. وإن ذلك لاعتبار غريب لأنه ليس لديه أية خبرة في التعليم ولا حتى إنه لم يكن يتحدث اللغة اللاتيفية.

وذكرت الرواية التالية أنه كان معلماً لشهرين أو ثلاثة أشهر. وأخبرت الرواية الثالثة التي كشف عنها موشي شهال، وزير الأمن الداخلي، بأن

عامير كان ولمدة شهرين من حرس الأمن في الريجا. ويبدو أن هذه الرواية هي الأكثر احتمالاً. وبعد أن نَفِدت طاقتُه، أعلن الناطق باسم مكتب رئاسة الوزارة بأنهم أصبحوا الآن متأكدين بأن عامير لم يكن أبداً في الريجا وأن أي صحفي يكتب بهذا الخصوص هو "يعمل بلا مسؤولية". إلا أن هذا الإعلان/ التصريح واهٍ، لأن محطة الـ BBC بعدها قامت وعلى السريع بعرض نسخة عن جواز سفره وعليه ختم CCCP بوضوح.

وهناك أيضاً قصة عميل الشاباك يوف كوريل، الغريبة والمعتقد وعلى نطاق واسع بأنه هو الذي صرخ "أحرزت الإصابة، أحرزت الإصابة". ففي ليلة عملية الاغتيال، تمّ حمل جسده إلى مشفى آشيلوف، ثم سحبت أعضاؤه ودفن الجسد في مقبرة هياركون خارج تل أبيب. وأعلنت الحكومة بأنه انتحر. ومن ناحية ثانية فإن دافيد رونين، الصحفي المحقق الذي تعقّب شهادة وفاة كريل، وجد بأن سبب الوفاة التي عيّنها الدكتور هي من أثر خرق ترك فراغاً.

وهناك آخرون لديهم آراء مختلفة حول عملية الاغتيال. فهم يعتقدون بأن المقصود أنها مجرد محاولة بعلم رابين. والموضوع في تلك الليلة كان "لا للعنف". وقد كان عامير قد تدرّب لإطلاق النار في الخلاء على رابين سامحاً له بمعجزة النجاة. فيعتلي رابين المنصة ثانية وملقياً خطاباً محركاً للمشاعر مكتوب من قبل مساعده إيتان هابير. وكان المقصود استمالة الحشود مرة ثانية. والأكثر أهمية من ذلك، هو إنقاذ الحكومة التي كانت على شفا الانهيار ضد المناهضين لعملية السلام. وعلى افتراض أن ذلك كان صحيحاً فكيف بإمكاننا تفسير وفاة رئيس الوزراء؟!

ورابين هو المهندس الرئيسي لإسرائيل، الذي بادر إلى عملية السلام التي قادت إلى انسحاب جديد من شريط غزة. أما لو أن رابين لم يقتل عند ذاك،

لكانت عملية السلام تحركت بسرعة أكبر، ولتحقق الانسحاب خلال سنوات أقل، ولربما لم يكن رابين ليتبع ذاك النهج القاسي ضد لبنان الذي اتبعه أولمرت رئيس الوزراء الحالي. ففي سياسته الواقعية العملية في الشؤون الدولية، لم يكن رابين إلى حدٍّ ما ضد استخدام القوة العسكرية، ولكن مع مراعاة محاذير استعمالها. وكان يدرك تمام الإدراك حدود التورط (نواحي الضعف) وتأثيرها البالغ على الأهداف السياسية النهائية.

وعند إعلان اغتياله فقد تفجع العالم عليه، وابتهج اللبنانيون، مطلقين النار في الهواء احتفالاً بذلك؛ وكان لشيمون بيريز الذي كان مع رابين معه في ساعاته الأخيرة أثناء الاجتماع الحاشد، هذه الكلمات في جنازته:

"لقد كانت المرة الأولى في حياته عندما وافق على إنشاد أنشودة حيث قال: "أنا لست بمغني". وهذه الليلة شارك بإنشاد أنشودة السلام. وقبلاً كنا قد أُعطينا كلمات الأنشودة، والتي وضعها في جيبه. وقد أصابت الرصاصة الأنشودة وجسده معاً. بإمكانك تمزيق الأنشودة، بإمكانك إصابة الجسد، ولكن ليس بإمكانك قتل الفكرة العظيمة النبيلة للسلام".

هذا ما كان رابين يمثله: السلام في إسرائيل، السلام في الشرق الأوسط. وعلى كل حال بالإمكان لمس فيما إذا كان ذلك حقاً يؤدي إلى نشوء شرق أوسط أكثر استقراراً وذلك في حال سعي إسرائيل للبقاء على طريق السلام الذي رسمه لها رابين.

جون ف. وروبرت كينيدي

كانت هناك أسباب ثلاثة لتقدم كينيدي صوب دالاس في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1963. أولاً، لرفع أسهم الحملة الانتخابية للحزب الديموقراطي، الانتخابات المستحقة للعام 1964. ثانياً، لبدء البحث في إعادة انتخابه. وثالثاً، لتلطيف الأجواء بين أعضاء الحزب الديموقراطي الذين كانوا وعلى ما يبدو في شجار فيما بينهم. ثم إن السبب الرابع والذي من الممكن أن يكون الأكثر إلحاحاً كان القدر ولكن لم يكن جون كينيدي ليدري ذلك إلى أن اصطدمت رصاصة القاتل برأسه.

كانت التنظيمات الأمنية في أعلى مستوياتها على قائمة جميع الرحلات إلى دالاس. إذ قبل بضعة أشهر تقريباً عومل سفير أميركا في الأمم المتحدة إدلي ستيفنسون معاملة قاسية ونشبت مشاجرة قصيرة معه خلال زيارة إلى تلك المدينة. وقد أخذ الرقيب ديفيس في البوليس المحلي أقصى احتياطاته قبيل رحلة الرئيس جون كينيدي إلى دالاس للتأكد من عدم حدوث شغب، إلا أن الخطر يكمن دائماً في المتصيدين المتخفين في الظلام. كان على الرئيس أن

يستقل سيارة مكشوفة، وكان قد ذكر هو نفسه وبوضوح احتمال إطلاق النار عليه، وذلك صباح اليوم الذي قتل فيه. والشيء الذي هو ذي بال أنّ ونستون لوسون في الأمن السري، والذي كان مسؤولاً عن ترتيبات الرحلة بكاملها أخبر قسم شرطة دالاس بعدم توزيع الدورية العادية للبوليس التحري المتخصص بالمجرمين المحترفين، ليكونوا وعلى الفور من وراء سيارة الرئيس، على الرغم من أن ذلك كان شيئاً اعتيادياً عند زيارة الشخصيات المهمة. وقد ذكر المسؤول في قسم البوليس جيس كاري لاحقاً، بأنه لو كان وضع رجاله في ذلك الصباح المشؤوم، لحال ذلك ربما دون عملية الاغتيال.

وقد بدأ موكب الرئيس كينيدي بالتحرك من مطار لوف فيلد إلى قلب مدينة دالاس، مخترقاً ديلي بلازا إلى سوق دالاس التجاري، حيث كان سيلقي الرئيس خطابه. كانت الحالة في دالاس متوترة. وقد كانت مواكب المستقبلين تقف صفاً بمن فيهم منتقدو كينيدي حاملين لافتات احتجاج وموزعين نشرات، إلا أن شيئاً لم يكن خارج السيطرة. وتوقف الرئيس لبعض الوقت ليصافح بضع راهبات كاثوليكيات وبعض تلاميذ المدرسة. إلا أن الحادث غير الطبيعي الذي تمّ تسجيله هو حادث الرجل الذي جرى باتجاه الليموزين، إلا أنه تمّ القبض عليه من قبل وكيل الإدارة السري.

وقبل الثانية عشرة والنصف ببضع دقائق، اقترب موكب كينيدي من مستودع كتب مدرسة تكساس. ودقائق قليلة على مرور السيارة من أمام المستودع تمّ رمي بضع طلقات نارية استمرت بقدر 6 – 24 ثانية. ووقعت عملية الاغتيال التي كانت الأكثر إثارة للجدل، وأكثر ما دارت حولها الأحاديث وربما العملية الأكثر إثارة لخيال صنّاع السينما.

وبالعودة فقد قام عميل الإدارة السرية كلينتون هيل والذي كان في سيارة

خلف يمين سيارة الليموزين المكشوفة مباشرة، بالقفز متوجهاً إلى سيارة الرئيس وصعد إلى المقعد الخلفي حيث كان الرئيس والسيدة الأولى. وعند صعوده إليها رأى وبوضوح السيدة كينيدي وعلى وجهها آثار الصدمة وهي تتحرك ببطء داخل سيارة الليموزين المتحركة، فقادها من ظهرها، ووضع جسده على أقرب مقعدين لحماية الزوجين. وقد قام لاحقاً بالإدلاء بتلك الشهادة: "كان الجزء الخلفي من رأسه غير موجود إذ كان مُلقًى في المقعد الخلفي للسيارة. وكان دماغه ظاهراً للعيان.

وتوجه موكب السيارات فوراً إلى مشفى باركلاند التذكاري حيث تمّ هناك إعلان وفاة كينيدي في الساعة 1:38 بعد الظهر. لم يكن هناك ردة فعل من الحشد فورية، حيث قال العديد منهم فيما بعد إنهم ظنوا أنه كان ذاك صوت مفرقعات نارية أو حتى اشتعال خلفي (في المُحرِّكات).

وفعلاً تمّ التقاط مشهد إطلاق النار في حينه من قبل أبراهام زابرودر الذي كان يصوّر الرئيس عند مروره بساحة ديلي بلازا. وقد كان لبينته هذه الصدى الذي أحدث صدمة وخوفاً وعدم تصديق شعر بها كل شخص في جميع أنحاء العالم.

كانت قصة الأعمال البطولية لكينيدي قد بدأت قبل جيل مع جوزيف كينيدي الطموح بشكل هائل، الابن لعائلة إيرلندية كاثوليكية مهاجرة، الذي أصبح أغنى رجل في أميركا في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين وذلك من خلال سك العملة في وول ستريت، في هوليوود، والاتجار غير المشروع في الخمور أثناء حظرها. وعلى الرغم من ثراء جوزيف الأب إلا أنه لم يوظفه لصالح النخبة الأميركية في الداخل البروتستانتي. ذاك أدخله في المجال السياسي

وحتى جعله يطمح في الوصول إلى الكرسي الرئاسي في أميركا. وقد عمل على أن يصبح سفيراً في بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، لكنه عندما حاول أن يُقْنِع بعدم اشتراك أميركا في الحرب، تمّ إبعاده عن الحكومة، وبقي يعيش حلمه في أن يصبح أحد أبنائه يوماً ما الرئيس الكاثوليكي الأول للبلاد ذا الأصل الإيرلندي.

وقد نقل طموحاته إلى سميه، ابنه الأكبر جو، إلا أنه قتل في الحرب أثناء مهمة سرية. ثم قام ابنه الثاني جون، بعد الحرب، بالإمساك بعصا السياسة فأصبح سيناتوراً، ولم يكن ذاك صعباً بالنسبة له فقد كان حسن الهيئة وذا حصافة سياسية بارعة، وكان يملك مساعدة مالية ضخمة. وقد جذب أميركا بسحره، وخطا خطوات حسنة من مثل زواجه من حسناء في طبقات المجتمع جاكلين بوفبير كي يحوز على مزيدٍ من الإعجاب به لدى العامة. ومن النادر أن يكون هناك شخص، جعل السياسة وأساليب الحكومة تبدو أكثر إثارة وسحراً كما جعلها جون كينيدي.

وقد قاده سجله المسلكي المثير للإعجاب عبر هارفارد ليقوم بمهمة كان لها بريقها في الأسطول. وبعد عودته من المهمة السابقة، قام ومن وحيها بكتابة قصته "لمحة عن الشجاعة" التي ربح عنها جائزة بولتيزير في القصة. كل ذلك قبل بلوغه الأربعين من العمر. وفي حوالى العام 1956 فاز بترشيحه عن مقعد للديموقراطيين كنائب للرئيس. وبعد أربع سنوات كان كينيدي هو المرشح الأول لمقعد الرئاسة بمجموع الأصوات. وقد تابع الملايين مناظرته التلفزيونية مع عضو الحزب الجمهوري ريتشارد نيكسون وابتهجوا عندما واصل فوزه ليصبح الرئيس الأميركي الكاثوليكي الأول.

وقد بعث الحماس في الأميركيين من خلال قوله: "لا تسأل عما يمكن أن تفعله لك بلادك، ولكن اسأل عما بإمكانك فعله لها" واتجه كينيدي إلى العمل

على جعل "أميركا تتحرك مجدداً" مع أطول برامج اقتصادية متواصلة منذ الحرب العالمية الثانية، وكان متجاوباً مع رفع مطالب الحقوق المدنية الملحة. إلا أنه جاءه بعد ذلك الإخفاق في قضية "خليج الخنازير"، وذلك عند سماحه ل- 1500 من المتدربين الكوبيين الأميركيين المبعدين والذين يدعون باللواء 2506 للعودة إلى الجزيرة على أمل عزل كاسترو. لكن كينيدي كان مستخفاً بشعبية كاسترو وقد ارتكب أخطاء عديدة عند مضيه في الخطة. فقد كان من أمر المبعدين أن بعضهم قتل والبعض الآخر تمّ إلقاء القبض عليه، وقد أجبر كينيدي على التفاوض لتأمين إطلاق سراح 1.189 من الناجين مقابل أدوية وطعام بلغت قيمها 53 مليون دولار. وعلى الرغم من كون ذلك محرجاً، أقرّ كينيدي بمسؤوليته وتقبّل الملامة على هذه الهزيمة.

وقد اعتقد الكثيرون بأن كينيدي كان ضحية الحرب الباردة. وقد تواردت مباشرة في أعقاب أحداث أزمة خليج الخنازير أعظم أزمة في السياسة الخارجية خلال عهد كينيدي. فقد حبس العالم أنفاسه على مدى أربعة عشر يوماً خلال شهر تشرين الأول/أكتوبر 1962 وذلك عندما تحدّى كل من جون ف. كينيدي ونيكيتا خروتشوف بعضهما بعضاً حول قضية القواعد العسكرية السوفياتية النووية على جزيرة كوبا.

وفي الصباح الباكر من يوم الثلاثاء السادس عشر من تشرين الأول/أكتوبر العام 1962 جاءه مساعد الأمن القومي العريف جورج باندي ليزوده بصور بالغة الأهمية حول نصب جنود سوفيات سراً لصواريخ غامضة حملتها طائرات U-2 التي تحلّق عبر سماء كوبا.

وقد كان السوفيات منذ وقت قد قاموا بتزويدٍ بالصواريخ، مضادات طائرات أرض جو (سام). على الرغم من أن كينيدي لم يكن لديه ميل إلى الاحتجاج على الأسلحة الدفاعية، إلا أنه حذّر بالفعل من منازعات جدية في حال قيام السوفيات في أي وقت بتقديم أسلحة هجومية. وقد كرّر رئيس الوزراء خروتشوف وعوده بعدم إرسال أسلحة هجومية إلى كوبا فاتحاً هوة إذ فضحته صور ال- U-2 كشخص كاذب وماكر.

وفي ذلك الوقت وصل تعداد ترسانة الأسلحة النووية ما يفوق 25.000 قطعة من الأسلحة بينما كان السوفيات يمتلكون نصف هذا العدد. وقد قرّر

سلف كينيدي دوايت إيزنهاور في العام 1960 بأنه إذا أدت الأزمة إلى حرب نووية، فإن سكان الكرة الأرضية الشمالية سيلاقون الفناء.

ودون أن يضيّع وقتاً، جمع كينيدي أعضاء السلطة التنفيذية لمجلس الأمن القومي أو الـ ExComm للتداول، لمساعدته في تقرير ما يجب عليه فعله في شأن المشكلة الكوبية. وقد كانت تلك جماعة صغيرة مؤلفة من الأعضاء المشاركين المنتظمين في لقاء مجلس الأمن القومي بالإضافة إلى النائب العام وشقيق الرئيس روبرت والمسؤول عن كتابة خطابات الرئيس سورينسن وآخرين من المستشارين القياديين.

وفي أثناء المداولات الأولية، كان كل واحد فيهم يفضل قصف كوبا بالقنابل. إلا أنه أشار كل من كينيدي وباندي وآخرين هجوم إلى عسكري جراحي ضد مواقع الصواريخ. وفي اليوم الثالث، فرض خيار جديد نفسه. سيقوم الرئيس بالتوجه إلى العامة للإعلان عن وجود الصواريخ السوفياتية في كوبا، آمراً بحصار أو "عزلة إلزامية" كما تفضل الولايات المتحدة تسميتها، لمنع إنزال المزيد من الصواريخ، ومطالباً السوفيات بسحب الصواريخ الموجودة. وفي حال عدم استجابة خروتشوف خلال يومين، ستقوم الولايات المتحدة بشن هجوم على كوبا وتتبع ذلك بغزوها.

إلى جانب ذلك، كانت هناك قضية أخرى مستحكمة، والتي كانت الأكثر إشكالاً بالنسبة للرئيس. فإن إشراف السوفيات على برلين الغربية في العام 1948 – 1949 تمّت إعاقتها من قبل عملية قام بها أميركيون إنكليز. وفي العام 1961 قام خروتشوف والألمان الشرقيون ببناء حائط حول برلين الغربية للقبض على النازحين من برلين الشرقية من منطقة السلطة السوفياتية. وكانت قد وعدت الولايات المتحدة بحماية المليون ونصف المليون من سكان برلين الغربية من سلطة السوفيات، ولكن بدون الوسيلة الطبيعية لمنع الجماعات السوفياتية من فرض سيطرتها على المدينة، فإن الحماية الوحيدة لبرلين الغربية كانت من خلال تهديد الولايات المتحدة بالهجوم على القوات

السوفياتية في أقصى الاحتمالات.

وقد فسّر كينيدي نصب السوفيات للصواريخ في كوبا بمثابة خطوة تحضيرية استعداداً لمجابهة غاضبة ومواجهة نووية في برلين ليس على المسرح الأميركي فحسب ولكن في جميع أنحاء أوروبا أيضاً.

ومخاطباً الهيئة المشتركة للمسؤولين قال كينيدي: "إن السوفيات في تحركاتهم في برلين لم يتركوا لي سوى خيار واحد وهو إشعال حرب نووية، وهو بديل الجحيم.

وفي يوم الاثنين 22 من شهر تشرين الأول/أكتوبر تحدث كينيدي عبر الإذاعة والتلفزيون مخاطباً شعبه حول التعزيزات السرية للسوفيات في كوبا، مطالباً الروس بسحب الصواريخ ومهدّداً بتفجير أي مركب، حتى أي سفينة تجارية، تتجاسر بتجاوز خط العزلة. وقد مضت الأيام القليلة التالية، لحظة محزنة في إثر لحظة، مع مآزق وشكوك وأحمال من المسؤولية تنوء بأعباء غمار حرب نووية أولى في تاريخ الإنسانية.

وقد وصف روبرت كينيدي شقيقه بأنه كان "مزيج" من الضعف والعزم الفولاذي. "كانت عيناه مشدودتين، وتقريباً رماديتين، وكنا فقط نحدق في بعضنا البعض فقط عبر الطاولة".

ولحسن الحظ، فإنه وقبل حصول أية مواجهة في البحر، أمر خروتشوف جميع السفن التجارية المتجهة إلى كوبا بالعودة. وكان خروتشوف قد قرّر الانسحاب مع التزام مجرد بعدم الغزو، وبذلك وصلت الأزمة إلى نهايتها. وبقيت طائرات الاستطلاع الأميركية تراقب الوضع أثناء تفكيك السوفيات لصواريخها ونقلها إلى الاتحاد السوفياتي.

وكانت المواجهات مع السوفيات من خلال الحائط الفولاذي شيئاً بالغ

الأهمية في محيط لي هارفي أوزوولد ذي الشخصية العبثية من العام 1959 إلى أن ترك الاتحاد السوفياتي.

وقد تواصلت التحقيقات الرسمية حول عملية الاغتيال من قبل اللجنة المختارة في البيت الأبيض من العام 1976 إلى العام 1979 وانتهت إلى أن عملية الاغتيال ربما كانت نتيجة تآمر وذاك يناقض ما جاء لدى لجنة ورين التي انتهت إلى أن عملية الاغتيال قد تمّ تنفيذها من قبل مسلح وحيد. لذا من الممكن القول بأن الحكومة الأميركية تمتلك رأيين حول عملية الاغتيال.

وفي حين قال الكثيرون بأن أوزوولد (القاتل الذي أطلق ثلاث رصاصات على كينيدي) كان بَيْدَقاً ضعيف الشأن في مخطط لعبة الاغتيال الكبيرة للرئيس جون كينيدي. وهناك من يدافع (يؤكد) بأن أوزوولد لم يكن متورطاً أبداً. وفي الحقيقة، فإن قتله على يد جاك روبي بعد يومين تقريباً من اعتقاله يقوي ذاك التوجه.

إن الشخصيات الأكثر اشتباهاً في ساحة ديلي بلازا في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1963 كانا شخصان جالسان بقرب كينيدي عندما تمّ إطلاق النار. هذان الرجلان كانا منسيين بالكامل من قبل لجنة وورين وشرطة دالاس كليهما، ولكن الشكوك تصاعدت لدى المحققين على امتداد السنين. وفي عملية تحليلية للصور ولفيلم زابرودر فقد وجد بأن تصرفاتهم كانت تستأهل الريبة والملامة.

وكان أحد الرجلين يحمل مظلة مفتوحة على الرغم من أنه لم يكن هناك أثر مطر، بينما كان الآخر يلوح بيده في الهواء. وفي دراسة محضة للصور، كان يُشاهد بوضوح أن "رجل المظلة" كما يدعى آلان، كانت مظلته مغلقة قبل دقائق الاغتيال وبعده، وعند اقتراب موكب كينيدي قام بفتحها عالياً في الهواء ثم أنزلها، أما الرجل الآخر فقد أصبح يدعى ب. "الرجل ذي البشرة الداكنة" الذي كان ربما إفريقياً أو إسبانياً الذي قام برفع ذراعه في الهواء. ومن

المعتقد أن كلا الرجلين قاما بإعطاء إشارة للرجل المسلح.

واعتقد المحقق روبرت كاتلر بأن المظلة كانت سلاح بقاذف ناري. ويدعم هذا الاعتقاد إفادة من قبل لجنة الاستخبارات في العام 1975 لأن مظلة كتلك كانت تستعمل في العام 1963. ووصف المحقق السلاح بأنه يبدو وكأنه مظلة. وأوضح بأن البندقية القاذفة شُغّلت بصمت وأطلقت من خلال الشريط النسيجي عندما فتحت المظلة. وقال أيضاً بأن الـ سي آي إي كانت قد طلبت حوالى الخمسين من هذه البنادق وكانت جاهزة للاستعمال في العام 1963. بالإضافة إلى ذلك، رأى كاتلر بأن الجرح في عنق كينيدي كان بسبب هذا القاذف. وهذا يفسر سبب قلة حركة كينيدي أثناء تتابع عملية إطلاق النار هذا. وإن العديد من المحققين يعتقدون بأنه طالما وأن مثل هذه الأسلحة هي موجودة وأن تشغيلها هو مرتبط بنشاط رجل المظلة فإنه لا يمكن تجاهل ذلك الرأي تماماً.

وإن نشاط هذين الرجلين بعد عملية الاغتيال يدينهما أكثر من أي شيء آخر. فعندما تفاعل كل شخص مع عملية إطلاق النار بحزن وبشكل مأساوي، جلس هذان الشخصان وبكل بساطة على جانب الطريق في شارع "إلم". وقد أظهرت الصور "الرجل ذا البشرة الداكنة" وهو يتحدث عبر جهاز راديو. وبين الصور، أظهرت واحدة هوائياً بارزاً خلف أذنه وكان يحمل بيده جسماً أمام وجهه. وحالاً وبعد ذلك، نهض الرجلان وسار كل منهما في اتجاه مختلف. فبينما توجّه "الرجل ذو البشرة الداكنة" باتجاه الطريق السفلي الثلاثي تحت شبكة سكة الحديد، توجّه "رجل المظلة" باتجاه مخزن الكتب المدرسية.

وإن أف بي آي وال- هيئة وورين لم تقوما بأي جهود لملاحقتهما. لذا فإنه ورسمياً ليس لهذين الرجلين وجود. وعندما تم تشكيل لجنة House Select Committee في قضية عملية الاغتيال (HSCA)، طالب الشعب بإجراء تحقيق مع الرجلين. ونتيجة للضغط صرحت بعرض صورة "لرجل المظلة" وطالبت

بمعلومات عنه.

والعجيب أن "رجل المظلة" سرعان ما انكشف بأنه كان يعمل في شركة دالاس للتأمين وهو لويس ستيفن ويت. وعند مقابلته رفض إضافة أي شيء على قوله بأنه كان موجوداً في ديلي بلازا في يوم الاغتيال. وقد قال المحقق بن جونز ج. ر لاحقاً: "لقد شعرت بأن هذا الرجل مدرّب. لم يكن ليجيب عن أي سؤال ودعانا وبشكل محدّد للمغادرة". وقد كانت إفادته الإيجابية والتي جاءت سريعة جداً على ما يبدو، بأنه كانت لديه الرغبة في الحضور أمام لجنة (HSCA) في عملية الاغتيال في واشنطن".

وقد أخبر لاحقاً اللجنة HSCA : "أعتقد بأنني سلكت فيما يمكن أن يكون الطريق إلى وسط المنطقة المكسوة بالعشب (شمال شارع إلْمْ)، في منطقة ما في الجوار. وإنني متأكد إلى حدٍّ ما بأنني جلست (عند اقتراب الموكب) لأنهض من ثم وأبدأ بالعبث بتلك المظلة محاولاً فتحها، وكنت في ذات الوقت أسير إلى الأمام، أسير باتجاه الشارع، بينما كان الناس الآخرون، كما أدركت، يرون عملية إطلاق النار على الرئيس ثم تحركاته. إلا أنني لم أرَ ذلك، بسبب هذا الذي أمامي (المظلة). وكان مشهد السيارة بالنسبة لي خلال تلك الفترة من الوقت محجوباً بالمظلة المفتوحة".

إلا أنه لم تكن أي واحدة من إفادته صحيحة، ولم تكن متوافقة مع ما هو مشاهد في الصور. وأما "الرجل ذو البشرة الدكناء" فلم يعثر عليه أبداً. وقد تحدث ويت عن "الرجل الزنجي" الذي كان جالساً إلى جانبه على الرصيف والذي غمغم: "لقد أطلق القوم النار بأنفسهم". ولكن وحتى هذا التاريخ بقي الرجلان سراً غامضاً بالنسبة للناس ولا يزال يُعتقد بأن أوزوولد مرتبط بعملية اغتيال الرئيس.

وإذا كان أوزوولد مجرد عجينة لينة، لما كان تقرير وورين امتد على مدى 26 كتاباً من التخمينات والوقائع. إن أوزوولد، وخلال حياته القصيرة والتي على ما يبدو خالية من الأحداث الهامة، أراد تأليف التأريخ لسيرة ذاتية غير

عادية مليئة بالأحداث وبالمناخات المتقلبة.

كان يتطلع على مدى حياته إلى مكيدة ليشارك فيها. وفي العمر 15 كان يتطلع إلى انضمام إلى حزب يعارض سياسة الولايات المتحدة. وكتب ذات مرة إلى الحزب الاشتراكي طالباً معلومات حول الانضمام إليهم في رابطة الشبيبة. وفيما بعد قام بإجراء عضوية لتنظيم من قبل حزب العمال الاشتراكي، وحزب العمل الاشتراكي، ولجنة إنصاف كوبا والحزب الشيوعي الأميركي الذي جعله تحت مراقبة الـ أف بي آي.

ومن ثم انضم أوزوولد إلى فَيْلَق البحرية الأميركية Marine Corps. وخلال الخدمة سجل تقدير هداف بارع (حصل مرتين على 48 و49 من أصل 50 طلقة خلال إطلاق نار سريع على هدف ثابت على بعد 183 متراً باستعمال بندقية عادية نصف أوتوماتيكية). ووصف خبير قام بفحص سجله بأن براعته في إطلاق النار بـ "فوق المعدل"، وكانت براعته بمن بمثل عمره من الذكور الأميركيين المدنيين بـ "الرمي الممتاز".

وفي تشرين الأول/أكتوبر 1959، وبعد خدمة عامين في القوات البحرية، أصبح أوزوولد الجندي الأول في البحرية الذي ارتد في مواطنيته إلى الاتحاد السوفياتي. وقد أنكر على الملأ مواطنيته الأميركية كما أنه أعلن لقنصل الولايات المتحدة بأنه قد صنف حقيقة الجيش الأميركي بأنه "الجيش ذو المنافع الفوق العادة" وأنه عازم على التحول إلى الجيش الروسي. وعند علم الدائرة البحرية بذلك قامت بتحويل أوزوولد من جندي يتحمل المشقّة وجدير بالاحترام إلى جندي غير مرغوب فيه. وطالما أنه في الواقع قام بالتعرض لطائرات U-2 التجسسية ومواصفات نظام الرادار، وطالما أنه من الممكن أن يكون قد جمع معلومات محظورة خلال مهماته العملية، فإن عمله له دلالات تجسيسية هامة. وبهذا كان أوزوولد قد وضع نفسه قطعاً بيد مضيفيه.

وكان رغبة أوزوولد في البقاء في الاتحاد السوفياتي تعتبر مبدئياً مرحباً بها إلى درجة كبيرة عند السوفيات، ولكن عندما وجدوا أن لديه القليل من القدرات ليقدمها لذا تمّ رفض طلبه للإقامة. وكردّة فعل، قام أوزوولد بشق معصمه الأيسر في حوض الاستحمام في غرفته في الفندق. وعلى الرغم من أن هذه المحاولة تمثل عملاً محضاً مثيراً يشد الانتباه ويثير مخاوف السوفيات من

أحداث دولية؛ وعكس نصيحة المخابرات الروسية KGB، سمحت اللجنة العليا لأوزوولد بالبقاء في روسيا.

وقد كان أوزوولد تحت مراقبة مستمرة من قبل الـ KGB خلال إقامته في منسك، حيث أرسلته السلطة الروسية للعمل هناك، وكان ذلك ضد رغباته. فقد أمل أن يدرس في الجامعة. وتمّ التجسس عليه من قبل صديقه القريب العامل الرفيق بافال جولوفاشيف. ولكن ومع مضي سنة، سرعان ما أصبح أوزوولد منهكاً من الملل ومن العمل في معمل المدينة الصغيرة في الاتحاد السوفياتي. وقد وجد نفسه في خيبة أمل من شعار الماركسية الروسي، واثقاً بأن ماركسيته كانت أنقى. حينها بدأ يفكر بالعودة إلى الولايات المتحدة.

وقبل اختفائه وراء الستار الحديدي، كتب أوزوولد في رسالة طويلة إلى أخيه: "أود أن تدرك ما سأقوله الآن. فعند قيام حرب سأقوم بقتل أي أميركي يرتدي لباس الدفاع عن الحكومة الأميركية". ومن ثم أخذ يؤكد منذراً مرة ثانية "أي أميركي".

وعندما عاد أوزوولد من الاتحاد السوفياتي في حزيران/يونيو 1962 وبرفقته زوجة روسية، انتقل إلى دالاس، وأدرك دائماً من حينها وصاعداً الحاجة إلى العمل الفعلي عوضاً عن مجرد الكلام. وأصبح الجنرال إدوين أ. وولكر، العضو في الحزب المحافظ إلى درجة قصوى الذي كان فاعلاً في تنظيمٍ ضد حزب عصابات كاسترو، أصبح مركز اهتمام أوزوولد. ولم يمضِ وقت طويل إلى حين سار أوزوولد إلى منزل وولكر وذلك في يوم صاحٍ حيث قام بإطلاق رصاصة أخطأت رأسه إنشات قليلة. وقد برهن لجميعٍ من كانوا مهتمين بموضوعه بمدى مقدراته كما برغبته الصادقة في قتل "أي أميركي".

وعلى كل حال، وبعد عودته إلى الولايات المتحدة في العام 1962 كان لدى أوزوولد بعض الأصدقاء أو بعض المعارف الشخصية. وأخيراً انفصل عن زوجته مارينا وطفلتهما، ليبحث من ثم عن مسكن في المنطقة للاستئجار. كان هناك فترة في الشهور الأخيرة من حياته التي كانت تحركاته ونشاطاته خلالها غير موثقة. وظهر أوزوولد وقد أصابه صلع خلال هذا الوقت وبدا

أكبر من سنواته الأربع والعشرين.

وبعد إخفاق عملية الاغتيال (للجنرال إدوين وولكر)، توجّه أوزوولد إلى نيوأورلينز حيث اصبح المنظم للجنة إنصاف كوبا، حتى إنه كان يحاول شخصياً اختراق الجماعة المعادية لكاسترو التي كانت تنظم لعمليات تخريب ضد كوبا. وغضب المقاتلون والإذاعات المشابهة من الإدارة الأميركية بشأن هجوم "اللصوص الإرهابيين" على كوبا. وعند تصاعد حدَّة الحرب ضد كاسترو السرية، قام كاسترو بنفسه بإرسال تحذير إلى الزعماء الأميركيين بأن هؤلاء الذين "يعدون الخطط للقضاء على الزعماء الكوبيين... هم أنفسهم لن يبقوا في أمان". وكان أوزوولد يعبّر عن رغبته المتزايدة بالذهاب إلى كوبا.

وسريعاً، وبعد ذلك، مضى أوزوولد إلى السفارة الكوبية في مكسيكو مع ملفّ كان قد أعدّه بدقة حول سيرته الذاتية، نشاطاته الثورية، ارتداده (فراره) إلى الاتحاد السوفياتي، دعواته التي قام بطبعها، الوثائق التي سرقها من شركة للطباعة مشتركة في تصنيف نسخ خرائط للجيش الأميركي، مراسلاته كمسؤول في لجنة إنصاف كوبا، وصور تورطه بعملية إطلاق النار على وولكر. وفي الثامن عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، وافقت السفارة الكوبية على منح أوزوولد تأشيرة والتي كان موافقاً عليها من قبل وزير الخارجية الكوبي.

وعند عودة أوزوولد إلى دالاس في تشرين الثاني/نوفمبر المشؤوم اتخذ لنفسه هوية شخصيته تحت اسم أُو. أتش. لي "O. H. Lee" وانتقل إلى نزل (دار فيها غُرَف مفروشة للإيجار). حينها حصل على عمل في مخزن كتب مدرسة تكساس، والتي تقع في الموقع الذي أصبح شائناً الآن، وذلك محل

نقطة التقاء الشوارع الثلاث في وسط دالاس.

وكما علّق إدوارد ج. إيبستين، الكاتب للعديد من الكتب حول عملية اغتيال كينيدي: "إن القضية هي فيما إذا كان أوزوولد قد وجد التواطؤ الذي كان يبحث عنه. أو أنه، ومنذ أعلن عن رغبته بصورة واسعة، عثر هذا التواطؤ عليه".

وربما تكون تلك الإشارة السبب الأكثر أهمية لماذا التصقت فكرة أوزوولد بالأميركيين. وهناك تغيرات بارزة قليلة طرأت على أوزوولد بعد أن أصبح على مقربة من الكوبيين، والتي هي جديرة بالملاحظة. وقد بدا بأنه كان هناك إشارة خفية إلى مسار محدّد في حياته على خلاف مع مساره السابق؛ تباعده وتحفظه الغامض واختياره للعيش منعزلاً ليحل ذلك محل حياة اجتماعية سابقة وشخصية مضطربة. وملاحظات كهذه من الممكن أن تمنح المصداقية للرأي في دور كوبي، وربما دور كوبي سوفياتي في عملية اغتيال كينيدي. ولكن، وللأسف، فإنه وبالنسبة للمحققين في تلك المراحل العديدة للاغتيال التاريخي الغامض، فإن وقائع هذه الفترة في حياة أوزوولد هي قليلة جداً وفتراتها متباعدة، والفترة هي قصيرة جداً ومن المحتمل أن دلائل الجريمة المُثْبِتة قد دفنت في الممر السرّي لنفوذ الـ أف بي آي، والتي لن يكشف عنها أبداً.

وبالعودة، فإن أوزوولد تدبّر أمره للحصول على عمل في مخزن كتب مدرسة تكساس بواسطة صديق. وعلم خلال فترة بضعة أيام بأن كينيدي كان قادماً إلى بلدته، وسوف يمر فعلاً بصورة مباشرة من أمام مبناه، في وقت مرجح أن يكون فيه وحيداً في الطابق السادس. إنها فرصة قدمت له على

طبق واسع ليس فقط لقتل أميركي، بل لقتل الأميركيين جميعاً.

لقد كانت الساعة الأولى بعد أن تمّ إطلاق النار على كينيدي هي ساعة ارتباك عظيم. بعيداً عن التكهن فيما إذا كان كينيدي سيجتاز مرحلة الخطر، فإن الناس أخذوا يفكرون في الشخص الذي قتله. وبما أن عملية اغتياله حدثت أثناء الحرب الباردة، فإن الآراء كانت مجتمعة حول أن ذاك كان جزءاً من هجوم أكبر على الأميركيين من قبل السوفيات. وقد اجتمع الأميركيون حول الراديو والتلفاز مجدداً. وقد ألغت المحطات التلفزيونية البرامج المعتادة مركزة على تغطية عملية الاغتيال. وفي الواقع، فقد كانت التغطية الأطول المتواصلة لحادثة فردية إلى حين أحداث الحادي عشر من أيلول.

لقد صُعق العالم ووقف بلا حراك عند معرفة الناس للأخبار. وقد توقفت حركة المرور في بعض المناطق، وقامت بعض المدارس في أميركا وكندا بصرف طلابها باكراً. وقد ظهر لبعض الوقت غضب شديد على غير هدى ضد التكساسيين، إلا أنه ساد محل ذلك مشاعر أفضل فيما بعد ولم يعد هناك أحداث غير مُواتية.

وعلى الرغم من أن كينيدي هو من بين رؤساء أميركا الأكثر شعبية فإن النقاد يناقشون بأنه لم يشتغل في الإدارة بما فيه الكفاية ليُحدِث أثراً في البلاد. وعلى الرغم من كونه قائداً شاباً وذا شخصية ساحرة قام بتسيير العديد من البرامج التي قيل لاحقاً عنها بأنها ذات منافع كبيرة للبلاد، ولأهل البلاد، ولقضايا عالمية مختلفة. وقد كان من الأمور التي دار الحديث حولها كثيراً هو مرسوم الحقوق المدنية الذي قام بإرساله إلى الكونغرس في حزيران/يونيو 1963 والذي تمّ التوقيع عليه ضمن قانون من قبل خلفه ليندون جونسون.

وقبل مضي أقل من خمس سنوات، كان لشقيق جون كينيدي روبرت

كينيدي موعد مع الموت على يد قاتل مما يعزِّز معتقداً راسخاً بأن لعنة تهدد عائلة آل كينيدي وكأن قدر معظم أفرادها الموت بطريقة بشعة.

ففي الخامس من شهر حزيران/يونيو كان روبرت قد فاز بالانتخابات الرئاسية الأولى عن الديموقراطيين في كاليفورنيا، وكان مغادراً مكان الاحتفال في فندق إمباسادور في لوس أنجلوس وكان له من العمر حينها 42 عاماً تقريباً.

ومع تقدمه عبر غرفة الأدوات في الفندق لينصرف بهدوء، كان روبرت في بيت القصيد ضمن الهدف الذي قاده إلى موته. لقد تمّ إطلاق النار عليه من قبل مهاجر فلسطيني اسمه سرحان ب. سرحان. كان القاتل يندفع على الأرض، وهذا ما أفاد عنه شهود عيان. وقد أرسل سرحان فيما بعد للسجن المؤبد حيث حكم عليه بذلك وهو ما يزال مسجوناً يقضي فترته في سجن كوركوران الحكومي في وسط كاليفورنيا حيث حرم من إطلاق سراحه لعشر مرات.

وقد أحاط الغموض بموت كينيدي الأصغر كما أحاط بموت أخيه. وكشف البارود المحترق على ملابسه بأن جراحه الثلاثة كانت من بندقية أطلقت من على بعد 0 – 2 إنش (0 – 5 سم). لكن كان كل الشهود متأكدين بأن سرحان لم يقترب من ر. ف. ك. بسوى ثلاثة أقدام (90 سم). فالطلقات الثلاث كما قيل صدرت من خلف كينيدي وتمّ إطلاقها نحو الأعلى. ولم يكن سرحان خلف كينيدي، وحتى إنه وعندما أطلق النار فقد أطلقها من بندقية كانت تحملها ذراعه التي هي موضوعة على موازاة الأرض. والأبعد من ذلك فإنه تمّ إطلاق النار على كينيدي مرات ثلاث وتمّ جرح ثماني أشخاص آخرين. وقد تمّ العثور على ثماني رصاصات في السقف وفي عارضة الباب في غرفة الأواني. إلا أن البندقية التي حملها سرحان بإمكانها في أقصى الحالات احتواء ثماني رصاصات والذي يشير بشكل آلي إلى وجود آخرين قاموا بإطلاق النار خلال عملية الاغتيال.

وقد ادعى سرحان لاحقاً بأنه بريء وأن ذاكرته خانته حول ذلك المساء مما حمل الكثير ليقولوا بأنه كان مُنَوَّماً مغناطيسياً في حالة تجعله كالعجينة في الوقت الذي كان فيه آخرون ينفذون مهمة عملية القتل. لذا فإذا لم يكن سرحان هو من نفّذ عملية اغتيال روبرت كينيدي، فمن يكون الفاعل؟!!

وهناك شبهات تحوم حول رجل الأمن إيجين ثين سيزر الذي كان خلف روبرت والذي هوى السيناتور فوقه بعد إطلاق النار عليه. وقد رأى العديد من الشهود سيزر وهو ينهض وقد سقطت بندقيته، ورغم ذلك فإن الـ LAPD أبداً لم تستجوبه بصورة فعلية، ولا أنهم حتى أخذوا بندقيته ليجروا عليها اختبار البرافين لمعرفة فيما إذا كان قد أطلق منها النار. وربما فحتى وقبل عملية الاغتيال، فإن القوى داخل الـ LAPD كانوا مسبقاً مهيئين ليأخذوا على عاتقهم دور التمويه.

بالإضافة إلى ذلك، فهناك أيضاً أمر يثير العجب وهو متعلق بالمرأة ذات "الرداء المنقط" التي كانت تشاهد برفقة سرحان في وقت مبكر في المساء. وحتى إنها سُمعت وهي تقول: "لقد نلنا منه" وذلك حال إطلاق النار عليه. إلا أنه لم يعثر لها على أثر بعد ذلك، ولم يؤتَ على ذكرها بعد تطور الأحداث.

وهناك قصة مقلقة تحدثنا عن مراهق اسمه سكوت إينيارت. فقد كان وكما يبدو في فندق الإمباسادور في غرفة حفظ المؤن ومعه هوية صحفية مزورة وكاميرا وذلك في ليلة عملية الاغتيال التي قام بتصويرها. وأثبت لاحقاً بأن هناك العديد من الرجال المسلحين الذي قاموا بإطلاق النار أثناء عملية الاغتيال مدعماً قوله بمشاهد من الفيلم. وسرعان ما تمّ القبض عليه بعد عملية الاغتيال من قبل الـ LAPD، كما تمّ احتجاز فيلمه، وأطلق سراحه، ولكن دون الصور التي التقطها في غرفة حفظ المؤن.

وهناك دلائل قوية بأن جون ف. كينيدي كان يرغب بسحب القوات من فيتنام إذا ما أعيد انتخابه كرئيس. وهذا وبكل تأكيد كان له تأثيره على

البنتاغون وعلى الخطط المحسوبة على الـ سي آي إي كما أن ذلك أعاق تدفق الملايين على صندوق الصناعات الحربية. وفي قضية روبرت فإن الدلائل هي أكيدة بأنه عزم على سحب القوات من فيتنام حالما يصبح رئيساً. وكان من المؤكد بأنه سيفوز بتسميته كمرشح للرئاسة من قبل الحزب الديموقراطي، وأظهرت صناديق الاقتراع وبوضوح بأنه كان متقدماً على خصمه ريتشارد نيكسون.

ولو أنه لم يُقتل لكان قام بإنهاء الحرب في فيتنام بوسائل سلمية ولكان تأريخ الولايات المتحدة أخذ وجهاً آخر. فإن كليهما جون وروبرت لم يتبعا سياسة ريغن وبوش اللذين كرّسا نفسيهما لعدة مواجهات مع الاتحاد السوفياتي، وسباق التسلح ومكاسب صناعة الأسلحة. وبموت الأخوين، فإن الواحد يشعر بموت الليبرالية. وكما يذكر فرانك مانكوكز: "لم تكن سياستنا لتسيطر بواسطة العرق على الطريقة التي نحن عليها. فإن (الساسة الأميركيين) البيض فقط هم الذين سدّوا الفجوة. إن سياستنا يجب ألاّ تكون سياسة عرقية. يجب ألاّ يساقوا بالحنق والغضب".

إنه لمن الممتع تصوّر السيناريو الذي من الممكن أن تكون عليها الحرب الباردة لو كان الشقيقان كينيدي نجيا من تلك المحاولة. ربما كانا أعلنا نهاية الحرب الباردة خلال فترة رئاستهما. وإذا كنا على دراية بأسلوب سياسته، مع ميوله القوية نحو الليبرالية وتأثير نشأته الكاثوليكية، ومشاعره المُرهَفة، فإنه من غير المستبعد القول بأن جون كينيدي كان سيعمل على توحيد الألمانيتين وإزالة حائط برلين، كما أنه كان سيحقق هدفه من خلال جمع ذكي بين التهديد

الحربي والدبلوماسي. وهذا كان سيشير إلى سلسلة من ردات الفعل في دول الجانب الشرقي. ولكانت آفاق جديدة فتحت أمامهم، انتخابات حرّة، عودة إلى الديموقراطية، وحقوق تقرير المصير، والفرصة للخروج من ظلّ الهيمنة الروسية. وهذا بدوره سيقلل من الموارد الإقليمية ومن سلطة الاتحاد السوفياتي ويُحدِث وقف الحرب الباردة بوقت مبكر أكثر مما حصل في آخر الأمر.

الملك بيريندرا بير بيكرام شاهديف

ماذا يلزم للقذف بمملكة الهندوس المغمورة إلى بريق الأضواء وجعل العالم يحبس أنفاسه بسببها؟ وماذا يلزم لجعل الكرة الأرضية تذكر بأن هذه البقعة من الأرض تضم أكثر الجبال طولاً على ظهر هذا الكوكب؟!! تلك الافتراضية يلزمها سلسلة من الحوادث العجيبة التي أخذت حيزها وكانت بمثابة عار.

ففي تلك الأمسية المروعة في الأول من حزيران/يونيو من العام 2001، تم تسجيل وفي تلك المملكة الصغيرة جداً نيبال، وقائع تُعد أغرب من الخيال. وكأنك بتلك الوقائع تقرأ نص فيلم سينمائي بوليسي. قصة غير محتملة الوقوع. فكيف يحتمل أن يطلق ولي العهد المدمن إلى درجة كبيرة، بالإضافة إلى احتمال كونه يتعاطى المخدرات، النار على والده الملك ووالدته الملكة، وسبعة من أقربائه قبل أن يقتل نفسه بإفراغه بضع طلقات في رأسه. أما ما أشعل شرارة هذا العنف فمردّه إلى عدم الموافقة على زواجه من الفتاة التي اختارها زوجاً له!!

ويمكن القول إنه لم يكن هناك من إشارة لدى المراقب في حينها تدل على

إمكان تكرار المجزرة الملكية الأسوأ في التاريخ والتي حدثت في روسيا عند قتل الشيوعيين للقيصر "نيكولاس الثاني" وعائلته في تشرين الثاني/نوفمبر العام 1917. لقد كانت أمسية صيف جميلة في كاثماندرو. في تلك الأمسية كانت العائلة الملكية مجتمعة لتناول عشائها في قصر نارايا ناهيتي. وكان الأمير ديبندرا في تلك الجلسة يقدم الشراب للحاضرين، وقبل ظهور البوادر الأولى للخلاف – احتدمت مشادة كلامية حامية حول تلك الفتاة التي اختارها عروساً له، والتي من بعدها انسحب من الغرفة بصمت؛ إلا أنه عاد بعد دقائق ليظهر من جديد في قاعة الطعام في القصر مرتدياً بزّةً عسكرية ومعتمراً قبعة غطت وجهه، وحاملاً بندقية هجومية ومدفعاً رشاشاً وقد وجّه فوهته إلى الأسفل.

ويتحدث شاهد عيان قائلاً: لقد أطلق النار في البدء باتجاه السقف، متبعاً ذلك بطلقات وجّهها إلى والده، مما جعل الحاضرين من الأقرباء يقفون باتجاه ذاك المشهد مصدومين ومذهولين من هول الحدث. وكانت كلمات النزاع الأخير للأب موجهة إلى ابنه وهو يقول: "ماذا فعلت!!" ويستعيد شاهد العيان الحدث ليصفه بقوله: "نظر ديبندرا فقط إلى والده دون أن يتفوه ببنت شفة... ثم ضغط على زناد البندقية، فتهاوى إثرها الملك ببطء إلى الأرض". وسال الدم على ملابسه، ليتمدد من ثم جسده على الأرض في الحال بلا حراك. وكانت الساعة حينها قد بلغت التاسعة والربع مساء.

وتتسارع الأحداث دامية مذهلة إذ وبعد عدة دقائق توجّه الأمير إلى الغرف المجاورة متابعاً إطلاق النار بصورة متواصلة وذلك قبل أن يندفع إلى الحديقة. فتمضي في إثره أمه الملكة إيشاواريا وشقيقه الأصغر نيرنجان في محاولة لإيقاف نوبة إطلاق النار الجنونية. لكنه وعلى الفور أرداهما برصاصاته قتيلين. وعند عودته إلى الداخل قام عمه، شقيق الملك، دهيرندرا بالتوسل إليه

لوقف جنونه، إلا أنه أجابه بالرصاص الذي اخترق جسده، قاضياً بذلك على عمه كما امرأتين من أقربائه اللتين كانتا في طريقهما لإسعاف الجرحى. ومندفعاً داخل الغرفة ثم خارجها في حركة إطلاق نار جنونية وعشوائية فيقتل بذلك خمسة من أعضاء أسرته ويصيب العديد منهم قبل أن يوجّه فوهة البندقية باتجاه رأسه فيقع صريعاً. وكان ابن عمه باراس، وليّ العهد الحالي، من الناجين إذ هو لاذ بالفرار بعد أن ناشد الأمير في الاستبقاء على حياته بقوله: "لا.. لا يا أخي" كي لا يكون في عداد ضحايا بندقية لأمير مدمن مسلوب العقل.

وبعد فترة من مرور أحداث هذه المجزرة أخذ العديد من الناس يتذكرون ما نصح به الفلكيون العائلة المالكة بقولهم: يجب ألا يتزوج الأمير ديبندرا ولا ينجب أطفالاً إلى أن يصير له من العمر 35 سنة. وإذا ما فعل ذلك، فسيكون ذلك بمثابة إشارة إلى وفاة الملك. ولكن شكراً للقدر القاسي فقد مات الملك قبل أن يتمم ابنه الثلاثين من عمره، وذلك عندما قام ابنه بإطلاق النار عليه بعد جدل حول الفتاة التي اختارها لتكون زوجاً له.

وبالعودة إلى ضحايا تلك المجزرة، وإلى جانب الملك "بيريندرا بير بيكرام شاهديف" والملكة "إيشاواريا"، كان هناك من الضحايا ابنة الملك الأميرة "شروتي رانا" وابنة عمه الأميرة "جاينتي شاه"، وابنه الأصغر الأمير "نيرنجان"، وأخته الأميرة "شانتي سينغ" و"شاردا شاه" وشقيق زوجته "كومار خادجا بيكرام شاه".

ومن بين الضحايا أشخاص بقوا يصارعون الموت في المشفى في ذلك اليوم المشؤوم كشقيق الملك الأصغر "دهيرندرا"، و"جوراخ رانا" زوج الأميرة "شروتي"، والأميرة "شونا شاهي" شقيقة الملك الصغرى. هذا وأن هذه المأساة

البالغة في الألم لم تستغرق سوى خمس عشرة دقيقة على الأرجح. وقد قيل بأن الأمير ديبندرا بقي وخلال ذلك كله صامتاً بصورة تثير الاستغراب، وذلك منذ شروعه بارتكاب المجزرة المسعورة. وإنّ زائراً وحيداً من زوار القصر كتبت له النجاة من تلك الأحداث الدامية؛ وهو يذكر بأن الأمير ديبندرا كان ثملاً إلى درجة كبيرة حيث كان يمشي مترنحاً، يسقط ليقوم ثانية في تلك الأمسية.

من هنا يبرز السؤال التالي: أين تكمن الدوافع التي حرّضت الأمير على ارتكاب تلك المجزرة الدامية!!

وحول ذلك، ذكرت الصحيفة اليومية الرئيسية "الكاثماندرو بوست" التي تصدر بالإنكليزية، وفي إشارة في مقدمتها الافتتاحية ما يلي: "يقول المتحدث الرسمي الحكومي بأن الهيئة الملكية، ومن خلال مؤتمرها الصحفي الذي عقدته إثر تلك الحادثة المشؤومة، لم تُرَجّع عملية القتل إلى دوافع لدى الأمير. إلا أن ذلك لا بد أن ينكشف في نهاية الأمر". ويمكن القول، إنه ليس من قبيل الشطح في التأويلات، فإن غايات القتل بالنسبة لأمير سكّير يمكن وصفها بأنها سياسية. إلا أنه يجب القول أيضاً بأن الدوافع الشخصية للأمير هي على الأغلب ضئيلة. ولكن وكما ذكر ناجون في تلك الليلة بأنه كان له مع والدته جدالات طويلة حول صديقة له استمرت صداقته معها على مدى سبع سنوات والتي كان مصراً على الاقتران بها، إلا أن الملكة إيشاواريا كانت تعارض زواج ابنها الأكبر من تلك الفتاة النيبالية الثرية ديفياني رانا ذات الروابط العائلية الهندية، وحتى إنه كان مهدداً بإبعاده بسببها عن ولاية العرش. ومن الواضح أن ذلك كان الأشد خطورة بالنسبة للعائلة المالكة مما

أدى إلى استنفاد طاقاته، فكان يهرب من أزمته بتعاطي المسكرات والماريجوانا، ومن الممكن أيضاً أنه كان يلجأ إلى الكوكايين بالإضافة إلى "مادة سوداء" لا اسم لها، وعلى هذا جاءت ردّة فعله عنيفة مثيرة للعجب في عنفها.

إلا أنه ولسوء الحظ أنه تمّ حدوث ذلك في بلاد فتية في نظامها الديموقراطي، حيث كان النظام الملكي فيها إنما يمثل مجرد مؤسسة رمزية لها احترامها. لقد رفض النيباليون ومن جرّاء هذه المجزرة الملكية إساءة الظن بولي عهدهم، ذاك الأمير المستحوذ على محبة الجميع والذي له مكانة في القلوب على أنه الأمير المرح والشاعر الهادئ، إلى درجة أن السلطات حاولت وبسذاجة تبرير الحادث أو تفسيره بأنه إنما هو مجرد خطأ حدث في إطلاق النار، حيث انطلقت الرصاصات تلقائياً من سلاح أوتوماتيكي. ومن ناحية ثانية، فبينما كان الأمير الذي نفّذ هذه المجزرة يصارع الحياة وداخلاً في غيبوبة؛ تمّ تنصيبه ملكاً على مملكة الهندوس الوحيدة في العالم، وتمّ إعلان عمه الأمير جيانندرا وصياً على العرش. وجاء تعليق في الصحيفة المحلية ذات المكانة "الكاثماندرو بوست" حول ضرورة الخروج من الأزمة التي أحدثتها تداعيات ذلك الحادث اللغز في يوم الجمعة حيث تقول: "إن ما حدث للمملكة هو مهم بالنسبة للشعب إلى درجة أن تكون تأثيراته محصورة ضمن القصر". لتغرق من ثم الصحيفة في صمت مهيب أمام اندفاعات حشود الباكين غير الموقنين بما حدث، والذين قاموا باجتياز بوابة القصر في كاثماندرو والرؤوس مطأطئة باحترام، وأكاليل من الزهر توضع إلى جانب رسم الزوجين الملكين اللذين تمّ توسيد جثمانيهما في وسط الطريق الرئيسة. وفي مشهد يذكر بحزن البريطانيين على الأميرة ديانا في العام 1997، قامت الجموع الباكية بإضاءة الشموع على جانب الطريق المؤدية إلى القصر، وكان البعض يبكي ويصلي بصمت في محاولة للتغلب على الصدمة لخسارة الملك الذي كان ينظر إليه، وعلى نطاق واسع، كمجسد لإله الهندوس فيشنو.

ولد الملك في نفس القصر الذي فيه اغتيل، وقد أصبح بيريندرا ملكاً على مملكة الهيملايين في العام 1972 وذلك بعد وفاة والده المفاجئ الملك مهاندرا،

وحكم كملك مطلق إلى العام 1990. وكان يتمتع بقدر كبير من الشعبية بين أتباعه خصوصاً بعد أن تخلّى عن السلطة المطلقة وأنشأ مملكة دستورية على النمط البريطاني والمتوافق مع مطالب الانتفاضة الشعبية في العام 1990. وتابع ممسكاً بزمام أمور الدولة الفقيرة التي عانت على مدى سنوات عديدة من الصراعات، بالإضافة إلى تمرد الماوتسيين (الشيوعيين).

كان الملك بيريندرا رجلاً لطيف المعشر وذا ملامح دقيقة وشارب ونظارات على عينيه، وكان معروفاً بإخلاصه وبوقاره. ولد في العام 1945 ويأتي العاشر في الترتيب الملكي على العرش النيبالي، ويعتبر المجسد لإله الهندوس فيشنو. وبالنسبة لتحصيله العلمي فقد كان الأول في مملكة النيبال الذي حظي بتعليم رسمي وبدرجة علمية جيدة إذ هو أمضى حوالى العقد في المدرسة اليسوعية في دارجيلينغ (الهند) وأعقبها بسنوات في كلية إيتون ذات المستوى العلمي المعتبر في إنكلترا، وحتى إنه أمضى بضع سنوات في جامعة طوكيو وسنة في جامعة هارفارد حيث درس العلوم السياسية.

وكان معروفاً بأنه الأفضل في الإصغاء باهتمام إلى مشاكل الإنسان العادي في نيبال أكثر من حرصه على تدبيج الخطابات الرنانة لإلقائها في المناسبات الرسمية. وكان ذا شخصية محبوبة من القرويين الذين كانوا وبحق من أكثر الناس فقراً في العالم. وفي كونه يحب الطيران، كان وبشكل معتاد يقود طائرة مروحية ليقوم بإمضاء وقت طويل في القرى عاملاً على حلِّ مشاكل عامة القرويين. وكان هدفه تخليص النيبال من الحالة الاقتصادية الصعبة التي كانت تغرق بها، إلا أنه رأى بأن هناك مهمة أصعب تتمثل في العصيان المستمر الذي يعلنه الماوتسيون في سبيل إلغاء الدستور الملكي وإقامة جمهورية شيوعية.

ونمضي قدماً لمتابعة الأحداث التي تتابعت بعد المجزرة المروعة، فقد كانت عملية تتويج جيانندرا ملكاً على البلاد تتم فيما كان الأمير ديبندرا غارقاً في

دمائه التي أسالها بنفسه. وإلى ذلك كان جيانندرا وبصفة عامة ينجح حيناً ويخفق حيناً في عمله. فقد كان يجري في محاولة لتأسيس قاعدة شعبية لنفسه وتلك عملية كانت تشق طريقها ببطء، بالإضافة إلى قيامه بجهود للحفاظ على البلاد من جهة بينما كان من جهة ثانية يقوم بإرباك ميزانية العائلة المالكة بفواتير باهظة التكاليف (وقد كان وكما يروى يمتلك حصة كبيرة في هيئة الكهرباء النيبالية العائدة للدولة حيث بلغت تلك الحصة أكثر من 10 ملايين Rs). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كان هناك جدل يثار حول ابنه. فذاك الملك الجديد جيانندرا إنما هو رجل أعمال مؤيد لقضايا الصين ثارت مزاعم حول ارتباطه بعمليات تهريب. وقد كان هناك فجوة بينه وبين عامة شعبه.

وقد أعلن وبصراحة بُعيد اعتلائه العرش في حزيران/يونيو 2001 بأنه لن يكون، ذاك الملك الصامت كأخيه. وقد أخذ وعلى نحو كبير بالقيام بجولات متتابعة شملت أنحاء البلاد، ملقياً الخطابات الرنانة المثيرة للمشاعر حول سياسته التي من أولوياتها مصلحة مواطنيه، معلناً في شباط/فبراير 2004 بأن "زمن المملكة التي ترى ولا تسمع.. قد ولّى".

ومهما يكن من أمر؛ فقد بدأ الناس يشككون بنواياه عند إعلانه زيادة موازنة العائلة المالكة زيادة بلغت الستة أضعاف، وعند قيامه بممارسات ترجمت نواياه بالاستئثار بالسلطة. إلى جانب ذلك فقد كان هناك كلام يثار حول اهتمامه بأعماله وبمشاريعه الخاصة والتي شملت فندقاً سياحياً في كاثماندرو، بالإضافة إلى توسعه في شراء أراض يُستنبت فيها الشاي في شرقي نيبال ثم معمل لصنع السجائر. وبعد ذلك كله يأتي إصلاح حال مواطنيه في المملكة.

لقد آلت إليه بلاد مضطربة بسبب ثورة أتباع ماو الفاشيين. وعوضاً عن محاولته البحث عن حلٍّ لمشاكل بلاده، قام بإقالة الوزارة المنتخبة في تشرين الأول/أكتوبر 2002. وما كاد ينقضي عام حتى انهارت محادثات السلام مع

المتمردين، فأعلن حالة الطوارئ في البلاد ممسكاً بزمام السلطة ومرسلاً الجيش لشنّ هجوم على أتباع ماو، ليمضي من ثم في تعيين سلسلة من رؤساء الوزارات، وذلك قبل إقالته للحكومة وإطباقه على زمام السلطة بكاملها في شباط/فبراير 2005.

ومن ناحية ثانية فقد كثرت الشكوك حول مشادات كلامية كانت تحصل بين الملك وابنه حول الظروف التي أحيطت بالمجزرة الملكية التي حصلت في القصر على الرغم من مرور سنين على وقوعها. وبعد مرور وقت طويل على ذرِّ رماد الملك بيريندرا والملكة إيشاواريا وأفراد العائلة على ضفاف النهر المقدس باجماتي، فإن الأسئلة الملحة ما تزال حاضرة وتتعلق بالأمير المتوّج بعد تلك المأساة، الأمير باراز شاه، وعن علاقته به والشبهات التي ثارت حول تورطه فيها. كان هذا الأمير يدعى بالخروف الأسود (شخص تافه من أسرة محترمة) في العائلة المالكة. وكان أبعد ما يكون عن شعبه. شابٌّ سكير، مقامر، زير نساء، ومتهور في قيادته إذ ارتبط اسمه بحادث سيارة ذهب ضحيته المغني الشعبي النيبالي، والذي كان الضحية الثالثة لتهور باراز في القيادة خلال أربعة أعوام. وحصل ذلك قبيل أشهر قليلة على الحادثة الملكية المأساوية. بالإضافة إلى ذلك فقد كان هذا الأمير معروفاً أيضاً في كونه مغرماً بالأسلحة النارية، وكان بالنسبة للعامة معروفاً بسوء أخلاقه وهذا وضعه في محل شبهة خاصة لأنه أصبح أقرب لارتقاء العرش بعد المجزرة التي حصلت في القصر، إذ أصبح ترتيبه الثاني في سلسلة وراثة العرش النيبالي. وعلى الرغم من ذلك، فإن جميع الناجين وضعوا اللوم بحق على الأمير ديبندرا، إلا أن الرجل العادي في الشارع كان يشير بإصبعه باتجاه ولي العهد باراز، ويرى

بأن من المرجح وبشكل كبير أن يكون قد زوّد ابن عمه بالمواد المخدرة التي حركت لديه رغبة في القتل، والذي عزّز رأيهم في الواقع أن الأمير ظهر وبشكل غريب غير مصاب بأذى من الحادث بأكمله.

إن الرجل العادي يجزم بأن رجلاً ثملاً إلى هذا الحدّ بالكاد يستطيع الوقوف، وكما كتب الكثيرون حول الأمير ديبندرا، فإنه ليس باستطاعته التصويب بدقة وقتل هذا العدد من الناس وهو تسعة وجرح عديد آخرين. والأبعد، فإنه من الممكن وإذا كان الشخص ثملاً إلى درجة كبيرة، وتحت تأثير المخدرات ألاّ يكون باستطاعته تقييد جسده بعدد من الأشخاص؟ وأسئلة تتوارد؛ لِمَ تمّ حرق جثته وذرّ رمادها قبل إجراء تشريح للجثة؟ ولِمَ لم يقم أحد من حراس القصر بالتدخل خلال المذبحة التي استمرت على الأقل خمسة عشر دقيقة؟ وما هي تلك "المادة السوداء" التي كان الأمير يتعاطاها كما قيل؟ وأيضاً هل من المعقول حقاً بأن الأمير الهندوسي التقيّ يقوم بارتكاب مجزرة يودي فيها بأهله جميعاً بسبب مجرد عدم الموافقة على زواجه؟ لقد كان ديبندرا في الثلاثين من عمره وقد حصل أن أصيب والده الملك بيريندرا مرتين بذبحة قلبية. فلِمَ لم ينتظر ديبندرا وببساطة إلى أن يصبح ملكاً ليتزوج بمن ينوي الزواج منها؟

والأكثر من ذلك كله، فإن الناس في هذا البلد يريدون تفسيراً لهذه المأساة الغريبة المرعبة وغير المسبوقة في بلادهم. فإن التوصل إلى إجابة لن يحدد الدافع وراء فعل ديبندرا ولن يبين كيف قتل هو نفسه، ذاك هو الجدل المستعر عند كل زاوية في كل شارع في ذلك البلد.

هذا وإن لأتباع ماو بالتأكيد رأيهم. فقد اعتبروا الهند مسؤولة عن عملية الاغتيال هذه كما اعتبروا الهنود مسؤولين لأكثر من ذلك من أخطاء أحاطت بالنيباليين في أيامهم الماضية الحديثة. وبالنسبة لهم فقد كانت الحكومة النيبالية الحالية متواطئةً مع الحكومة الهندية وكانت تعمل على إضعاف السلطات العليا النيبالية. فقد ذكرت بأن هناك "رجعية محلية ودولية" مسؤولة عن عملية الاغتيال. وفي الواقع، فإن بابورام بهاتاري قائد أتباع ماو، كتب مقالة لصحيفة الكيرتيبر، الصحيفة اليومية الإنكليزية النيبالية الواسعة الانتشار. ومنها يعلن بأن عمليات القتل هي جزء من عمل مشترك بين الهند وال- CIA تمّ تخطيطه للاستيلاء على نيبال. وقد ناشد الجيش النيبالي الملكي لتحويل إخلاصه للشعب النيبالي. وطبعاً فإن المقالة قوبلت بالاستهزاء، وتمّ إلقاء المحرر خلف القضبان.

وهناك رأي يلوم ويفظاظة العاهل الحالي الملك جيانندرا نفسه وذلك لجعله القاصر ملكاً لفترة محددة بلغت الشهرين في العام 1950 – 1951، وذلك عندما فرّ كلٌّ من ماهيندرا والده الذي كان ولياً للعهد حينها وجدّه الملك تريبهوفان، وأفراد من الأسرة بمن فيهم الأمير بيريندرا إلى الهند هرباً من الاضطرابات السياسية في الوطن، وكانت لهفته في تسلم العرش شديدة ليكون ملكاً. والطريقة الوحيدة لذلك وجدها بالتخلص من شقيقه ووريثه. وكما يعتقد البعض، فإن ذلك هو حقاً ما نفّذه. وكيف بالإمكان تفسير أن الوحيد الذي لم يكن حاضراً عند اجتماع العائلة المالكة هو جيانندرا؟ وأن ابنه الذي كان موجوداً هو الذي نجا بأعجوبة دون أن يصيبه خدش. وقد ذكر الأمير باراز أيضاً بأنه استحلف ابن عمه من أجل حياته. فهل من المعقول بأن شخصاً ثملاً بكل معنى الكلمة وفي حالة هياج تجعله يقتل والديه وأقربائه على نحو تام سيقوم بالإصغاء إلى منطق العقل وينقذ حياة إنسان؟!!

ولفهم أثر عملية الاغتيال العنيفة، على الواحد وضع حالة النيباليين في موضعها الصحيح. فمنذ ثورة العام 1990 – التي خفضت من بيريندرا ومكانته بتحويل حكومته إلى حكومة ملكية دستورية وجلبت ديموقراطية غير ملائمة إلى البلاد – استطاعت الحكومة النيبالية وبصعوبة إبقاء نفسها خارج الأزمات. كان هناك تغيير لعشرة زعماء خلال العشر سنوات الأخيرة وكانت

إدارة كل واحد هي أكثر فساداً من التي قبلها. وقد فعلت المقاومة الماوتسية فعلها العظيم في النيباليين الريفيين، وقيل بأنهم سيطروا على 75 ولاية في البلاد. وإنها لمنتهى السخرية لما أصبح يحيط بهذه المملكة الهمالانية الصغيرة: طبيعياً أرض محاطة باليابسة وشبه سيطرة إقطاعية، وتخوّف من استيلاء الماوتسية على الحكم، مما اقتضى أن تعمل الحكومة جاهدة على استمرار المملكة. هذا من جانب، ومن جانب آخر، كان هناك العديد ممن يؤيدون الثورة التي تقف في وجه الفساد، على الرغم من عدم موافقتهم على خطط الثوار الإرهابية.

لقد جاءت المجزرة في وقت كانت تشهد فيه نيبال الاضطرابات السياسية. لقد سيقت الحكومة إلى مستنقع الأزمات السياسية وطالبت أحزاب المعارضة باستقالة رئيس الوزراء كوارالا بسبب فضيحة مزعومة، ولعدم قدرته على السيطرة على تمرد الماوتسويين الذي تصاعد بعد وفاة الملك بيريندرا. وكانت هناك سلسلة من الهجومات على مراكز الشرطة التي قتل فيها العشرات، وتمّ اعتقال المئات. وقد شلّ الإضراب الذي شمل أنحاء البلاد بأكملها جميع المدن. وانهار وقف إطلاق النار الذي دام ثلاثة أشهر بين الحكومة والماوتسيين، واستمرت حرب العصابات ضد رجال الشرطة، والجنود والبنوك والسياسيين الرجعيين في كل المدن. والآن ولأول مرة أعلنت حالة الطوارئ وتحرك الجيش النيبالي الملكي للدخول في حرب مباشرة ضد الجيش المقاوم مستخدمة ما يسمى الجماعة المحاربة.

إن هذه الإغارات من قبل الجماعة المحاربة شُنَّت لتحتجّ على قانون الحكومة الجديد بخصوص التدابير المتخذة لحماية الأمن (حيث سنّت الحكومة قانوناً جديداً بعد عملية اغتيال الملك بيريندرا، قانون أمن عام، والذي يمنح السلطة قوى شاملة للقبض على أو احتجاز كل شخص يرى بأنه يهدد الأمن القومي). وقبل أيام فقط قام اللواء السابق في الجيش قائد فرقة R.N.A.

بإصدار تهديد ينذر بالسوء مفاده أن البلاد ربما هي في طريقها إلى حرب أهلية، وأن نيبال، ربما ستكون مرغمة لاستدعاء قوى لحفظ الأمن لإنقاذ البلاد.

وفي الواقع، فإن معاهدة الصداقة بين الهند ونيبال عام 1950 تضمنت تدابير وقائية أمنية حيث تجاوبت نيو دلهي مع طلب كاثماندرو في مساعدة عسكرية. وكما جاء في تقارير نشرة الأخبار، أن الهند قامت سابقاً بنشر جيشها على طول الحدود الهندية – النيبالية غرباً، حيث كان الماوتسويون في أعنف حالات تمردهم، وحيث تكون قواتها المسلحة التي تأتي الثالثة في الترتيب بين الدول في محيطها مرابطة دائماً على مسافة خمسة كيلومترات من الحدود النيبالية – الهندية وبمعدل 40 جندياً عند كل مركز.

وقد قام رئيس الوزراء ديوبا المختار من قبل الملك محلّ مجلس النواب، وتمت الدعوة إلى اقتراع جديد في تشرين الأول/أكتوبر 2002. ومستفيداً من تأجيل الانتخابات في الدقائق الأخيرة من قبل ديوبا، قام الملك جيانندرا بإقالة حكومته، مستولياً على مقدرات السلطة التنفيذية، معلناً نفسه الملك المطلق على القوى المسلحة البرية.

إن محاولة جيانندرا الاعتباطية لاستيعاب الأزمة برهنت أنه كان مخطئاً في تقديراته. واليوم وما كادت تمضي سنة على وضعه حداً للنفوذ وحلّه للحكومة، بقي الملك في مملكته تحت الحصار. وقد تنكّر له بصورة قطعية حلفاء سابقون، وهو الآن يواجه تحالفاً جديداً بين المتمردين الماوتسيين (بعدها وعد الماوتسيون بالتوقف عن قتل عمال الأحزاب والسياسيين) وبين الأحزاب السياسية السائدة الذين عدّوا مخططاته في استرجاع الديموقراطية كمسرحية هزلية.

والآن أصبحت نيبال مركزاً للاهتمام حتى في أقصى واشنطن، حيث كان الرسميون يرقبون ويتوتر دولة تعمها الاضطرابات، ولها موقعها الاستراتيجي

الحساس بين الصين والهند. وقد توقفت كل من الولايات المتحدة والهند عن تسليم الأسلحة إلى نيبال في جهود لتمكين جيانندرا من تسوية المسائل مع الأحزاب السياسية الرئيسية. الذين ظلوا على تعنتهم في مواقفهم... بينما كان الملك مصراً على ضرورة لَيِّ أذرعتهم لبسط النظام الديموقراطي، كانت الأحزاب تعتقد بأنه ليس في نيته تسليم السلطة إلى الفئة التي يتم انتخابها.

وقام جيانندرا أيضاً بالسفر إلى دول أفريقية عديدة، مثيراً شكوكاً حول أمور محتملة استطلعها حوله، لإيجاد مكان آمن فيما إذا ساءت الأحوال بالنسبة له في بلاده. وطبعاً فكان اعتقاد الثائرين أنه كان ربما يحوّل مبالغ مالية إلى الخارج سراً، وذلك في حال احتياجه إلى ضرب الانقلابيين المتهورين.

وكان لوزير الخارجية ادعاءات جاءت بمثابة ترّهات وذلك عند تأكيده على ضرورة انفتاح الملك على الأحزاب السياسية كمخرج للأزمة الحالية. وهو يقول: "ليس هناك من اختلاف حول التعددية الديموقراطية للأحزاب وإنما الاختلاف الوحيد هو حول المنهج".

وربما اختصر الصحفي الشهير كاناك ديكست ذلك كلّه لكل شخص عند قوله: "كانت السنة الأخيرة سنتنا في معرفة الملك، ولم يكن يحلو لنا ما كنا نلحظه. فتلك المؤسسة يجب أن تكون على نحو أفضل إذا ما تم الاهتمام بها أكثر. أو أنها ستنهار بسبب الجالس على العرش فيكون الملك حينها هو من سيبرع أكثر في تدميرها".

وبلغت ذروة السخط في نيبال في الرابع والعشرين من نيسان/أبريل 2006، وبعد تسعة عشر يوماً من الاحتجاجات وما يدعى "التحرك" من قبل الشعب، أعلن الملك بأنه قد أخطأ. وقد كان ودوداً في كلماته إلى شعبه حيث قال:

"السلطة التنفيذية في مملكة نيبال... للمواطنين". وحتى إنه كلف الأحزاب الرئيسية السبعة في اختيار رئيس الوزراء وهو المركز الذي تخلص منه عند اغتصابه للسلطة قبل سنة ونيف. ولكن لم يكن هناك ذكر لإجراء أي تغييرات في المؤسسات التي من الممكن أن تحول دون استيلائه على الحكم مرة ثانية أو حتى إخضاعه للقيادة ذات النفوذ في الجيش الملكي النيبالي. وكانت تلك هي مطالب معارضيه والمواطنين في نيبال الذين كانوا يطالبون بها منذ وقت طويل.

ومهما كان الأمر، فإن الملك إنما هدف بذلك إثارة سخط الشعب. لقد تصور الشعب بأن الملك بدا مغروراً، ولم يقدم اعتذاراً على مقتل الأربعة عشر معارضاً، الذين قتلوا خلال أيام المظاهرات. وعوضاً عن ذلك أبدى الملك إعجابه بعمل قوات الأمن في تعاطيهم الفعّال في المظاهرات. "نحن بائسون من تصريح الملك". قال ذلك شاب في السابعة والعشرين من عمره وهو طالب في جامعة مادان شولاغين، معبراً عن الحالة السائدة في البلاد. "نحن لسنا بحاجة إلى تعيين رئيس وزراء ولكن من أجل الديموقراطية الحقيقية. إلى أن نحصل عليها. سوف نعود إلى الشارع كل يوم". إن غطرسة الملك هي واضحة من خلال الكلمات التي تضمنتها لوحة الإعلانات التي تمّ نصبها. وهي تقول: "إن جلالة الملك لا يبحث عن شعبية رخيصة". إن خطوة كتلك تبرهن عن بعض تصوراته الفاسدة وهي فقط تجعل الناس أكثر غضباً.

"أيها الملك جيانندرا غادر البلاد، أو أننا سنقوم بقتلك".

بذلك نادى المعارضون، والشعب موحد في رغبته في الحرية. وقد بدأ الشباب في نيبال يشعرون بأن نيبال بدأت بالعودة إلى الوراء بينما بقية أجزاء العالم تسير باتجاه التصنيع والتطور. ففي هذا القرن الواحد والعشرون، فإن

نيبال ليست بحاجة بعد إلى ملك إله، وخمس وعشرون مليوناً من النيباليين يحسون بنفس الشعور. وفي الحقيقة، فقد برز الشعب النيبالي كقوة مركزية في مملكة الهندوس الصغيرة. وها هي القوة الرابعة الآن عازمة على الإطاحة بالقوى الثلاث الأخرى وتجريد القوة بتمامها من المملكة التي تعيش على رأس القضايا على مدى ما يقارب ثلاثة قرون.

لقد كان الملك الهدف الأساسي في ثورة أبناء البلد بسبب اغتصابه للسلطة بكليتها كديكتاتور مؤيد من قبل الجيش. وكان تعهد في الوصول إلى تفاهم مع الثائرين والتخلص من الفساد في الحكومة، وعوضاً عن ذلك وضع الآلاف من السياسيين والمنادين بحقوق الإنسان والفاعلين والطلاب وراء القضبان بينما استمر الماوتسويون في إرهابهم.

"إذ هو يعتقد بأن عليه تولي السلطة، أو علينا أن نكون كلنا ماوتسويين من الآن". قال ذلك صديق للعائلة المالكة. "لكنه مخطئ في حساباته. ليس لديه من دعم". قال ذلك كين أوهاشي، الموظف الأعلى في البنك الدولي في نيبال واصفاً التنازل عن الملكية كأنه "سيناريو يوم القيامة"، فليس هناك ما يوحي بتكوين حكومة جديدة إذ ليس هناك برلمان. ليس هناك من أحد لإصدار أوامر للجيش. بإمكان الماوتسيين الهجوم على كاثماندرو بسبب التقصير". وأقل ما يمكن، يقول صديق العائلة المالكية: "إن الانفراد بالسلطة سوف يتحول إلى فوضى. نحن لدينا النظام الملكي على مدى 237 سنة. هل من المعقول إلقاؤهم في الخارج".

إن معضلة النيباليين قد اختصرها طالب نيبالي شاب "إن كلاً منا لديه مبادئ الديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان التي يستشعرها في داخله. إلا أن ذلك هو مستحيل تحقيقه في ظل حكم استبدادي. سوى من خلال الإطاحة بالملك، نحن ننادي بذلك. ولكن ليس بإمكاني التأكد من حصول ذلك".

وبعد أربع سنوات من تعطيل البرلمان النيبالي، اجتمع البرلمان بعد الوقوف دقيقتين صمت إحياءً لذكرى مقتل المتظاهرين الذين قتلوا أثناء أسبوع الاحتجاج الدموي ضد الملك جيانندرا. وغنيّ عن القول بأن الجلسة الأولى انتهت بعزم شديد، عزم في عقد سلم مع الثائرين الماوتسيين الذين قاتلوا على مدى عقود من أجل دولة شيوعية لتأسيس مجلس نواب يقوم بعد ذلك بإعادة صياغة الدستور لإعطائهم الحرية في تقرير مصير الملك الفاقد للقاعدة الشعبية.

إلا أن المعضلة الكبرى التي كانت تواجه رئيس الوزراء المستعاد كوارالا هي كيفية إجراء اتفاقية مع الماوتسيين. ويبدو أن الثوار هم الوحيدون الذين لم يكونوا مرتاحين لانتهاء موجة الاحتجاج. وفي الواقع، سيكونون، ربما، الأسعد عند رؤيتهم المتظاهرين الديموقراطيين السابقين وقد اخترقوا القصر الملكي. إن الزعماء الماوتسيين الذين استعملوا العنف (Nom-de-guerre Prachanda) قالوا بأن الأحزاب السياسية قامت بارتكاب "خطأ تاريخي فاضح" بإنهائها حركة الاحتجاج.

وقد قام الملك جيانندرا بالدفاع وبقوة عن طريقة تعاطيه في موضوع الاضطرابات التي شهدتها البلاد. وقال في خطاب بثّته المحطة التلفزيونية بأن "الغيوم السوداء" قد تبددت وأن "عملية إعادة إحياء الديموقراطية، الحزبية قد بدأت الآن" واعداً بإجراء انتخابات نيابية في العام 2007.

"إن الملك الذي تحدث لمصلحة حكومة ملكية دستورية وديموقراطية، تصرف عملياً، كمستبد من القرن الثامن عشر" قال ذلك تيشنو مناندهار، السكرتير العام للحزب الشيوعي في نيبال (الموحد)، أحد أكبر الأحزاب في البلاد، متحدثاً من خلف البوابة الحديدية في أماكن الاعتقال المؤقتة حيث كان محتجزاً مع مئة آخرين.

وقد شهد أوائل شهر حزيران/يونيو 2006 تجمعاً للثائرين بلغ تعدادهم 200.000 ثائر في ميدان الشهداء هاتفين: "تريد التخلص من النظام الملكي" وهادرين "تريد دولة جمهورية". وأيضاً فإن الثوار الذين ساعدوا على طرد حكومة جيانندرا الفاشستية في نيسان/أبريل كانوا يريدون مجلس نواب خاصاً لإعادة صياغة الدستور، والحد من نفوذ الملك.

وانطلقت شرارة التظاهرات بسبب انتشار قوات الجيش في مختلف المدن لقتال الثائرين. وقال المتحدث باسمهم "إنه الانتهاك لدستور الحكم الذي التزموا برعايته والذي سيؤدي إلى العودة إلى إدخال البلاد في حرب. إن الحكومة تحاول دفع البلاد ثانية للصراع". ويقول متابعاً بأن الحكومة هي التي كانت تحاول إعادة المجالس القروية القديمة في المناطق حيث قام الثوار سابقاً في حلّها. إن جماعات الحكومة عادوا أيضاً إلى الشوارع للحراسة، محصنين الطرق العامة بنقاط تفتيش، وحتى مثخنين الثوار ضرباً.

وليس هناك من شك بأن عدم الاستقرار السياسي تعاظم في عهد جيانندرا، قامة متجهمة ومتحفظة عادة ما كانت تظهر في زي عسكري. إنه الملك الذي لا يشبه حقاً أخاه القتيل. وهناك نتيجة بالإمكان استخلاصها من مجمل الأحداث؛ إن الحدث الأكثر بلاغة والذي جاء نتيجة لاغتيال بيريندرا هو مجيء جيانندرا كملك ثان على نيبال. هو الأسوأ من قادة البلاد في وقت كانت هي بحاجة إلى عاهل لديه الرغبة في الاستماع إلى تذمر الشعب والشعور بنبض قضاياه. وان بيريندرا، العاهل الحكيم، كان قد آمن وبإخلاص وبحصافة بالمملكة الدستورية، على الرغم من النصائح التي جاءته من الوسطاء لتقوية سيطرة المملكة لقمع الالتفاف التمردي الماوتسي.

ولكنه عوضاً عن ذلك، وعند صعود جيانندرا على العرش، قام بإعلان ثورة ملكية لأن الإدارات المتتابعة لم يكن لديها فعاليات الثوار. إن الثوار الماوتسيين زادوا من حملات عنفهم من أجل حاكم جديد. وبعد الثورة الملكية،

فإن الإطار الثوري أظهر نشاطاً مجدداً ظهر واضحاً مع تصاعد الحملات ضد أهداف الحكومة والقتال العنيف مع قوات الأمن. كل ذلك كان بمثابة برهان، على التدابير الاستبدادية لجياننردا والوعود الكاذبة التي لم تقد نيبال إلى أزمات أكثر عمقاً فقط، إلا أنها بالإضافة إلى ذلك قوّت من عزيمة الماوتسيين، وعرّضت مكانة نيبال للشبهة بين دول العالم.

ومع ازدياد الاضطرابات في معظم مناطق البلاد، فإن تساؤلاً يتبادر إلى الأذهان: كيف كانت الأمور لتسير باتجاهها الصحيح لو أن الملك بيريندرا لم يقتل. هل كان بإمكانه التوصل إلى إيجاد حلٍّ سلمي بالنسبة لمطالب الماوتسيين؟ ربما كانت الإجابة ب. "نعم". وربما كان هو تنازل تحت ضغوطهم وتخلّى عن حقوقه، تماماً كما فعل في العام 1990. ولكان سمح بإعادة صياغة الدستور، مقلصاً نفوذه. ولكنه طالما أنه لم يكن جزئياً متغطرساً كأخيه، فإن الماوتسيين لم يكونوا ليقوموا بالاندفاع باتجاه تقليص نفوذه بالكامل. ولكان هناك ربما انتخابات عادلة، مع فوز للماوتسيين بعدد عادل في المقاعد لتشكيل جزء من الحكومة.

إلا أن هذا لم يحدث. وبالنسبة لتطور أبعد في هذه البقعة الصغيرة من العالم، فإنه بإمكاننا الانتظار والترقب.

فرانز فرديناند

لقد كان وصف مارك توين مناسباً في تبريره لنزعاتنا للحروب والتدمير إذ يقول: "يبتدع رجال الدولة أكاذيب رخيصة عند شنهم الحروب، واضعين اللوم على الشعوب التي هوجمت، ويكون كل رجل مرتاحاً إلى أضاليله التي يصدقها لإراحة ضميره، ويقوم بتعليلها، رافضاً دحضها. لذا فهو شيئاً فشيئاً يقنع نفسه بأن الحرب كانت مشروعة ومحقة".

إن الحرب الكبرى التي عرفت باسم الحرب العالمية الأولى، والتي لا سابقة لها بما أحدثته من مجازر وأشلاء ودمار، تمثِّل وصف توين: "إن الشعوب وللأسف قد تعلمت القليل من الحروب المرعبة السابقة. وفي القرن الواحد والعشرين نحن نواجه انقساماً في العالم على قاعدة دينية مذهبية وذلك لم يشهده العالم من قبل. إن لوردات الحرب الشرسين يطالبون بصخب بدم

البشر".

كانت أوروبا، ومع بداية القرن العشرين، تغلي كالمراجل غضباً لتأكيد الحقوق، إثنياً وعرقياً ودينياً ومن أجل تأكيد هوية الشعوب. أضف إلى ذلك تأجج المخططات الاستعمارية الممتدة في آسيا وأفريقيا المترافق مع الكثير من الدسّ حول اللاسامية والتي برهنت على كونها مأزقاً مميتاً.

وبقي العالم بعد جنون الغزو الاستعماري وبلايا جنكيز خان، بقي في انتظار كوارث أخرى. وجاء مع بداية القرن العشرين جشع الإنسان الذي بقي مستشرياً كما نلمح كارثة الحرب العالمية العظيمة التي تجلّت للعيان تدريجياً على امتداد مساحة أوروبا.

كانت القوى الأوروبية مشغولة مع بدايات القرن العشرين بتأسيس تحالفات لاتفاقيات بعدم الاعتداء. وكانت تعتقد بأن ذاك إنما هو رادع يمنع الصراعات. فكل دولة تمت حمايتها من قبل الأخرى، لجعل شن حرب من قبل الآخرين عليها بمثابة مغامرة على الأغلب. ومهما يكن من أمر، فإن الحقيقة أنه ما من دولة أوروبية لديها ثقة بالأخرى. وكلٌّ منها لديها طموحاتها العسكرية الضمنية البعيدة المدى، وليست من واحدة إلا لديها رغبة في لعب دورٍ مصيري لدى الدول الأخرى. وعوضاً أن تكون وجهتها في تكوين روادع سلمية؛ فإنها برهنت العكس بالتحديد، حيث أقحم الأجيج المستعر بين دولتين دولاً أخرى عديدة في ذاك الصراع.

إن التسابق في التسلح البحري الذي تطور بين بريطانيا وألمانيا أخذ يشتد في العام 1906 بسبب قارب من بارجة حربية، واشتعلت معركة بحرية حامية الوطيس أسقطت من الحسبان ما سبق من معارك بحرية تاريخية. وكانت

الهيمنة أساسية في تلك الحقبة من التوسع الاستعماري. لم يكن من السهل إخضاع ألمانيا، التي وضعت خطة تريبتز Tripitz Plane والتي أدّت ببريطانيا إلى الدخول في حلف ثلاثي Triple Entente مع روسيا وفرنسا. وقامت ألمانيا بتمويل أسطولها بالمزيد، لصنع هذه السفن في محاولة لتسبق بريطانيا في هيمنتها على البحار.

كانت فرنسا ما تزال تستعيد عافيتها بسبب انتقال إقليم "الألزاس لورين" إلى ألمانيا خلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر. إن طبيعة ألمانيا العدائية التي أظهرتها في خطة تشليفن Schlieffen زادت من أجواء عدم الثقة. رسمت تلك الخطة استراتيجية ألمانيا الحربية مع كلٍّ من فرنسا وروسيا. وفوق كل ذلك فإن خطط ألمانيا الحربية، أدت إلى تصعيد الصراع بشكل تلقائي مع كل من فرنسا وروسيا.

وبغضّ النظر عما سبق، فإن العامل الإمبريالي عزز من توريط القارة الأوروبية عندما سارت باتجاه دمارها الذاتي، وبينما كانت بذور الديموقراطية تغرس في تربة الولايات المتحدة بفعل الثورة الأميركية، كانت أوروبا ترزح تحت وطأة الحكم الأرستقراطي وحكم النخبة العسكرية كما في ألمانيا والنمسا وأيضاً روسيا. وكانت قد بدأت الحركة الاجتماعية الديموقراطية تمارس ضغوطها على الأرستقراطيين في أنحاء أوروبا. وكانوا يأملون بأن الانتصار سيعيد توحيد بلادهم بواسطة دمج الزعامات الأهلية. وكانت رغبتهم في قوة عسكرية وازدرائهم للديموقراطية إنما وسيلة لجمع غيوم الحرب التي كانت تحوم في سماء أوروبا. يحدوهم إلى ذلك قومية في غير محلها محركين الجموع المحمومة بادعاءات في رقي حضاري عام ومصالح بوصفها مغايرة لتلك التي عند الشعوب الأخرى. لقد شهدت نهاية الحرب الكبرى تخلي معظم الحكام الأرستقراطيين ونهاية الهيمنة العسكرية ولكن فقط لتستبدل بديكتاتورية

أدت إلى انفجار الحرب العالمية الثانية على رؤوس البشر.

لقد غيرت الإمبريالية، تغييراً كبيراً، وجْه الكثير من القوى الأوروبية عندما سلبت مستعمراتها. وبعد تجميعهم لثرواتهم من مصادر غير مشروعة استطاعوا ادخار رأسمال للقيام بالثورة الصناعية. كانت الشعوب الأوروبية تتنافس فيما بينها لإخضاع عددٍ كبيرٍ من الشعوب تحت نير استعمارها. وبعد امتلاك فرنسا وإنكلترا للعديد من المستعمرات في أفريقيا وفي آسيا. قررت كل من ألمانيا وإيطاليا تشكيل إمبراطورية استعمارية أيضاً. ما أدّى هذا كله إلى إثارة صراع عسكري وشيك.

لقد كانت أوروبا على شفا فاجعة. وأن القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير انفجار أزمة البلقان. وبالنسبة للبلقان فهي كلمة تركية وتعني "الجبل". ويشمل البلقان معظم شرق الجزر الجنوبية الكبيرة الأوروبية الثلاثة وتشمل دول سلوفينيا، كرواتيا، بوسنيا وهيرزيجوفينا، صربيا ومونتينغرو، مقدونيا، ألبانيا، بلغاريا، رومانيا، ومولدوفا. إن التنوع الإثني كان أكثر ما يميّز السمات الاجتماعية والسياسية في هذه المنطقة.

وعند نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين فإن الحرب المركزة بين النمسا وهنغاريا وصربيا كانت توصف بأنها حتمية نظراً للموقع المتدهور للنمسا وهنغاريا عالمياً والحركة الانفصالية بين الألبان – السلاف في البلقان.

إن تنامي الإحساس السلافي بالإثنية تزامن مع نمو صربيا وانحطاط الإمبراطورية العثمانية. وقد أعطى ضعف الإمبراطورية العثمانية وتبددها الفرصة للحركات السلافية التحررية التي تمّ قمعها لفترة طويلة في المناطق مثل بلغاريا ورومانيا وصربيا. وعلى مدى خمسة قرون كانت تركيا تمسك

بزمام السلطة على البلقان، مدعمة الحرب الكوسوفية في العام 1389 التي أخضعت الصرب على مدى أراضي النفوذ العثماني، والآن فإن ضعف الأتراك المتزايد ساعد على انتعاش آمال النمسا في إرجاع نفوذها على أرجاء أوروبا الشرقية.

ومن ناحية ثانية، فإن الإمبراطورية الروسية أيضاً، دعّمت حركة السلاف الشاملة بدافع مناصرة الإثنية وبسبب عدم رضاها عن النمسا لخصامها معها بسبب حرب الكريمين Crimean.

ولنتوقف قليلاً للقول بأن الذي أشعل أخيراً الحرب العالمية الأولى كان اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند، وريث العرش النمساوي.

ففي الثامن والعشرين من حزيران/يونيو في العام 1914 وفي الساعة الحادية عشر تقريباً تمّ اغتيال فرانز فرديناند وزوجته في سيراييفو عاصمة بوسينا هيرزيجوفينا بالقرب من جافريلو برنسيب. الحدث الذي عرف بالاغتيال الذي حدث في سيراييفو فجّر الحرب العالمية الأولى التي تورطت فيها 32 دولة. 28 دولة من بين تلك الدول عرفت بالحلفاء والقوى المشتركة التي شملت فرنسا، بريطانيا العظمى، إيطاليا، روسيا ثم الولايات المتحدة مقابل تكتل عرف بالقوى المركزية وتتألف من النمسا، هنغاريا، بلغاريا، ألمانيا وتركيا.

من هو الأرشيدوق فرانز فرديناند ولماذا اغتيل؟! والإجابة عن هذا السؤال إنما يشكل مركز الطرح الذي نحن بصدد البحث فيه عند سبرنا لأغوار الأحداث التاريخية التي لا تحصى والتي قادت إلى اغتياله.

ولد فرانز فرديناند في 18 من كانون الأول/ديسمبر عام 1863 في غراز في النمسا. وكان الابن الأكبر للأرشيدوق كارل لودفيغ، شقيق إمبراطور هابسبورج فرانز جوزيف على العرش المساوي – الهنغاري.

تمّ تأسيس الإمبراطورية النمساوية – الهنغارية في العام 1867 عقب هزيمة النمسا في الحرب النمساوية – الإيرانية في العام 1866 التي سببت في إبعادها من الاتحاد الكونفدرالي الألماني. ومن ثم فقد حاول الإمبراطور فرانس

جوزيف إعادة تحريك سياسته باتجاه المشرق كما أنه حاول التقرّب من الثوار الهنغاريين. ومع تأسيس الإمبراطورية النمساوية – الهنغارية ذات السبع والخمسين مليون نسمة، أحرزت هنغاريا استقلالاً ذاتياً محلياً كاملاً. وبالمقابل وافقت على كون الإمبراطورية لها أسسها الراسخة كدولة عظيمة متفرّدة في الأعمال الحربية وفي مجال السياسة الخارجية.

كان فرانز فرديناند يخدم آنئذٍ في الجيش برتبة ملازم ثانٍ عندما تغيرت حياته في عام 1889 بشكل دراماتيكي، حيث عمد ابن عمه رادولف، ولي العهد، إلى الانتحار تاركاً الأرشيدوق كارل لودفيغ كوريت أول وريث للعرش. ومن حينها تمّت تهيئة فرانز فرديناند ليكون الخليفة. وبوفاة والده في العام 1896 أصبح فرانز فرديناند الوريث للعرش النمساوي الهنغاري.

وعلى الصعيد الشخصي فإن رغبته في الزواج من صوفيا، الكونتيسية فون شوتيك، وصية الملكة، وضعته في صراع مع الإمبراطور والقصر معاً. وفقط وبعد تخليه عن حقوق أولاده بولاية العرش، تمّ السماح له بالزواج غير المتكافئ (زواج النبيل من المرأة من عامة الشعب) وذلك في العام 1900. وقد أنجبا أربعة أولاد من هذا الزواج.

وعلى صعيد العلاقات الخارجية، فقد حاول وبعيداً عن تعريض التحالف مع الألمان للخطر، استعادة التفاهم النمساوي الروسي. وبالنسبة لوطنه فقد فكّر فرانز فرديناند بإصلاحات سياسية من شأنها تقوية مكانة العرش الهابسورغي وإضعاف مكانة المجري مقابل القوميات الأخرى في هنغاريا.

إلا أن القوميين الهنغاريين عارضوا تأييده للسياسات الليبرالية التي أضعفت السيطرة المجرية في المملكة الهنغارية. وقد كان كلا الداعمين والمعارضين في الهيئة الحالية في الإمبراطورية مشككاً في وجهة نظره حول سيطرة الكروات على الثلث في المملكة السلافية التي تضم البوسنيا وهيرزيجوفينا. وكان ذاك بمثابة خط دفاع ضد ما كان يدعى بالتحررية الوحدوية الصربية.

وقد كانت ترتيباته قائمة على إدراك بأن أي سياسة قومية تسعى وراء مذهب واحد من مذاهب الشعب فإنها تعرض الإمبراطورية المتعددة الجنسيات في هابسبورغ للخطر. إن صلته بفرانس جوزيف كانت تثار من خلال ضغطه المتواصل على الإمبراطور الذي، وفي قادم أيامه، ترك تلك الشؤون ملتفتاً للاهتمام بشؤونه الشخصية، ولكن ليمتعض بشدّة من أي تدخل في امتيازاته. ومنذ العام 1906 وصاعداً أخذ تأثير فرانز فرديناند يتنامى في الأمور العسكرية، وفي العام 1913 أصبح فرديناند المفتش العام في الجيش.

وعلى الرغم من أن فرانز فرديناند كان ينظر إليه خارج ألمانيا على أنه قائد "فريق الحرب" ضمن النمسا – هنغاريا، إلا أن ذلك كان عارياً عن الصحة. وفي الواقع، فإنه كان أحد القياديين المؤيدين للحفاظ على السلام من الحكومة النمساوية – الهنغارية أثناء كلتا الأزمتين – الأزمة البوسنية في العام 1908 – 1909 التي كان سببها ضم البوسنة وهيرزيجوفينا من قبل النمسا – هنغاريا، وأيضاً حروب البلقان في الأعوام 1912 – 1913.

كان القتال في حرب البلقان الأولى بين أعضاء التحالف بقيادة صربيا، بلغاريا واليونان ومونتينغرو ضد الإمبراطورية العثمانية في ربيع العام 1912. وكان هدفها الاستيلاء على مقدونيا من تركيا.

إن الانتصارات التي أحرزها الحلفاء في البلقان على العثمانيين كانت باهرة. ففي ثريس، استطاع المقدونيون إيقاع الهزيمة بالقوى العثمانية الرئيسية. وفي مقدونيا، أحرز الجيش الصربي انتصاراً عظيماً. وكان انهيار تركيا ساحقاً بحيث إن الأتراك كانوا يرغبون في إبرام اتفاقية هدنة في الثالث من كانون الأول/ديسمبر العام 1912. كان قد بدأ الاجتماع من أجل السلام في لندن، إلا أنه وبعد الانقلاب من قبل الشباب الأتراك في كونسنتساتنوبل في كانون الثاني/يناير العام 1913 عادت الحرب من جديد؛ ومرة ثانية فقد كان الحلفاء هم المنتصرين: حيث آلت أيوانينا إلى اليونانيين، وأدريانوبل إلى البلغار. وبسبب معاهدة سلام تمّ توقيعها في لندن في الثلاثين من أيار/مايو 1913 خسرت الإمبراطورية العثمانية معظم المناطق الأوروبية المتبقية، بما فيها مقدونيا وألبانيا. وتمّ التأكيد على استقلال ألبانيا من قبل القوى الأوروبية، وتمّ تقسيم مقدونيا بين الحلفاء البلقان.

بدأت حرب البلقان عندما تنازع كل من الصرب واليونان ورومانيا مع بلغاريا على تقسيم الأراضي التي استولوا عليها معاً في مقدونيا. وتمّ انهزام البلغار، وتبع ذلك معاهدة سلام تمّ توقيعها بين المتقاتلين وذلك في العاشر من آب/ أغسطس العام 1913. وتحت شروط المعاهدة عمدت اليونان وصربيا إلى تقسيم معظم مقدونيا بينهم تاركين لبلغاريا منطقة صغيرة من تلك البلاد.

وقد كانت النتائج السياسية المهمة للحروب خيبة أمل وبلغاريا، المخيبة للأمل في مقدونيا، وتطلعت إلى النمسا للدعم، بينما نظرت صربيا، والتي تمّ إجبارها من قبل النمسا على التخلي عن الأراضي الألبانية المنتزعة، إلى فيينا بعداوة أكثر من أي وقت مضى.

ودعونا الآن نستخلص الأسباب التي أدت إلى اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند.

فبعد الحرب بين روسيا وتركيا في العام 1878 تمّ إعطاء الإمبراطورية النمساوية الهنغارية الانتداب تفويضاً بالإشراف على الأراضي البوسنية والهيرزيجوفينا. إلا أن صربيا كانت غير مرتاحة إلى حدٍّ كبير لأنه لم ينته÷ إليها هذا التفويض المعطى للنمسا طالما أن نصف سكان بوسينا وهيرزيجوفينا كانوا من أصل صربي. وبسبب ذلك، عملت ما في وسعها لنشر ما هو ضد الدعاية النمساوية، وطالبين استدعاء جميع سكان الجنوب السلاف، وأيضاً الصربيين والكرواتيين والمسلمين على السواء للتجمع تحت راية شعب واحد. وقد شعر العديد من البوسنيين الصرب برغبات قومية قوية في أن يلحقوا أقاليمهم القديمة بأقاليم هؤلاء الإخوة الصرب عبر النهر في صربيا.

وقبل اغتيال فرديناند بسنوات قليلة أصبح الصراع بين النمساويين الهنغار وسكان جنوب السلاف عادياً وأخذ التوتر بين الجانبين يزداد وشعر المسلمون والكروات والصرب على السواء بضغط من قبل الحكام الغرباء؛ وصارت

المشاعر القومية إلى ازدياد.

وضمن ظروف عدائية، طلب الجنرال أوسكار بوتوريك، حاكم البوسنية من الأرشيدوق القيام بزيارة. وزيارة كهذه ستكون سبباً لوضع ثقة الكروات والآخرين من غير الصرب من الجماعات الإثنية في النمسا والقليل في الصرب. وقد حصل شيء من هذا القبيل عندما قام الإمبراطور فرانز جوزيف بزيارة سيراييفو في العام 1910. وبالنسبة للغالبية، فقد كان فرانز فرديناند مرحباً به بحرارة من قبل البوسنيين. ولم تظهر سيراييفو كإقليم معادٍ.

ومن موقعه وقدراته كمفتش عام في القوات المسلحة قبل فرانز فرديناند دعوة الحاكم البوسني في تفقد المناورة العسكرية التي أقيمت خارج سيراييفو.

وفي الثامن والعشرين من حزيران/يونيو كان بانتظار سيارة فرديناند سبعة مساعدين لمرافقته أثناء مروره على طول الطريق ويدعون بـ Appel Quay. وقد كانوا قد أعطوا السلاح في صربيا من قبل تنظيم يدعى "اليد السوداء". وكانت هناك محاولات أولية للقتل إلا أنها لم تكن فاعلة؛ إلا أن جافيرلو برنسب تمكن من إطلاق رصاصتين على السيارة الإمبراطورية مردياً فرانز فرديناند وزوجته صوفيا قتيلين. لقد كان معظم زملاء برنسب المساعدين من الصرب وآخرين من المسلمين واثنين من القتلة اللذين تطوعا لمساعدتهم في تهريب الأسلحة. وكانا رفاق أيام الدراسة.

وخلال استجواب برنسب، وجدت الشرطة بأنه لم يكن يعمل تماماً لحسابه، بل كان عضواً في جماعة متآمرة، تساعدها جماعة قومية صربية سرية تدعى "اليد السوداء".

وقد أوصلت عملية قتل فرانز فرديناند وصوفيا التوتر النمساوي الصربي إلى الذروة. وأثارت صربيا المشاكل لدى النمسا على مدى سنوات عديدة. هذا فإن عملية القتل المزدوج، وبالنسبة للعديدين، شكلت آخر ذريعة لاحتدام المواجهة الصعبة. وقد شعرت فيينا بأنها لن تستطيع انتظار البرهان القاطع وتصرّفت

بناءً على مجموعة من القرائن.

لقد أخذت فيينا موقفاً حازماً باتجاه صربيا، وتحيّزت قوى أخرى في أوروبا، وتحركت عجلات الحرب بسرعة. وأسهمت الرهانات في ازدياد النزاعات بين النمسا وصربيا وتحوّلت أزمة تموز/يوليو إلى حرب عالمية وذلك بعد مقتل فرانز فرديناند وزوجته صوفيا بثلاثين يوماً.

وفي 28 من تموز/يوليو عام 1914 أعلنت النمسا الحرب ضد صربيا لوضع حدٍّ لتحركاتها الواسعة. واستجابت روسيا بالتحرك جزئياً ضد النمسا. ومقابل استجابة الروس بتحرك فرقها، أعلنت ألمانيا الحرب ضد روسيا في الأول من آب/أغسطس، وفي الثالث منه أعلنت الحرب ضد فرنسا. ومقابل رفض بلجيكا السماح للفرق الألمانية بالمرور إلى فرنسا عبر أراضيها، أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا. وبقيت إيطاليا غير متورطة إلى 23 أيار/مايو 1915، لما لإنجاز مطالبها لدى النمسا، وأخلت بالحلف الثلاثي وأعلنت الحرب ضد النمسا – هنغاريا.

وفي أيلول/سبتمبر 1914 تمت تقوية ائتلاف التحالف بمعاهدة لندن والتي تمّ توقيعها من قبل فرنسا، بريطانيا العظمى وروسيا. ومع تطور الحرب تمّ جرّ دول أخرى إلى الصراع بما فيها تركيا واليابان والولايات المتحدة ودول أخرى من غرب الكرة الأرضية.

وتمّ شنّ الحرب بلا رحمة، على ألمانيا وعلى حلفائها المنتصرين في معارك عديدة، ولكن مع دخول أميركا، فقد تغيّر اتجاه دفة الحرب بصورة مأساوية. فمع اكتشاف خطة وضعت من قبل وزارة الخارجية الألمانية لإقامة ائتلاف بين ألمانيا ومكسيكو واليابان ضد الولايات المتحدة في حال دخولها الحرب، فإن الرئيس الأميركي وودرو ويلسون طلب من الكونغرس إعلان الحرب في 2 نيسان/أبريل 1917. في السادس من شهر نيسان/أبريل، أقر الكونغرس قراراً بإعلان الحرب.

وفي الثالث من آذار/مارس قامت روسيا بتوقيع معاهدة بريست – ليتوفسك Brest-Litovsk التي وضعت نهاية رسمية للحرب بين تلك الدولة والقوى

الأساسية. وفي السابع من أيار/مايو تصالحت رومانيا مع القوى الرئيسية بتوقيعها على معاهدة بوخارست.

ومع انهيار النظام الألماني في جبهاته الداخلية ومع خسائر بلغت الستة ملايين من الضحايا تحركت ألمانيا باتجاه السلام وقبلت الهدنة. وفي التاسع من شهر تشرين الثاني/نوفمبر أعلن فيليب سكيدمان، الديموقراطي الاجتماعي، ألمانيا لتكون جمهورية، وأيضاً أعلن القيصر مع بقية الأمراء في الرايخ التخلي عن مناصبهم. وانتهت الإمبريالية الألمانية، وولدت ألمانيا جديدة؛ جمهورية وايمار.

وعند الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من العام 1918، حطّت الحرب أوزارها.

إلا أن حرباً شكلية بين الجبهتين تواصلت على مدى سبعة أشهر إلى أن تمّ توقيع معاهدة فرساي في 28 من شهر حزيران/يونيو 1919 مع ألمانيا، إلى جانب معاهدات متفرقة مع النمسا، هنغاريا، بلغاريا والإمبراطورية العثمانية.

ومهما يكن من أمر فقد تبع المعاهدة مع الإمبراطورية العثمانية نضال (الحرب التركية لنيل الاستقلال) وقد تمّ توقيع المعاهدة الأخيرة للسلام بين قوى التحالف وبين الدولة التي ستصبح بعد فترة قصيرة الجمهورية التركية وذلك في الرابع والعشرين من تموز/يوليو 1923 في لوزان.

لقد انتهت الحرب العالمية الأولى بأوروبا المرتبكة بآثار خراب الحرب وبتلك الفنادق والموارد المستنفدة، وبملايين الجثث المبعثرة لأناس لقوا حتفهم في المعارك. وانتهى بذلك 300 عام من الهيمنة الأوروبية.

وكان لنتائج الحرب العالمية الأولى أنها تسببت في انهيار الكثير من الأنظمة القديمة إلى القاع، وأدّت وبعد لأْيٍ نهاية هيمنة أوروبية على العالم امتدت على مدى 300 سنة. ولم تؤدِّ أيّ حرب أخرى إلى تغيير الخارطة الأوروبية بطريقة دراماتيكية، إذ أدّت هذه الحرب إلى اختفاء أربع إمبراطوريات: الألمانية، النمساوية – الهنغارية، العثمانية والروسية. وكذلك أربع سلالات حاكمة: الهنزولورية، الهابسبورجية الرومانوفية، والعثمانية مع

كل تبعياتها الأرستقراطية، كلها سقطت خلال الحرب.

ومن نتائج الحرب العالمية الأولى أيضاً أنها أدت إلى بذر بذور حرب عظيمة ثانية (الحرب العالمية الثانية) التي كانت قد بدأت بعد 21 عاماً برغبة الدولة الألمانية المحاربة لمحو المهانة التي ألحقت بها جراء معاهدة فرساي.

وهذا يقودنا إلى سؤال فيما لو كان فرناند فرديناند نجى من محاولة الاغتيال هل كان غيّر اللعنة التي حلّت بتاريخ العالم؟ ولن تكون الإجابة بنعم سوى أنها بمثابة تمنيات مرغوبة.

لقد كان فرديناند مجرد ضمانة في السياسة الأوروبية: لم يكن ذاك السياسي العظيم الشأن ولم يكن رجل الدولة القادر على تجنّب الأزمات المحدقة. وقد أعطى موته المزيد من الذرائع الضرورية للعداء الشامل بين الدول الأوروبية. وحتى لو أنّ محاولة اغتياله لم تنجح، فإن الحرب العالمية الأولى كانت واقعة ولتمّ منح الدول المتحاربة أعذاراً أخرى.

كان رحيل فرانز فرديناند بمثابة اختفاء أثر لملكية متفتتة كانت تخطو باتجاه كشف الغَيْب. لقد كان من أفضل من عبّر عن حال الملكيات الأوروبية المنهارة تلك الأسطر الخالدة ليوناردو دوفينشي.

"لقد كنت أتعلم كيف أعيش، وأثناء ذلك كنت أتعلم كيف أموت".

كان موت فرانز فرديناند بمثابة ذكرى سبقت الملحمة المليئة بالأحداث في تاريخ العالم.

مارتن لوثر كينغ

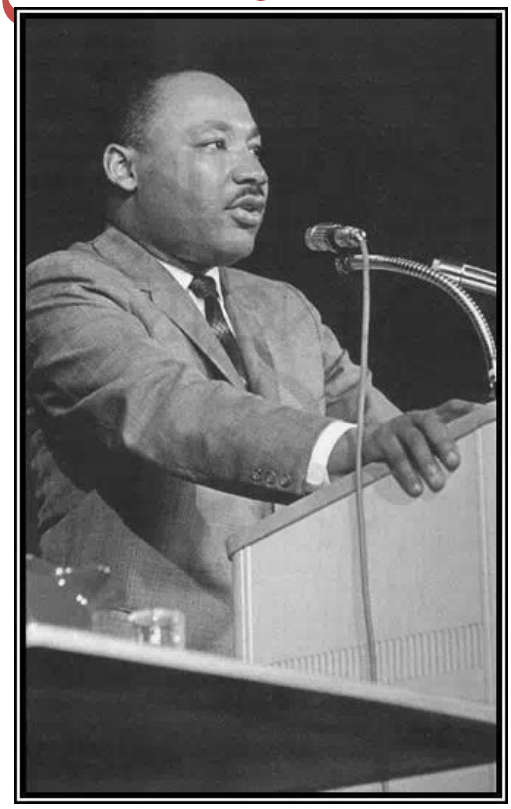

أبيات شعر تحولت أناشيد قصيرة، أخذت من على شبكة، وتمّ عزوها إلى طفل أفريقي، ليس من أحد يعرف اسمه، ولكن قصيدته وعلى ما يبدو تمّ تصنيفها بعداد أفضل القصائد للعام 2005.

عندما ولدت، وأنا أسود

عندما كبرت، وأنا أسود

وعندما سرت في الشمس، وأنا أسود

وعندما خفت، وأنا أسود

وعندما مرضت، وأنا أسود

وعندما متّ، وأنا لا أزال أسود

وأنت يا صاحبي الأبيض

عندما وُلِدْتَ، وأنت أحمر مورّد

وعندما كبرت، وأنت أبيض

وعندما سرت في الشمس، وأنت أحمر

وعندما بردت، وأنت أزرق

وعندما خفت، وأنت أصفر

وعندما مرضت، وأنت أخضر

وعندما متّ، وأنت رمادي

وأنت ما زلت تقول عني بأني ملون؟!!!

إن مفهوم (حالة) لون البشرة الذي يصنعه كإنسان هو مبعث الإلهام لدى الناظم في هذه القصيدة. وأن مفهوم لون بشرته الذي يصوغه كان بمثابة البذور التي منها نبت الحماس لحركة تطالب بالحقوق المدنية لدى مارتن لوثر كينغ الأصغر.

ولد ميشيل لوثر كينغ في العام 1955 من الأب القَسّ مارتن لوثر كينغ السيد والأم ألبرتا وليمز كينغ، وعاجلاً تمّت إعادة تسميته إلى مارتن لوثر كينغ الأصغر. ونشأ على وقع جده وأبيه اللذين كانا قسيسين وحتى إنه تابع ليتخرج من نفس الكلية التي منها تخرجا، وهي كلية مور هاوس MoreHouse College في أتلانتا. بعد ذلك أمضى ثلاث سنوات في المعهد العالي اللاهوتي كروزر Crozer Theological Seminary في بنسلفانيا وسنتين أخريين في جامعة بوسطن، حيث التقى بكروتا سكوت واقترن من ثم بها لتصبح شريكة حياته.

وتقبل كينغ في العام 1954 رعاية أبرشية الكنيسة المعمدانية في شارع ديكستر في مونتغمري في ألباما. ومن حينها أصبح عضواً فعالاً في اللجنة التنفيذية في الجمعية الوطنية لتعزيز الملونين، ومن ثم انخرط كلياً في العمل

من أجل حقوق مجتمعه.

ومن بعدها جاءته حادثة مقاطعة الباص في الخامس من شهر كانون الأول/ديسمبر 1955. ففي الأول منه رفضت روزا باركس إخلاء مقعدها في مقدمة القسم الخاص بالملونين في الحافلة من أجل رجل أبيض. وقد تمّ القبض عليها لكونها تحدت قانون جنوب أفريقيا في التمييز العنصري بين البيض والسود في جميع الأماكن العامة بما فيها شبكة مواصلات المدينة، وهكذا انطلقت شرارة مقاطعة باصات مونتغمري الشهيرة التي ترأسها الرئيس المنتخب لجمعية التطوير في مونتغمري، القَسّ مارتن لوثر كينغ الأصغر.

وقد نمت بذور المقاطعة قبل إصدار الحكم باعتقال تلك الفتاة. ووضع المجلس السياسي للسيدات (WPC)، وهي جمعية تمّ تأسيسها من قبل نساء أميركيات مختصات، وضعن رغباتهن قُدُماً عند لقاء لهن مع المحافظ و. أ. غايل W.A. Gayle في العام 1954؛ ويقضي اقتراحهن السماح بجلوس السود على المقاعد ابتداء من مؤخرة الباص إلى المقاعد في المقدمة وبجلوس البيض (بالعكس) على المقاعد ابتداء من المقاعد في مقدمة الباص إلى المقاعد في المؤخرة إلى أن يمتلئ الباص. وعلى الباصات الوقوف عند محطات المناطق السكنية للسود، كما هو الحال لدى البيض. إلا أن الاجتماع لم يؤتِ ثماره. وفي رسالة إلى المحافظ، سأله رئيس جمعية WPC جو آن روبنسون بقوله: "الرجاء الاهتمام بهذه الخطة، وإذا كان بالإمكان، العمل عليها بإيجابية، لأن الخطط التي توضع الآن تتوجه إلى مقاطعة جزئية أو كلية للباصات".

وقبل اعتقال روزا باركس بتسعة أشهر، تمّ اعتقال كلوديت كولفن الطالبة في الخامسة عشرة من عمرها وذلك لتحديها قانون التمييز العنصري في الباص في مونتغمري. وبعد سبعة أشهر رفضت ماري لويس سميث، ثمانية عشرة عاماً، التخلي عن مقعدها لرجل أبيض وتمّ اعتقالها، وقد مرّ بعد ذلك شهران قبل أن يتخذ الناس في مونتغمري موقفاً ضد المعاملة المهينة التي فرضت على السود.

وبعد أن تمّ إلقاء القبض على روزا باركس، قامت جمعية ال- WPC بالتحرك فعلياً، وقامت بتوزيع بيانات تسأل فيها المواطنين في مجتمع السود تجنّب الباصات وذلك في الخامس من شهر كانون الأول/ديسمبر. وكانت نسبة الاستجابة لذلك 90% واستمر ذلك على مدى 382 يوماً وتوترت الحالة بصورة ملفتة. وتمّ تفجير منزل كينغ وليصار من ثم إلى اعتقاله أثناء تلك الحملة، ونهائياً تمّ إجبار المحكمة العليا للولايات المتحدة إلغاء التمييز العنصري ضمن شبكة الحافلات.

وضعت عملية المقاطعة كينغ الصغير تحت الأضواء كناشط بارز في سبيل حقوق الإنسان. وقد وقف العالم وأخذ علماً، وبرهنت مونتغمري إمكانية تحدي التمييز العنصري بالاحتجاج وبدون عنف، وذلك وبنفس الطريقة التي قادها م. ك. غاندي في الاحتجاج.

وقد نزل عند أوامر كينغ خمسون ألفاً من الأميركان السود وذلك في كانون الأول/ديسمبر 1955 فكان له النصر. وبتلك الطريقة وبتلك الكلمات استطاع كينغ الذي يبلغ 26 عاماً من عمره استثارة شعبه: "إذا قمت بالاحتجاج فليكن ذلك بشجاعة وحتى بكرامة وباندفاع إيماني. فعندما يكتب التاريخ عن ذلك الموقف فإن على المؤرخين الوقوف والقول: هنا عاش شعب عظيم، مواطنون سود قاموا بحقن عروق المدنية بالكرامة وبالمعاني السامية الجديدة" وهذا هو تحدينا ومسؤوليتنا تجاه قهرنا".

كانت صرخة من وجدان كينغ وقد قوبلت من قبل الجمهور بحماس. وقد كانت لحظة تاريخية في عمر مونتغمري. كان يمد السود خلال هذا الجهاد الفعال في سبيل حقوق الإنسان بقوة كلماته، ومُلهَماً من قبل كينغ، أعلن كل الجنوب الحرب على التمييز العنصري بين السود والبيض في المطاعم وفي المحال التجارية والمدارس والحدائق العامة والأندية والملاعب.

وقد حاز كينغ على جائزة نوبل للسلام في العام 1964 وذلك من البرلمان

النرويجي وقد تقبلها قائلاً:

"إنني أتقبّل هذه الجائزة اليوم بإيمان ثابت بأميركا وبإيمان جريء بمستقبل الإنسانية. وأنا أرفض تقبل القنوط كجواب أخير على غوامض التاريخ، وأنا أرفض تقبل فكرة أن الإنسان هو كحطام سفينة طافٍ على سطح ماء المياه غير قادر على التأثير في الأحداث المتسارعة التي تحيط به. وأنا أرفض الفكرة القائلة بأن الإنسانية مقيدة وبشكل مأساوي بليل العرقية وبليل الحروب المظلم بحيث إن نهار السلام والأخوة لن يطلع أبداً... وأنا ما زلت أؤمن بأنه يجب علينا المواجهة وأننا سوف ننتصر".

إلا أن كينغ كان مجرد إنسان، ولم يكن لديه الكثير من السيطرة على حركة الحقوق المدنية كما يفضل هو ذلك. وقد شهدت الحركة في العام 1968 المزيد من الخدر/الوهن في أنحائها، إذ كان الكثيرون يحملون الأسلحة المجهّزة وكان المشاغبون يحتدمون عند أية إشارة. وبالرغم من ذلك فقد بقي كينغ مخلصاً لمبادئه، على الرغم من رؤيته لحركة الحقوق المدنية وهي مهدّدة. إن العنف هو الذي قاده أخيراً إلى ميمفس حيث لقي حتفه في العام 1968.

ففي الواحد والثلاثين من شهر كانون الثاني/يناير تمّ صرف 22 عاملاً أسودَ من عمال وزارة الصحة من عملهم والسبب في ذلك يعود إلى رداءة الأحوال بينما سمح للعمال البيض بالبقاء. وما كاد يمضي أسبوع أي في الثاني عشر من شباط/فبراير حتى قام 13.000 عامل في وزارة الصحة بالإضراب في ميمفس. وعندما فشلت المفاوضات في إيقاف الإضراب تمّت دعوة كينغ وآخرين ممن ينادون بالحقوق المدنية من الزعماء للتدخل.

وبعد مضي شهر، وفي الثامن عشر من آذار/مارس، تحدث كينغ في جمع غفير يبلغ 15.000 شخصاً في معبد ميسون Mason Temple. وعاد إلى ميمفس مرة ثانية في الثامن والعشرين من الشهر نفسه، وفي هذه المرة لقيادة مسيرة احتجاج لدعم العمال. وللأسف، فإن المحتجين ونتيجة للضغوط وللإحباط أصبحوا فظين شرسين. وتدخلت الشرطة للسيطرة على الجموع وكانوا

مرغمين في اللجوء إلى الغاز المسيل للدموع وإلى الهراوات لتفريق الجموع، حيث نجم عن ذلك قتيل على الأقل بين المحتجين.

وكان كينغ منزعجاً إلى أقصى حد إذ إن المسيرة التي كان يتوقع أن تكون سلمية تحولت إلى حشود هائجة مضطربة مخلّة بالأمن. فقرّر أن يقود مسيرة أخرى في الثامن من نيسان/أبريل في ميمفس. وصل كينغ المدينة في الثالث منه متأخراً قليلاً بسبب انفجار حصل في الطائرة التي كان يقلها. وإثر وصوله توجّه لإلقاء خطبته الشهيرة "بلغت ذروة الأعالي"، وذلك في حشد من الناس صغير كانوا قد تجمعوا هناك. وعلى نحو مُشوِّق أبرزت خطبته كونه عرضةً للموت فقط قبل يوم من مواجهته مصيره. إذ يقول:

"وكأي إنسان، فإنني أحب أن أعيش حياة طويلة، عمراً مديداً لي فيه مكان. إلا أنني لست معنياً بذلك الآن. وأريد أن أنفّذ مشيئة الله. وقد يسر لي بلوغ الأعالي حيث شهدت الأرض الموعودة. ربما لن نصل هناك معاً، ولكنني أريدكم أن تعلموا هذه الليلة بأننا كشعب سنصل إلى الأرض الموعودة. لذا فإنني سعيد هذه الليلة ولست قلقاً على أي شيء، ولست خائفاً من أحد. لقد لمحت عيناي المجد الآتي من عند الإله".

وبعد خطبته تلك، عاد كينغ إلى الغرفة رقم 306 في نزل/موتيل لوريان لأخذ قسط من الراحة.

وهذا النزل الذي تحوّل الآن ليصبح "المتحف الوطني للحقوق المدنية National Civil Rights Museum هو النزل الحزين في أسفل ميمفس، ولكنه المفضل لدى كينغ وصحبه عندما يكونون فيها. وقد شوهد كينغ ورالف آبيرنثي وهما يستعدان للذهاب إلى العشاء في بيت الوزير بيلي كيلس في ميمفس.

وقرابة الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر وصل كيلي لجلبهما وساعد كينغ على تسوية أزرار قميصه مازحاً حول وزنه، وحثهما على الإسراع. وعند خروجهم إلى الشرفة، داعب كينغ كيلي حول رغبته في عشاء حالم. وكان آبيرنثي ما زال في غرفته بينما كان كيلي يكاد يبلغ أسفل الدرج عندها تناهى إلى سمعهم صوت كصوت اشتعال خلفي في محرِّك سيارة، وبحُكْم الغريزة عرفوا ما هو. لقد اخترقت الرصاصة وريد كينغ الوداجي ومزّقت فكه ثم تابعت طريقها عبر رقبته شاطرة نخاعه الشوكي لتتوقف عند لوح كتفه ليسقط وربما ميتاً وعلى وجه التقدير مباشرة. وتهاوى آبيرنثي باكياً، "مارتن كل شيء على ما يرام. فلا تقلق. هذا أنا رالف. هذا أنا رالف".

وركض كيلي إلى داخل غرفة النزل لاستدعاء الإسعاف بينما وضع ماريل ماك كلو، البوليس السري، منشفة حول رقبته ليوقف سيال الدماء، ووصلوا إلى مستشفى السان جوزيف خلال خمس عشرة دقيقة. وقد حاول الطبيب إجراء عملية طارئة إلا أنه كان مرغماً لإعلان وفاته. وفي السابعة وخمس دقائق بعد الظهر تمّ إيفاد الخبر التالي: "إنني متأسف، فقد خسرناه". وقد كان له من العمر 39 عاماً.

بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً، وعملية اغتياله تزكي آراء حول مؤامرة نافست تلك التي دُبِّرت عند مقتل ج. كينيدي. وتصاعدت أصوات قوية حول تلك الآراء وذلك عندما التقى ديكستر كينغ، ابن مارتن لوثر كينغ، بالشخص الذي أدين بعملية اغتيال أبيه في العام 1997 ليقول له بأنه يؤمن بأنه بريء. وبعد عام، قام المحامي الجنرال جانير رينو باستئناف بعض التحريات حول عملية القتل، وبعد مضي عام على ذلك منحت المحلفين عائلة كينغ مئة دولار، مبلغاً رمزياً، استنكاراً لعملية القتل البشعة. ووافقت هيئة المحلفين على أن عملية الاغتيال هي بالضرورة مؤامرة تورط فيها صاحب البار لويد جويرز.

إن القصة المقبولة حول عملية الاغتيال تتهم جيمس إيرل راي بالقتل فهو مجرم محترف وعنصري مكشوف. فقد ضبط داخل الغرفة (5 ب) في نزلٍ في

الشارع المقابل تماماً للموتيل الذي نزل فيه كينغ. وكانت غرفته تشرف جزئياً على شرفة وغرفة كينغ، إلا أن الحمام الموجود في القاعة السفلى كان يوفّر رؤية واضحة للجهة المقابلة. وفي الواقع، وفي ذلك المساء، فقد كان معظم النزلاء غاضبين لأن الرجل في الغرفة (5 ب) قضى وقتاً طويلاً في الحمام. وقد قيل أنه ومن هذا المكان قام بإطلاق النار على كينغ برصاصة وحيدة من البندقية.

وبعد مضي دقائق شوهد مسرعاً بسيارة كاديلاك بيضاء اللون. هذا وقد وجدت بصمات راي على المنظار وعلى البندقية وقد كشفت السجلات أنه كان قد ابتاع البندقية منذ أقل من أسبوع قبل حصول عملية الاغتيال. وبعد مضي شهرين طويلين كانت خلالها الشرطة تدقق في جوازات السفر مقتفية المزور منها عثرت على راي أثناء توجهه إلى كندا ثم الولايات المتحدة ليتم القبض عليه في مطار هيثرو. وقد قيل بأنه أخبر موكله الأول، بيرسي فورمن، التالي: "كنت أظن بأنني سأصل [جنوب] أفريقيا لأخدم في إحدى جيوش المرتزقة لمدة سنتين أو ثلاث، وهؤلاء القوم هناك سوف لن يعيدوني".

وقد أقرّ راي بأنه مذنب، وذلك لتحاشي إنزال عقوبة الشنق به. تغيّر المسار وحكم عليه بدل ذلك بالسجن لمدة 99 عاماً. وبعد مضي ثلاثة أيام عليه في السجن، تراجع عن اعترافه/أقواله زاعماً أن التهمة لُفِّقت له. إلا أنه ورغم العديد من الالتماسات، لم يكن باستطاعة محاميه استئناف القضية طالما أن القضايا التي يكون فيها الحكم بالاتهام مبرماً هي غير قابلة للاستئناف. وأخيراً وفي العام 1977 – 78 فإن التحقيق الفيدرالي من قبل اللجنة المختارة في مجلس اللجنة المدققة في عملية الاغتيال House Select Committee on Assassinations انتهت إلى أنه وعلى الرغم "أن هناك احتمالاً قوياً بأن راي لم يكن المسؤول الوحيد في عملية القتل، إلا أنه وبمفرده قام بكبس الزناد". وظل راي يدافع عن نفسه قائلاً: بأنه بريء وضحية مؤامرة معقدة إلى حين وفاته في 23 نيسان/أبريل 1998.

ويعتقد الكثيرون بأن راي كان مُسْتَغَلاً وتمّ الاحتيال عليه في هذه العملية وهو يشبه في ذلك وإلى حدٍّ كبير لي هارفي أوزوولد. وفي الحقيقة، فإن الأسباب التي تمّ تعيينها فهي تميل بالدلائل إلى مصلحة راي. إن المؤيدين لهذه الدلائل يعتقدون بأن راي كان ولفترة قصيرة لصاً ويسطو على المنازل للسرقة، إلا أن تاريخه لم يحمل ملامح تشير إلى ارتكابه جرائم عنف، وأنه لم يتم احتجازه بسبب حيازة أسلحة. وحتى إن سجله غير الحافل بالإجرام هو بالإجمال محسوب عليه في كل مرة يتم إيقافه. إذن كيف استطاع خداع الشرطة فترة ما يقارب الشهرين بعد مقتل كينغ؟ والأكثر، السلاح الذي أخبر عنه بأنه استعمله، بندقية ريمنغتون كايمماستر موديل 760 وُجدت وعليها فقط بصمات إصبعين من أصابع راي، استحالة فيما إذا كان بالفعل أمسك بالبندقية واستعملها لتعيين وإصابة شخص ما. وزيادةً على ذلك، فإن حمام البيت المستأجر، حيث قيل إنه أمضى ساعات طويلة بانتظار غنيمته ليظهر، لم يكن عليه بصمات لأصابعه على الإطلاق، وهذا يعد أيضاً بعيد الاحتمال إلى درجة كبيرة. أضف إلى ذلك، وكما ذكر نزلاء السجن، أن راي لم يكن يعبّر عن أية آراء سياسية أو عرقية يكنها بالنظر إلى أنه أطلق النار على ناشط في الحقوق المدنية.

ويعتقد أيضاً بأن راي هو هدّاف متوسط البراعة، وفي الواقع فقد زعم عديدون بأن راي لم يطلق النار من بندقية منذ إقالته من الجيش وذلك عندما كان في أواخر الأربعين من عمره. وإن الطلقة اليتيمة التي قتلت كينغ جاءت وبكل تأكيد من هدّافٍ محترف. والأكثر من ذلك فإن شهود عيان في عملية القتل ذكروا بأن الطلقة أتت من جهة أخرى، من جهة فيها شجيرات كثيفة بالقرب من النزل وليس من النزل نفسه. وقد وجد بأنه وبصورة غريبة تمّ قطع الشجيرات في هذه المنطقة بعد مضي بضعة أيام على عملية الاغتيال.

إن أقوال راي التي عرضها حول المؤامرة وحول أنه كان محاطاً بشخص اسمه رول الذي كان متورطاً معه بعملية تهريب. وهو لم يكلف نفسه عناء

البحث عن اسمه الثاني، وتبعه دون تمحيص عندما قرّر شراء بندقية وعندما مضى ليعاين داخل المنزل السيئ السمعة في ميمفس، ليقوم من ثم وببساطة وبشكل واضح بتسليم البندقية إلى رول ويغادر، على ألا يراه مجدداً أبداً. وفي جزء آخر من قصته اعترف راي بأنه كان عليه الانتظار بالسيارة الكاديلاك البيضاء خارج الموتيل إلى حين سماع إطلاق النار ليأتي بعدها رول مهرولاً خارج المنزل المستأجر ليقفز داخل السيارة.

وبالطبع لم يتم إحضار رول أبداً إلى أن تحرك الفاعل الذاتي الذي كان كامناً لدى راي ليدعي أنه استطاع تمييز صورته. لم توجد هناك أدلة تجريمية ضد هذا الرجل الذي قال لاحقاً: "لقد قلبوا حياتي رأساً على عقب، وهذا ستبقى له ذيوله أبداً في حياتي. لقد خفت.. أليست الحقيقة هي من الأهمية بمكان لدى أي شخص في هذا البلد؟"

إلا أن الآراء حول مؤامرة بشكل جدّي بلغت مبلغها عند مقاربتها أعلى المستويات الحكومية في الولايات المتحدة. فقد ذكر محامي راي الأخير، ويليام بيبر، وبجرأة بأن الحكومة الأميركية كانت قد استأجرت رجلاً من المافيا، كما تمّ الاتفاق معه للقضاء على كينغ، ووضع راي كبش محرقة. وكما جاء في كتاب بيبر تحت عنوان: "أوامر للقتل: الحقيقة وراء مقتل مارتن لوثر كينغ". "فإن فريقاً من القناصة في الغرين بيريت Green Beret (البيريه الخضراء) كانوا يكمنون في القرب ليكونوا حاضرين في حال عملية تقتضي وجوب التخلص من رجل المافيا المُستأجر. إلا أن الفدائي بيلي أديسون في هذا الفريق تمّ قتله فيما بعد للتعتيم على القضية. ومضى ليقول بأن رجال الـ CIA، وشرطة ميمفس، والـ FBI بالإضافة إلى استخبارات الجيش كلهم متورطون في هذه المؤامرة.

وطبعاً تمّ دحض رأي بيبر هذا بالكامل. وكانت البرقية العسكرية التي أبرزها

مزورة، ووجد بيلي أديسون حياً وثائراً وقد غضب لاعتباره مسؤولاً عن عملية الاغتيال. وإن المساهمين في الغرين بيريت هم بعيدون عن كونهم منسجمين مع فكرة إقحامهم في هذا المخطط. إلا أن كتاب المحامي بيبر ذاك قد تمّ نشره في نفس الشهر الذي مات فيه راي في السجن وحققت مبيعاته أرقاماً عالية.

ومهما يكن من أمر، فقد حاول بيبر إقناع عائلة كينغ بأن الحكومة هي المسؤولة عن عملية اغتياله. وفي الواقع، وعندما سأل المعلق فوريست سوير Forest Sawyer، ديكستر كينغ Dexter King فيما إذا كان يعتقد "أن ليندن جونسون كان ضالعاً في عملية اغتيال والده" أجابه: "نعم أعتقد ذلك".

وقد ادعى جيم غرين، الوكيل المساعد السابق لعمدة البلدة في ميسوري، بأن فئة من جهاز الـ FBI اشتركت في التخطيط لمؤامرة قتل كينغ زاعماً وبكل ثقة أن راي تمّ تكوينه كالعجينة لتنفيذ عملية الاغتيال. وقد احتيل عليه من قبل ديوان المجلس، وأعطي التعليمات عبر رول الشخصية الغامضة لشراء بندقية لضبط الموتيل المريب. ثم أخبر من ثمَّ بأن عليه السطو على حافلة طعام صغيرة بالقرب من الموتيل وذلك كعملية تضليل توهم بسرقة البنك التي من المفترض أن تكون قد نفّذت. وقد تمّ تكليف محقق بوليسي لنصب كمين وقتل راي وبدفن البندقية في صندوق سيارته، لتوجيه إثم ارتكاب عملية الاغتيال وبشكل فعلي إلى رجل ميت. ومن الواضح أن راي توقع مكيدة لذا قام بالهروب بسيارته، وبعد ستة أيام، عثر البوليس على سيارته متروكة في أتلانتا.

أما الرأي الأخير فهو يلقي الإثم وبحق على لويد جويرز الذي كان يدير مطعم شواء "جيمس غريل" الموجود مباشرة عبر الشارع باتجاه موتيل لورين. فقد جاء في العام 1993 ليقول بأن رجل أعمال من ميمفس أعطاه مبلغاً وقدره 10.000 دولار ليستأجر رجلاً هدّافاً لقتل كينغ. وأن الرجل الذي استخدمه لم يكن راي. وبعد سبعة أشهر من التحقيقات لم يكن هناك أية أدلة ضد جويرز، ليختفي بعدها مثل خدعة.

إن تداعيات موت كينغ كانت أعنف مما كان متوقعاً. واندلع الغيظ والإحباط

في الشوارع، وقد حبست الأمطار المتواصلة في دورهام المحتجين بعيداً عن الشوارع. ولكن وحتى عند خروجهم كان ذلك بصورة مسيرات سلمية، إلا أن السلم لم يدم طويلاً. وحالما اسْتَعَرَ غضب الجماهير، وأشعلت الحافلات العامة والمباني وذلك في السادس من نيسان/أبريل. وعلى الرغم من إعلان حظر التجول، إلا أن العنف انفجر ثانية في الليلة التالية.

في هذا الوقت نظم طلاب جامعة دوك "صلوات مسائية صامتة"، ومشوا في مسيرة باتجاه منزل رئيس الجامعة محددين أربعة مطالب ملحّة: 1. الرغبة في استقالة الرئيس دوغلاس م. تايت من حينها من نادي الأمل لوادي البلدة، العنصري. 2. أن يوقع إعلان في الجريدة للدعوة إلى يوم حداد والطلب من سكان دورهام "فعل ما في وسعهم لإجراء مساواة عرقية ومنح الحرية. 3. والضغط لرفع أجور موظفي دوك بمقدار 1.60 دولار. 4. وأن يعين لجنة لدراسة إجراء مفاوضات جماعية وتأسيس اتحاد منظم في الجامعة.

وقد مكث 250 متظاهراً خارج منزله أثناء الصلوات الصامتة، وأرشده الأطباء وفي اليوم التالي للانتقال إلى مكان منعزل، لذا قام أيضاً المحتجون بالانتقال إلى ساحة الكنيسة المربعة. وهناك تزايد عدد المحتجين ليبلغ 1500 طالبٍ بين أعضاءٍ في الكلية وموظفين ويقول بيتر كلوبفر: "إنني أذكر الصلوات المسائية في الكنيسة بعد اغتيال مارتن لوثر كينغ. وكان ذلك البرهان الأقوى على دور الطلاب الفاعل والذي باستطاعتهم لعبه في تغيير جامعة لتكون تلك التي أحلم بها. وذاك وبكل تأكيد أدى إلى أن يغير الكثير من زملائي غير الملتزمين وزملائي الجالسين إلى جانبي من مواقفهم". وكلوبفر هو عضو في كلية جامعة دوك وقد قال ذلك في مقابلة أجريت لاحقاً في العام 2003.

وأخيراً، وافق مجلس أمناء الجامعة على مطلب دفع الزيادة الأدنى للأجور، كما أنهم قاموا بتشكيل لجنة لدراسة إجراء مفاوضات جماعية. وقبل إنهاء الصلاة، عمد بعض من أعضاء الأمناء لمشاركة المتظاهرين في إنشادهم: "سوف ننتصر".

وبالتحديد بعد سبعة أيام من اغتيال كينغ قام الرئيس جونسون بتوقيع مرسوم الحقوق المدنية في العام 1968 الذي يطلق عليه أحياناً: "قوانين الإسكان العادلة" التي تعد بتحقيق المساواة في صفقات الاستئجار والبيع للأملاك الأصلية (العقارات) للسود والبيض.

واليوم فإن اسم كينغ يحتل مكانة إلى جانب اسمَيْ "لنكولن وغاندي"، اللذين قاتلا من أجل حقوق الإنسان وتمّ اغتيالهما بسبب ذلك. وقد عمّ تأثير كينغ على "حركة التوعية للسود" في جنوب أفريقيا وقيل بأنه ألهم رابحاً آخر لجائزة نوبل هو "ألبرت لوتولي".

وهكذا سارت عائلة كينغ على خطاه، حيث قامت زوجته كوريتا سكوت كينغ بتأسيس مركز كينغ، وتابعت العمل في سبيل قضايا الحقوق المدنية إلى حين وفاتها في أوائل العام 2006، وابنه ديكستر هو ناشط في مركز الـ CEO والرئيس، بينما تعمل ابنته يولاندا المتحدثة المحركة في مؤسسة لهاير غراوند برودكشن Higher Ground Productions.

في خطابه العالمي المشهور في واشنطن د. س. في الثامن والعشرين من آب/أغسطس 1963، ترجم مارتن لوثر كينغ، الأصغر، أحلامه من خلال كلمات ليدرك جميع أبناء شعبه أهمية كونهم أميركيين. وبعيداً عن كونه مثيراً للبكاء، فإن الخطاب العاطفي الأكثر عمقاً الذي لم يصدر عن أي رجل دولة من قبل، هذا الخطاب يلخص أعمال كينغ على مدى حياته، والأمور التي رأى أنها تشكل احتياجات يجب أداؤها في المستقبل.

الثامن والعشرون من آب/أغسطس 1963 واشنطن د. س.

"إنني سعيد لكوني معكم اليوم، والذي سيمضي في التاريخ ليمثل أعظم دليل يؤكد على دافعنا في طلب الحرية في تاريخ شعبنا. خمس سنوات مسجلة مضت، قام الأميركيون العظماء الذين برمز ظلهم نعيش نحن، بتوقيع إعلان التحرر والذي مثل انبلاج فجر الفرح الذي يضع حداً لليل العبودية الطويل.

إلا أننا يجب علينا وبعد مضي مئة عام أن نواجه الواقع الأليم بأن الزنجي ما زال غير حرٍّ... بعد مضي مئة عام، سيبقى الزنجي واهناً متخاذلاً في زاوية من زوايا المجتمع الأميركي وسيجد نفسه منفياً بأرضه.

لكن هناك شيئاً يجب أن أقوله لشعبي... ففي عملية الفوز بمكانتنا العادلة، علينا ألا نكون ملامين بأفعالنا الخاطئة. فدعونا ألا نبحث في سبيل إرواء عطشنا للحرية عن كأس المرارة والكراهية لنشربه..

علينا دائماً أن نقود كفاحنا على دروب السموّ والانضباط على أعلى مستوياتها. وأيضاً وأيضاً، ومرة بعد مرة علينا أن نرتفع إلى المشارف المهيبة التي عندها القوى الروحية والجسدية تلتقيان.

وإني أخبركم اليوم يا أصدقائي، أنه وبالرغم من الصعوبات والإحباط التي نواجههما في هذه اللحظة، إلا أنني ما زال لديَّ حلم، حلم متجذر بعمق في أحلام الأميركيين..

إنه الحلم الذي وفي يوم من الأيام سينهض هذا الشعب ويعيش المعنى الحقيقي لإيمانه المسيحي: "إننا نحمل تلك الإحالات البديهية وهي أن جميع البشر خلقوا متساوين..."

"إني أحلم بيوم فيه يعيش أولادي ضمن شعب لا يحاكمهم على لون بشرتهم بل على مضمون دواخلهم".

وإننا نتساءل... لو أن كينغ لم يُقتل؛ ما هو السيناريو الذي كانت ستقدمه حركة الحقوق المدنية؟! هل كانت ستختار شبه العنف سبيلاً لها، وهل كان سيتم توقيع قانون الحقوق المدنية في العام 1968؟ وهل كان هناك ما يمكن أن يشكل ضغطاً كافياً على الرئيس جونسون لوضعه على الطاولة (لتوقيعه)؟

والجواب هو نعم. إن رجلاً بمقدرة كينغ وبشجاعته النموذجية في مواجهة البلاء (الشدائد)، وفوق ذلك لديه إيمان راسخ بفاعلية اللاعنف، هذا الرجل هو ملزم ليكون ناجحاً بالقدرات تلك. فإن فنه في الحكم غير المألوف، وقدراته القيادية أكدت بأن الملايين من أتباعه سوف يمضون في تحقيق ما لم يمكن بإمكانه تحقيقه، وسيمضون على خطى أحلامه، وسيجعلون مهماته في حياته تعطي ثمارها المنطقية العقلانية وتأتي إلى نهاياتها المنطقية، بدون عنف وكره للمواطنين الأميركيين.

آحمد شاه مسعود

بعد مضي عدة سنوات على اغتياله، يعيش أحمد شاه مسعود شخصية ملصقة إعلانية في أفغانستان، والتي تعتبر الأكثر مبيعاً من البطاقات البريدية التي تحمل صورة الرئيس الحالي، وحتى إن مسعود كان يعيش في شرائط الفيديو يمثل أدواراً تظهره مقاتلاً في إحدى ساحات المعركة، مصلياً. في شمالي شرقي أفغانستان، عند مواقعه المتوسطة، تنتشر صوره في كل مكان: على الأبواب، على النوافذ، على الأعلام. هناك صور لرئيس البلاد أيضاً، إلا أن صور مسعود أكبر، ومعلقة في الأعالي وفي أكثر الأماكن البارزة.

عاش مسعود كما يعيش الأبطال الحقيقيون آسراً لعقول ولأفئدة ولخيال الناس، أفغاناً وغير أفغان على السواء، كما أنه مات بطلاً كما عاش، حيث تناثر جسده نتفاً بفعل عملية تفجير على يد شخصين عربيين تظاهرا بأنهما صحفيان يريدان إجراء مقابلة مع مسعود. هذان فجرا نفسيهما أيضاً بعد أن قذفاه بقنبلة مخبأة في آلة تصويرهما، ليشعلا النار ليس فقط في الغرفة؛ بل

في جميع أوساط الشعب الأفغاني قاطبة.

ولد أحمد شاه مسعود في مقاطعة جنكلاك في بنجيشير في العام 1953، وكبر مسعود ليلعب دوراً من أهم الأدوار في تاريخ أفغانستان المعاصر. وقد لقبه المعجبون به "أسد بنجيشير" تعظيماً لنجاحه كقائد عسكري قاوم الاحتلال السوفياتي. وفي الحقيقة، فإن نضاله ضد السوفيات كان معروفاً جيداً إلى درجة أن صحيفة وول ستريت وصفته بأنه "الأفغاني الذي ربح الحرب الباردة". وبعد اندحار السوفيات كانت فرق مسعود أول جماعة من المجاهدين (كلمة عربية تشير إلى "المكافحين" – هؤلاء المرتبطين بالحرب الإسلامية المقدسة "الجهاد") الذين دخلوا كابول، وساعدوا على إقامة حكومة المجاهدين.

ومن السخرية أنه وفي أوائل الثمانينيات، وعند انضمام مسعود إلى المجاهدين، لم يكن ليتصور بأنه وعلى مدى العديد من السنين وفي الحقيقة لنهاية حياته، بأنه سيشعل حرباً بعد حرب بعد حرب.

وحال مغادرة السوفيات للأراضي الأفغانية، اشتعل قتال داخلي بين الزمر المختلفة ضمن البلاد أدّى إلى حرب أهلية عاصفة. وقد رأت طالبان أن في ذلك فرصة عظيمة فكان أن تدخلت لحل النزاع. وبمؤازرة باكستان مهّدوا طريقهم داخل البلاد واعدين بإعادة القانون والنظام. اعتبر المواطنون المُتعَبون من الحرب أن هذا ما كانوا يحتاجون إليه – وضع حدٍّ للحرب وطمأنينة وحياة منظمة. ولم يمضِ وقت طويل حتى عرفوا كم كانوا مخطئين في حسن ظنهم بطالبان.

لقد حملت طالبان معها منحىً إسلامياً شديد الوطأة، متطرفاً في كل تطبيقاته. فبالنسبة لهم فقد كانوا ينكرون على الناس حقوقهم، كما كانوا يحرمون عليهم أي وسيلة من وسائل الترفيه، كما أنهم قاموا بإغلاق المدارس

والمراكز الطبية كما عمدوا إلى تعيين وزارة للخير والشر والتي ساعدتهم في التأكيد أن على كل مواطن اتباع مسلك عقيدة الطالبان فقط. وقد وجد أحمد شاه مسعود وبقية المجاهدين بأن ذلك إنما هو يمثل شكلاً من أشكال القمع، كما حصل للأفغان على نطاق واسع. وفي سبيل قتال الغزاة، قام الأفغان بتشكيل تحالف لتحرير أفغانستان من القوى التي سلبت منهم حريتهم. "نحن نعتبر بأن تلك هي مهمتنا... حماية الإنسانية من جائحات (ويلات) عدم التسامح، العنف، والتعصب". قال مسعود ذلك عند اجتماعه بالناس المتحلقين حوله عندما أنشأ تحالفاً مع الشمال.

وبعد تمكن طالبان من السيطرة على 90% من الأراضي الأفغانية، قامت معظم الأحزاب الشمالية بوضع يدها بيد مسعود ومن ثم ليكونوا مجموعة تحت اسم التحالف الشمالي. وشيئاً فشيئاً قامت الأحزاب من أماكن أخرى في البلاد بتقديم دعمهم في هذا المجال. ويتألف تحالف الشمال من زعماء الحرب وزعماء القبائل من مثل، الحجي رحيم، القائد بيرام كول، الحجي محمود محقق، الجنرال دوستم، غازي كبير مارزبان، القائد آتا محمد، والجنرال مالك. وكان هناك من المنطقة الشرقية؛ حجي عبد الله قادر، القائد هازرات علي، القائد جان وعدخان، وعبد الله وحيدي. وشارك من المناطق الشمالية الشرقية: القائد قاتراح، والقائد نجم الدين. من المقاطعة الجنوبية كان هناك، القائد قاري بابا، نورزي وهوتاك. وجاء من المقاطعات الغربية والجنوبية الغربية الجنرال إسماعيل خان، الدكتور إبراهيم وفضل كريم إيماك. ومن وسط أفغانستان، القائد أنواري، سعيد حسين عالمي بلخي، سعيد مصطفى كاظمي، أكبري، محمد علي جاود، كريم خيلي، القائد شير علم، وعبد الرسول سياف؛ كانوا جميعاً أعضاء في هذا الاتحاد.

وكما الاتحاد السوفياتي قبلهم، فشلت طالبان أيضاً بدحر مسعود أو الدخول إلى وادي بنجيشير من العام 1979 إلى العام 2001؛ حيث لم يتم إخضاع بنجيشير أبداً.

ومع مطلع الربيع من العام 2001، كانت أفغانستان بعيدة عن كونها شاطئ سلام. كانت هناك أربع قوى تحارب على النفوذ. بينما كانت طالبان تمسك بزمام السلطة في معظم البلاد، إلا أنها لم تكن جماعة متجانسة. كان هناك ما يلقب بأمير أفغانستان، الملاّ محمد عمر، الذي كان إسلامياً أصولياً عنيداً؛ بينما كان الآخرون قوميين أفغانيين راسخين. لقد كانت طالبان تعتمد على دعم باكستان بالدرجة الأولى خصوصاً بعد مطالبتها بحدود آمنة وبحكومة صورية على حدودها الغربية مع أفغانستان. لكن باكستان كانت قوة ممزقة على السواء. لذلك ففي العام 1998 قامت الولايات المتحدة بقطع الإعانة عنها بعد أن تجرأت باكستان في إجراء تجارب نووية. وبعد أن أرسى براويز مشرف نفوذه بعد انقلاب في العام 1999، فكّر بعض الرؤساء المتنفذين بأنه من الأفضل إبعاد أنفسهم عن طالبان في محاولة لوضع البلاد في وضع أقل تعصباً (أصولية).

وأما القوة الثانية التي فرضت نفسها فهي حركة المقاومة أو التحالف الشمالي بقيادة الزعيم ذي الشخصية الملفتة أحمد شاه مسعود، ومثله كان باقي الزعماء في القوة ذوي عرق طاجكستاني، الأقلية في أفغانستان. وقد كانوا يسيطرون على 10% من مساحة البلاد، إلا أنهم أجبروا على التراجع من قبل طالبان في العام 2000. "إلا أنه شكراً لشخصية مسعود ولشهرته الطيبة فقد كانا كقوة عسكرية وحيدة موجودة على الأرض تقف في وجه طالبان وترهبها" هذا ما قاله فيندريل، الذي كان الممثل الشخصي للجنرال العام للأمم المتحدة في أفغانستان.

وإلى جانب هذه القوى الثلاث كانت هناك تنظيم القاعدة، هذه الجماعة التي ولدت في أواخر السبعينيات 1970 في أفغانستان بعد الغزو الروسي، عندما بدأت الأصولية الإسلامية تأخذ مكانها هناك. وكان قائدها بن لادن الذي كان قد أبعد عن السودان وعاد إلى البلاد برفقة معاونيه المقربين. ومما ساعد طالبان على الوقوف ضد مسعود جماعة مخيم الإرهابيين المتدربين وأموال بن لادن ودعمه على السواء.

وفي أواخر الربيع، أصبحت الأمور تأخذ منحىً سيئاً أكثر من ذي قبل. حاول الملاّ محمد رباني الذي يعتبر الرجل الثاني الأكثر قوة في طالبان؛ حاول

وبسرية، تجميع القوة مع مسعود ويقول أحمد جمشيد سكرتير مسعود: "لقد أدرك بان بلادنا قد تمّ بيعها لتنظيم القاعدة وباكستان". إلا أنه وفي نيسان/ أبريل 2001 توفي رباني بعد إصابته بسرطان الكبد. ومن حينها وحسب ما ذكر فيندريل "لقد كانت القاعدة هي التي تسيِّر أمور طالبان وليس العكس".

وعلى ما يبدو فقد نالت باكستان ما يكفي من طالبان. فبعد أن أصبحت هدفاً لقتل رهائن من الأحزاب، حيث سقط العديد من الضحايا، وكان يتم إلقاؤهم في المساجد، تمّ اكتشاف أن القتلة هربوا إلى أفغانستان حيث مُنحوا المكان والأمان والحماية. وفي الواقع، فإن أحدهم كان يدير محلاً في كابول. وعندما أصرّ الرسميون الباكستانيون على وجوب تسليم المذنب إليهم، أدارت طالبان أذنها عن سماع ذلك. "لقد أعطيناهم قائمة بأسماء وصور ومحل مخيم التدريب الذي فيه يوجد هؤلاء الأتباع". هذا ما ذكره العميد جاقيد إقبال شيما، مسؤول الخلايا الإدارية للأزمات الوطنية". وتابع قائلاً: "إلا أنه لم يتم تسليمنا مفرد شخص". وقد أثار ذلك الباكستانيين.

وما فعلته طالبان بعد ذلك جعل العالم يصاب بالذهول. وباسم الدين قاموا بتفجير تمثاليْن لبوذا يبلغ عمرهما 1700 سنة في وادي باميان Bamiyan. وقد تدخل ممثلون عن الحكومة الباكستانية لدى ملاّ عمر للحؤول دون ذلك. وحينها نظر العالم بخوف كردة فعل على هذا التصرف حيال ما يمثل الحضارة الإنسانية، إلا أن هذه التوسلات لاقت آذاناً صمّاء.

وتدور الأعوام لتحارب القاعدة وطالبان ضد نفوذ مسعود لتدفعه إلى حدّ اليأس. التمس مسعود من ثم طالباً النجدة من الغرب. ويقول عبد الله عبد الله وهو من أقرب مساعدي مسعود: "لقد أخبرنا الأميركان وأخبرنا الجميع بأن القاعدة تعمل وفق مخطط يتخطى الحدود القومية". وفي نيسان/أبريل خاطب

مسعود البرلمان الأوروبي في ستراسبوغ، فرنسا، مناشداً مدّ يد المساعدة للتحالف الشمالي. ومنذراً الجميع من مغبة طالبان في حديث له مع أحد المراسلين: "إن لم يمدّ لنا بوش يد المساعدة، فإن هؤلاء الإرهابيين سيقومون بتخريب الولايات المتحدة وأوروبا في القريب العاجل". وإلى هذا الوقت والعالم يلمح كم كانت هذه الكلمات صادقة في نبوءتها.

وقد قال مسعود وبعد محادثات مع رئيسة البرلمان الأوروبي نيكول فونتين في ستراسبورغ: "نحن لسنا بحاجة إلى فرق عسكرية غربية أو مرشدين، فإن شعبنا على استعداد للقتال". وأصرّ على تدابير أشد صرامة حيال باكستان بوصفها المعين الأساسي لطالبان "بلا دعم باكستان لن يكون باستطاعة حملة طالبان العسكرية الاستمرار سنة". هذا ما أكد مسعود عليه محذراً بأن نظام كابول سيعمل على توسيع نفوذه ليشمل المنطقة كلها.

وضمّت فونتين صوتها إلى صوت مسعود في تحذيراته حيث قالت بأنها أرسلت لباكستان رسائل بالطرق الرسمية تقول فيها: "توقفوا عن مد يد المساعدة للنظام المتعصِّب والداعي إلى الجهل" في كابول. وتابعت قائلة: على أوروبا "منح الاعتراف السياسي للقائد مسعود ولكونه إسلامياً معتدلاً".

وفي رسالة مثيرة للعاطفة إلى حدٍّ كبير للحكومة الأميركية كتب مسعود: "إنني أرسل لكم اليوم برسالتي هذه بالنيابة عن الشعب الأفغاني المحب للحرية وللسلام والمجاهدين المقاتلين من أجل الحرية الذين قاموا بإيقاع الهزيمة بالاتحاد السوفياتي، وبالنيابة عن الرجال والنساء الذين ما زالوا يقاومون الضغوط والسطوة الأجنبية، وبالنيابة عن أكثر من مليون ونصف المليون من

الشهداء الأفغانيين الذين ضحوا بحياتهم للمحافظة على نفس القيم والأخلاقيات التي يتشارك بها الأميركان والأفغان على السواء. إنها لحظات استثنائية ومصيرية في تاريخ أفغانستان والعالم. إنها لحظات عبور أفغانستان من عتبة إلى أخرى للدخول في مرحلة صراع جديدة ومقاومة من أجل بقائها كشعب وكدولة مستقلين".

إلا أن مسعود لم يلقَ أية مساعدة طلبها بشكل ملحٍّ. وخلال زيارة القادة في التحالف الشمالي للولايات المتحدة، كان هؤلاء مقتنعين بلقاءات على أدنى مستويات إدارية إذ هم لم يحصلوا على الاعتراف الذي يستحقونه كحركة مقاومة شرعية ضد طالبان. وكل ما فعلته أميركا هو النظر بعين كليلة إلى منطقة كانت تؤذن بانفجار كقنبلة موقوتة، وكان على مسعود أن يبقى مقتنعاً بالمساعدات الهزيلة التي تقطر على أفغانستان من الهند وروسيا وإيران.

إلا أن فرصة سنحت لقاءً أعاد لمسعود الأمل في إمكانية دعم الولايات المتحدة له في مراميه. ففي حزيران/يونيو 2001 التقى مسعود بعبد الحق قائد تنظيم باشتون وقاعدتها في دبي، والذي كان أيضاً ضد طالبان. وكان برفقته السفير المتقاعد بيتر تومسن، والذي كان الرسول المعتمد لمصالح الولايات المتحدة لدى المقاومة الأفغانية. وكان من ضمنهم أيضاً جيمس ريتشي، الثري الأميركي في جمعية المصارف وجميعهم من المعارضين لطالبان. وبالطبع، فقد أبلغ تومسن فيما بعد بان الاجتماع لم يكن سوى تمنيات لهم بالتوفيق وأن يكونوا على حذر.

وعلى كل حال، فقد كان الغرض من الاجتماع العمل على إنشاء تحالف بين عبد الحق ومسعود. ويقول سيّد حسين أنوري الذي أصبح فيما بعد وزير الزراعة الأفغاني والذي كان حاضراً الاجتماع: "إن الفكرة في جلب عبد الحق

إلى داخل البلاد كانت للبدء في عملية المقاومة المسلحة في المنطقة الجنوبية الغربية". إلا أن مسعود كان ما زال يأمل في مساعدة مباشرة من واشنطن، وبسلامة نيته قام بإعطاء تومسن كل المعلومات التي يمتلكها حول تنظيم القاعدة وسأله أن يحملها إلى واشنطن. إلا أن تصورات واشنطن تجاه أفغانستان كانت واضحة. فإما أن تتدخل باكستان لتصريف الأمور، أو أن يثبت مسعود نفسه.

وعند تراجع الصيف فاسحاً المجال لبرودة الخريف، كان مسعود ذاك المقاتل التعب، إذ لم تساعده معاركه في الصيف من كسب أي موقع. وقد زاد من مأساته هزيمته في المحاولة التي بذلها لاستعادة مدينة طالوكان التي كان قد خسرها أمام طالبان في العام 2000. إلا أنه كان متفائلاً كما هو دائماً. فإن تأثير تنظيم القاعدة على طالبان برهن وبشكل كبير عن ضآلة شعبيتها بين الأفغان وخصوصاً في مناطق الحضر. ويتذكر فيندريل فيقول: "إنني أعتقد أن ما يقارب 20% فقط على الأغلب من السكان قاموا بدعم طالبان في أوائل الصيف". وأيضاً فإن حلفاءه القدامى مثل عبد الله رشيد دوستم سيد الحرب الشرس رجع إلى ساحة القتال. ويتذكر شاه باشا قائد المشاة في التحالف الشمالي قائلاً: "لقد كان يقول لنا بألاّ نقلق، لأننا سرعان ما تصبح كابول في قبضتنا".

وفي حوالى مطلع أيلول/سبتمبر قام مسعود باستدعاء جميع الرسميين من ذوي الأقدمية في جيشه في مركز القيادة لديه في خوجا باهودين، مصمماً على التخطيط لهجوم؛ إلا أن ظهير أكبر، أحد قادة الجيش لدى مسعود، أخبره عن مخابرة هاتفية عاجلة التي بعدها عدل عن رأيه. وذكر ظهير أكبر، حول ذلك قائلاً: "لقد أُخبر بأن تنظيم القاعدة وباكستان قامتا بنشر خمس فرق قتالية على الخطوط الأمامية". ومهما يكن من أمر، وعلى الرغم من إبلاغ

جنود التحالف الشمالي عن تجميع قوى طالبان والقاعدة، إلا أن الأمر لم يتعدَّ سوى بعض المناوشات ولم يحدث أي هجوم على نطاق واسع كما كان متوقعاً. "نحن كنا في حيرة وتساؤل وارتباك عندما لم يقوموا بالهجوم"، هذا ما قاله مصدر مخابراتي أفغاني رفيع المستوى مضيفاً: "وقد أظهرت اتصالات طالبان بأن على الأفراد الانتظار". وكان الجميع يتساءلون ماذا ينتظرون!

ولكن كانت طالبان تعلم ماذا يجري في الخفاء.

فقبل ثلاثة أسابيع كان صحفيان عربيان قد حطّا رحالهما في خوجا باهودين في انتظار إجراء مقابلة مع مسعود، مدّعين أنهما يمثلان مركز المراقبة الإسلامي في لندن، ومصطحبَيْن رسالة تعرّف بهما من رئيس إدارتها، ياسر السيدي. وقد مُنح الرجلان مروراً آمناً من قبل طالبان: "وقد قالا بأنهما يرغبان في كتابة تقرير عن الإسلام في أفغانستان" هذا ما استعادته ذاكرة فهيم داشتي الذي صنع أفلاماً حول التحالف الشمالي والذي يعمل كمحرر في جريدة كابول الأسبوعية. وأخذ الصحفيان ينتظران جواباً على طلبهما، وبعد مرور ثلاثة أسابيع على انتظارهما اشتد بهما الغضب، وأشارا من ثم للرسميين لدى مسعود في سبيل تعيين موعد لهما وإلا سيضطرا للمغادرة خلال 24 ساعة. ويتذكر سكرتير مسعود جمشيد فيقول: "لقد كانا مضطربين كثيراً وسريعي التوتر، وكانا يتوسلان إلينا".

وأخيراً تمّ تعيين موعد المقابلة في وقت متأخر من صباح الأحد في التاسع من أيلول/سبتمبر. وبينما كان داشتي يُسأل عن تسجيل اللقاء بواسطة آلة تصويره، جلس مسعود إلى جانب صديقه مسعود خليلي الذي قال: "لقد طلب مني القائد الجلوس معه والترجمة. وبعدها كنا سنغادر أنا وهو لتناول الغداء على نهر أوكسس".

ودخل الصحفيان الغرفة بكل هدوء لينصبا الكاميرا التلفزيونية. وعندما سُئلا

عن الصحيفة التي يمثلانها أجابا أنهما جاءا من قبل "المراكز الإسلامية".

وكما جاء لدى خليلي أن مسعود أراد أن يعرف الأسئلة التي سيطرحانها عليه إلا أن المقابلة بدأت في الحال وبدأا بالتسجيل. ويقول خليلي: "أنا أتذكر بأن من بين الخمسة عشر سؤالاً كان هناك ثمانية حول بن لادن، ثم نظرت إلى مسعود، لقد بدا غير مرتاح وكان هناك أمارات من الحيرة تعلو جبهته عوضاً عن تلك الطمأنينة التي تَعلو جبهته عادة، لكنه قال: حسناً فلنسجل". وعندما بدأ خليلي بترجمة السؤال الأول إلى "داري Dari"، كان داشتي ينظم الإضاءة في آلة تصويره. "حينها" يقول داشتي "شعرت بالانفجار".

لقد كانت القنبلة في الكاميرا، وقد انفجرت حالما بدأت الكاميرا بالعمل التي قضت على أحد المفجرين وأما الثاني فكان عربياً وقُتل ببندقية حارس مسعود عندما كان يحاول الفرار. لكن ذلك جاء متأخراً كثيراً. وفي الحال، أصيب مسعود بجراح قاتلة، وكان ينزف بغزارة. أما خليلي الذي نجا فكان اعتقاده بأن جواز سفره هو الذي أنقذ حياته، فقد كان في جيبه في أعلى صدره فوق موضع قلبه حائلاً دون نفاذ ست قطع حادة إلى قلبه. ويتذكر داشتي بأنه اندفع مباشرة إلى المروحية مع مسعود الذي كان قد أصيب بجراح مخيفة، وقد حلّقت بهما المروحية لتحط بهما في مستشفى في طاجكستان. وحالما وصلا كان القائد قد فارق الحياة.

وليست كغيرها من عمليات الاغتيال، فإن هذه العملية في قتل مسعود لم يثر حولها جدل. فمن الواضح، بأن القاتلين قدما من أوروبا، وكانا عضوين في جماعة متحالفة مع القاعدة. بينما كان أعداء مسعود ينتظرون بفارغ الصبر سماع نبأ موته. وخلال ساعات أذاع راديو طالبان على الناس النبأ: "لقد توفي والدكم. والآن ليس بإمكانكم مقاومتنا".

"إنهم بارعون" هذا ما قاله عضو في أركان الحرب لدى مسعود، ومتابعاً: "إن هجومهم تمّ توقيته لتنفذ بعدها عملية الاغتيال". وفي تلك الليلة قامت طالبان بتدمير جيش مسعود الذي قاتل ببسالة للمرة الأخيرة.

ولو أن مسعود لم يلاقِ حتفه في تلك العملية، فإنه ربما لم يكن طريق أفغانستان يسير بسهولة باتجاه العافية، كما لو كان موجوداً، ولَمَا كان الغرب وقف متيقظاً ليراقب كيف تسير الأمور وبصمت بهذه الفظاعة في أفغانستان. وفي جميع الاحتمالات، فإن كفاحه كان سيستمر حتى يشارك جميع الأفغانيين في هذا الكفاح لطرد طالبان. ولكان ربما أصبح رئيساً لوزراء أفغانستان اليوم، وهي المكانة التي كان يستحقها، أو أنه ربما لم يكن كذلك. وذلك لكونه من عرق طاجيكي (عشائر لأقليات أكثرها من السنَّة من الباشتان في أفغانستان)، لكان عليه في النهاية التضحية بشرفه بعد ذلك كله.

بعد موت مسعود، عادت أفغانستان لتكون دولة محتلة، دون أن يكون هناك بارقة أمل بأن يستعيدها التحالف الشمالي من باب أولى. ولوقت قصير، فقد قامت طالبان بالسيطرة ولوقت محدود سيطرة تامة مستعيرين وجه الإسلام حيناً، وأحياناً وجه أفغانستان الحضاري الموروث من أحقاب بعيدة. وكانوا غير راغبين وغير مذعنين لإجراء أي محادثات أو الوصول إلى حلٍّ وسط مع أي طرف أفغاني. ولكن لحسن الحظ لم يستمر هذا الوضع.

ففي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، الذي وضع بصمة خوف على ذاكرة العالم لا تمحى، كان صرح الحضارة البشرية الحديثة يقع تحت وطأة هجوم أعمى من قبل قوة إرهابية فوضوية مجنونة. فقد تمّ تدمير مركز التجارة العالمي في نيويورك سيتي بواسطة طائرتين نفاثتين اخترقتاه، وكانتا توجهان

من قبل القاعدة، ليقتل على الفور آلاف من موظفي المكاتب الأبرياء.

وكانت ردة فعل الولايات المتحدة سريعة، حيث أعلن الرئيس بوش أمام المسؤولين في أميركا الحرب على الإرهاب. فليس هناك مال أو تضحيات تعادل أو تكون أهم من ربح تلك المعركة. من الممكن ألا يكشف الأعداء عن وجوههم في هذه المعركة، إلا أن الأميركان هم على يقين أين هم متواجدون. كان هدف أميركا الأول الجبال الأفغانية الممتدة الشاهقة، حيث فيها جعل المشتبه الأول أسامة بن لادن سكنه. ورداً على رفض طالبان المتكرر تسليم بن لادن وجماعته، وإنهاء دعمهم للإرهاب الدولي، قامت الولايات المتحدة وشركاؤها في مكافحة الإرهاب بشن هجوم عسكري في السابع من تشرين الأول/أكتوبر 2001 وهدفها الفصائل الإرهابية ومختلف جماعات طالبان العسكرية والسياسية في أفغانستان. وسرعان ما انسحقت طالبان تحت الضغط العسكري الأميركي وقوى المعارضة لطالبان لتسقط كابول في الثالث عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 2001.

وفي الثاني والعشرين من كانون الأول/ديسمبر 2001 تجمع في كابول حوالى 1.575 من ممثلي الأفغان الذين يمثلون جميع الأقاليم والأعراق من كلا الجنسين وذلك ضمن مجلس عرفي لاختيار حامد كارزاي كرئيس لهم في مرحلة انتقالية.

وبعد عامين، وفي التاسع من تشرين الأول/أكتوبر 2004 أجرى الأفغانيون انتخاباتهم الرئاسية القومية/الوطنية الديموقراطية الأولى. وقد بلغ عدد المقترعين 8 مليون أفغاني 41% منهم كانوا من النساء. وتمّ إعلان حامد كارزاي كفائز رسمي وتمّت مبايعته باحتفال رسمي في السابع من كانون الأول/ديسمبر لمدة خمس سنوات كأول رئيس لأفغانستان تمّ انتخابه بطريقة ديموقراطية. وفي الثالث والعشرين من كانون الأول/ديسمبر 2004 أعلن كارزاي تعيين مجلس للوزراء مسمياً ثلاث نساء وزيرات، لينقل أفغانستان على طريق العافية.

ومن الملاحظ أنه وإلى الآن فإن سياسة كارزاي مقصرة في تحقيق ما كانت في صدد إعادة بنائه بعد ثلاثة عقود من الحروب، وفي تأنيها، وفي إيجاد

مواطن أفغاني عادي يحس بالأمان.

ويلخص دبلوماسي أوروبي بارز ذاك بمهارة بقوله:

"عشائر مختلفة، لوردات زعماء حرب من مختلف المشارب، تطلعات الغرب، تطلعات شعبه. وأن يبقى على قيد الحياة هو بحدّ ذاته مشكلة".

وما زالت أفغانستان تحت المجهر، في أعقاب هجوم إرهابي على أميركا. ومن سخرية الأقدار، فإن جهود مسعود غير المجدية في تحويل الأنظار في الغرب إلى مشكلة بلاده أبدت نتائجها فقط بعد موته من خلال التفجير الإرهابي. حتى إن نبوءاته التحذيرية في هجوم على الولايات المتحدة وعلى أوروبا ذهبت أدراجها ولم تجعلهم يجتمعون لتدارس ذلك. وجدير بالذكر أن ذلك كان ضريبته التضحية بحياة نابغة وطني من أجل دعوة العالم للاستيقاظ. وفي مثل هذه الظروف، فإننا نود الإشارة إلى أن أحمد شاه مسعود، قائد مجاهدي التحالف الشمالي والابن الحقيقي لأفغانستان والبطل العظيم في شعبه، لم يذهب موته هباءً بعد كل شيء.

آبراهام لنكولن

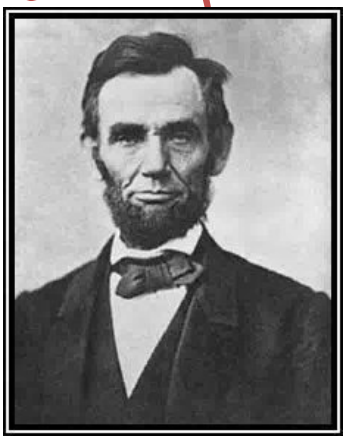

"هل تعلم يا كروك بأن لديَّ إحساس بأن هناك رجالاً يريدون القضاء عليّ؟!! وليس لديَّ من شك بأنهم سيفعلون ذلك.. وإنني على يقين بأنه ما من شخص باستطاعته النجاة بحياته بعد ارتكابه تلك الفعلة التي من الصعب الحؤول دونها".

هكذا تحدّث أبراهام لنكولن إلى حارسه الشخصي وليام هـ. كروك، في الرابع عشر من نيسان/أبريل سنة 1865، ومن ثم وفي اليوم نفسه تمّ إطلاق النار عليه وبلا رحمة من قبل جون ويلكس بووث، وأتت الطلقة في رأسه، مخترقة مؤخرته ومستقرة خلف عينه اليمنى. ليدخل الرئيس في الحال في غيبوبة مصارعاً الحياة على مدى تسع ساعات طوال، قبل استسلامه لجراحه.

وبذلك فقد العالم رئيس الولايات المتحدة السادس عشر.

ويمكن القول إنه وفي مواجهة للأمور، وعلى ما يبدو إن ما ذهب بحياة لنكولن هو إعلانه الرسمي تحرير العبيد. وكردّة فعل غاضبة على عزمه على هذا القرار، قام جون بووث، المواطن من المنطقة الجنوبية والمتعصب عرقياً، بأخذ بندقية، وفعل ما يود ربما القيام به الآلاف من الجنوبيين معتقداً في لحظة من اللحظات بأنه بذلك كان يقدم جميلاً لهم. إلا أن ما حصل هو

العكس، لأنه وبوفاة الرئيس، فقد أصبح احتمال العيش بإلفة وسلام مع الشهامة والنخوة ميتاً أيضاً.

كان قد قام لنكولن بتحذير الجنوبيين في خطاب له ألقاه خلال احتفال بقوله: "أصدقائي؛ أيها القرويون الساخطون، إن قرار بدء الحرب الأهلية هو قراركم وليس قراري، فالحكومة لن تقوم بالإغارة عليكم؛ وأنتم ليس لديكم قسم أقسمتموه أمام الله للقضاء على الحكومة، بينما لديَّ أنا قسم وقور أقسمت به أمام الله والذي أرعاه وأحميه وأدافع عنه".

لقد ارتبط إعلان لنكولن في تحرير الأميركان الأفريقيين باسمه. ومن الغريب، أن تخوم الولايات التي كانت تسمح بالاسترقاق/بالعبودية وكانت خاضعة لسلطة الاتحاد كانت مستثناة من أحكام العتق لأنها لم يكن لها تغطية لأية تدابير حربية. وفي يومه الأول، الأول من كانون الثاني/يناير 1863، حرّر البيان فقط القليل من العبيد الهاربين، ونال الآلاف منهم الحرية مع تحرك جيوش الاتحاد صوب الجنوب. وأصبح البيان الدافع لوضع البنود الثلاثة عشر للإصلاحات ضمن دستور الولايات المتحدة التي ألغت الاستعباد. وغنيّ عن القول إن لنكولن كان واحداً من أهم المؤسسين لتلك الإصلاحات. وهو يقول: "لم أشعر بحياتي أنني كنت على صواب كما شعرت عند توقيعي على هذه الورقة".

وأقل ما يمكن أنه خمّن بأن هذا التوقيع سوف يؤدي به إلى موته.

وفي مساء الرابع عشر من نيسان/أبريل قامت زوجته ماري تود بالتوسل إليه في عدم الذهاب لحضور إحدى المسرحيات في ذلك المساء، قائلة بأنها لم تكن تشعر بالاطمئنان لذلك. إلا أن لنكولن كان قد واجه يوماً متعباً وأحس بأنه بحاجة إلى شيء من الضحك للترويح عن نفسه. وقد لانت ماري وذهبت معه. وكان في جدول الجنرال غرانت الذي كان قد خرج للتو منتصراً في الحرب

على قوى الجنوب التي حاصرته قبل خمسة أيام مضت في أبوماتوكس، كان في جدوله مرافقة لنكولن، إلا أنه وزوجته عدلا عن تلبية الدعوة لأنهما كانا سيستقلان قطار المساء متوجهين خارج البلدة لزيارة أولادهما، على الرغم من أن السبب الحقيقي لإلغاء الدعوة ربما كان بسبب عدم اتفاق زوجته اتفاقاً تاماً مع رأي السيدة الأولى السيدة ماري تود لنكولن. إلا أنه ومن المهم بأن هذا القرار جعل غرانت يتفادى عملية اغتياله، حيث شملت خطة بووث اغتيال الجنرال أيضاً. وبدلاً عنه فقد كان مع لنكولن في مشاهدة المسرحية زوجان شابان هما كلارا هاريس، ابنة سيناتور وخطيبها الميجور هنري رثبون.

وقد قَدِم هؤلاء الأربعة متأخرين قليلاً عن موعد بداية العرض حيث كانت المسرحية قد بدأت لتوها. وعند تقدم الموكب الرئاسي باتجاه مواضع جلوسهم، توقف العرض وعزفت الأوركسترا أنشودة "مرحباً بالرئيس" وقام الحاضرون الذين بلغ عددهم الآلاف بالتصفيق احتراماً، ليتم من ثم متابعة المسرحية" ابن عمنا الأميركي".

وخلال الفترة الفاصلة في المسرحية مشى جون باركر، حارس لنكولن إلى صالون تالتفال ستار Taltavul Star المجاور لاحتساء بعض الشراب. وكأن القدر قد تآمر على لنكولن مع بووث، فعند بدء الفصل الثالث من المسرحية لم يكن جون باركر حاضراً في موقعه.

وعندما تسلّل بووث إلى الكابينة الرئاسية لم يكن هناك من يمنعه، فقد كان مألوفاً حضوره في هذا المسرح وفوق الشبهات. وكان متسلحاً بمسدس ذي طلقة واحدة وبسكين صيد. وانتظر بووث إلى حين مرور المقطع الأكثر فكاهة في المسرحية، متخيلاً بأن أصوات ضحك الحاضرين سيطغى على صوت

إطلاق النار.

عندما بدأ الممثل هاري هوك يقول على المسرح: "أنت لا تعرف سلوك المجتمع الفاضل هنا؟ حسناً أظن أنني أعلم بما فيه الكفاية لتقلب رأساً على عقب أيها... العتيق..."

جاء بووث من خلف لنكولن وأطلق النار عليه على نقطة ضمن مجال معين صارخاً: "هذا مصير الطاغية" لتنفذ الرصاصة التي أطلقت من على بعد إنشات (سنتيمترات) قليلة خلف رأس لنكولن لتخترق أذنه اليسرى مسافة 7 إنشات ونصف الإنش (19 سم) داخل دماغه. وعندما تهاوى الرئيس إلى الأمام، وصرخت زوجته، اشتبك الضابط راثبون مع بووث بعراك لفترة قصيرة. ومهما يكن من أمر، فقد سحب بووث مدية الصيد، ليشطب ذراع الضابط وليقفز 11 قدماً (330 سم) خارج مقصورة رسميي الدولة إلى المسرح. وعلى الرغم من كسر عظم ساقه فقد سار وهو يعرج عبر المسرح ليتسلّل من الباب الخلفي إلى الخارج، ممتطياً صهوة فرسه ولائذاً بالفرار خارج المدينة على مرأى من عيون ألف شخص.

ولكن كانت هذه إحدى الخطط لقتل بعض شخصيات الدولة ليلاً، فقريباً من زمن العملية السابقة وبواسطة أتزيرودت تمّ التخطيط لقتل نائب الرئيس جونسون في منزله. وفي اللحظة الأخيرة أصابه الهلع فعدل عن عملية الاغتيال، وفي مكان آخر، قام بوويل بطعن السكرتير في الدولة وليام سيورد، إلا أنه أخفق في قتله.

وبالعودة، فقد قام صديق بووث في المؤامرة هيرولد بالهرب من العاصمة مستعملاً نفس الجسر وهو Navy Yard عبر نهر البوتوماك Potomac River الذي هرب عبره بووث. ولاحقاً في تلك الليلة، التقى كلاهما في الميري لاند وتوقفا عند حانة السيدة سورات في سوراتفيل، واحتسى كلاهما المشروب المفضل. وقد خفّف المشروب المفضل من آلام بووث، إلا أنه وفي ذاك الوقت

لم يكن واعياً بأن عمليات الاغتيال الأخرى قد فشلت. وبعد بضع ساعات وصل الاثنان إلى منزل الدكتور ماد جيبث الذي باشر بتجبيس ساق بووث المكسورة. وبعد أن استراح الاثنان ركبا بعيداً عن منطقة الجنوب وذلك في الخامس عشر من نيسان/أبريل إلى أن قبضت عليهما السلطة الفدرالية في ميناء رويال في الصباح الباكر في 26 نيسان/أبريل منزويين في مخزن للحبوب وسرعان ما تمّ حصار هيرولد وبسهولة. إلا أن بووث قاوم إلى حين، إلى أن تمّ إشعال النار في المخزن وتمّ إطلاق النار عليه ليقع ميتاً.وقد فتشت جثته وعثر على مذكراته في جيبه، وتمّ إرسال الجثة إلى واشنطن للتحقق من هويته ولتشريحها.

وهناك ملاحظات في مذكراته تعطينا فكرة حول عقله المُعَذَّب حيث يقول: "إلى اليوم لم يكن هناك من فكرة أبداً حول تقديم تضحية مقابل الأخطاء التي ترتكب في حق بلادنا. وعلى مدى ستة أشهر كنا نعمل على التخطيط لإلقاء القبض على أحدهم، ولكن ذهبت جهودنا أدراج الرياح، وهناك أمور لا بد أن يكون حسم في شأنها. ولكن الإخفاق في أدائها هو بسبب الآخرين الذين لم يعملوا لبلدهم. ولكن على الذين يعملون من أجل بلدهم أن يضربوا الضربة المناسبة بكل قواهم، وها أنا أضرب بجرأة، وليس كما جاء في الورقة التي وقّعها. مشيت بخطى ثابتة مخترقاً الآلاف من أصدقائه، وأُوقفت، ولكنني سارعت الخطى. كان عقيد بجانبه. وقلت صارخاً: "هذا مصير الطغاة" قبل أن أطلق النار. وعندما قفزت كسرت ساقي وتجاوزت كل رجال حرسه، وركبت تلك الليلة مسافة ستين ميلاً وعظم ساقي يمزق اللحم كلما قفزت. لن يكون باستطاعتي التأسف على ذلك أبداً؛ فعلى الرغم من كرهنا للقتل فمصدر متاعب بلادنا كلها هو، وقد هيأني الله لأكون واسطة لإنزال العقاب به. فالبلاد ليست كما كانت من ذي قبل. وبعد ملاحقتي ككلب عبر المستنقعات والغابات، وبعد أن تمّت مطاردتي في الليلة الأخيرة من قبل سفن حربية أُجبرت أن أعود مبللاً وأكاد أموت من البرد والجوع وكل أيادي الرجال تدفعني، وأنا هنا في حالة يأس. ولماذا؟!! لأنني فعلت الفعل الذي جعل من بروتوس بطلاً، والذي جعل تيل Tell بطلاً. وأنا ما زلت، ومن أجل أن أصرع طاغية مستبداً لم تشهدوا مثله، فإنني أُعْتبر كسفاحٍ عادي. إن عملي هو أنقى من أعمالهم. فإن

واحدهم أراد أن يكون بنفسه عظيماً، والآخر لم يفكر ببلاده بل بانتقامه الشخصي. ولكنني فعلت ذلك دون مقابل. ليس لديَّ خطأ شخصي. لقد ضربت من أجل بلادي ومن أجل بلادي فقط، البلاد الواقعة تحت وطأة طغيانه، وإنني ما زلت ممتنّاً للأيادي الباردة التي امتدّت لي.

هذا وقد كان بانتظار المتعاونين مع بووث في المؤامرة نهايات مختلفة. فقد تمّ النظر في دعاويهم من قبل المحكمة العسكرية وحكم عليهم بأنهم مذنبون. لقد جرت المحاولة الأولى في العاشر من أيار/مايو وانتهت في الثلاثين من حزيران/يونيو. وتمّ شنق كل من السيدة سورات، بويل، آتزيرودت وهيرولد وذلك في السابع من تموز/يوليو 1865. وفي الواقع، فقد كانت السيدة سورات هي المرأة الأميركية الأولى التي يُنفذ بها حكم الشنق. وأما كلٌّ من الدكتور ماد، وجيبث وأولوغلن وأرنولد فقد تمّ الحكم عليهم بالسجن مدى العمر. وبالنسبة لسبانغلر، المسؤول عن أمن المسرح في مسرح فورد الذي اتهم على أنه ساعد بووث على الهرب، فقد حكم عليه بالسجن ست سنوات. وبالنسبة للدكتور ماد وأرنولد وسبانغلر فقد تمّ العفو عنهم جميعاً من قبل الرئيس أندرو جونسون في أوائل العام 1869 وأما أولوغلن فقد توفي بعد إصابته بالحمى الصفراء في السجن في 23 أيلول/سبتمبر 1867.

وكما في جميع عمليات الاغتيال، فإن الغموض قد أحاط أيضاً بهذه العملية، لقد كان بووث الوجه البشع لهذه الفعلة. ولكن هل كان ويلكس بووث ورفاقه في المؤامرة هم فقط الذين قاموا بعملية الاغتيال؟ أم أنهم كانوا أدوات ضمن مشروع لمخطَّط أكبر. وعلى مدى تلك السنوات عدد من الآراء المختلفة طفت على السطح – كلٌّ رأى من زاويته الخاصة من الذي رتّب لهذه الجريمة البشعة.

إن الرأي الأول يتهم أندرو جونسون، الذي تمّ تسجيل اسمه في التاريخ كأول رئيس يمكن اتهامه بالخيانة. إذ إن جونسون لم يكن مع لنكولن على

وفاق، حيث بدأ بداية غير موفقة من خلال خطاب مخمور في يوم الاحتفال الرسمي بتنصيب لنكولن. وقد كان مهمشاً، وموضوعاً جانباً من قبل المواطنين الأميركان من الدرجة الأولى.

وهناك أصابع اتهام تشير بقوة إلى جونسون. فقبل ساعات قليلة من الاغتيال كان بووث حاضراً في فندق واشنطن (منزل نائب الرئيس جونسون)، تاركاً ملاحظة يقول فيها: "لم أكن أريد إزعاجك، هل أنت في المنزل؟" موقَّعةً باسم ويلكس بووث. ولم يكن جونسون أو سكرتيره الخاص ويلام براونينغ في المنزل، وقد شهد براونينغ بعد حلف اليمين القانونية بأنه وجد الرسالة في صندوقه في وقت متأخر في ذاك النهار.

وهناك من هؤلاء الذين قالوا بأن جونسون وبووث يعرفان بعضهما كل المعرفة. فقد التقيا في مدينة ناشفيل في أوائل العام 1864 وذلك عندما كان بووث مساهماً في افتتاح مسرح وود الجديد. ومن الواضح بأن كليهما كانا (كان) لديهما عشيقتان هما أختان، لذا كانا دائماً يقضيان وقتاً في صحبة بعضهما بعضاً.

لقد شعرت ماري تود لنكولن شعوراً جارفاً بتورط جونسون، وقد كتبت إلى صديقتها سالي أورني رسالة في الخامس عشر من آذار/مارس 1866 تقول لها فيها: "ذلك البائس السكران جونسون هو على علم بقتل زوجي – فلِمَ تمّ العثور على تلك البطاقة التي كتبها بووث في صندوقه. إن هناك معرفة بينهما بالتأكيد – لقد كان لديَّ انطباع عميق بفكرة جارفة بأنه متفاهم تفاهماً مع المتآمرين، وهم يعرفون رجلهم، تماماً كما نعرف أنا وأنت أننا أحياء، وجونسون له يدّ في كل ذلك..."

كما أن العديد من أعضاء الكونغرس يعتقدون بأن جونسون هو متورط وأن اللجنة الخاصة بعمليات الاغتيال عقدت جلسة لإجراء التحقيقات فيما إذا كانت هناك دلائل تشير إلى جونسون. ولم يكشف عن أية دلائل على ذلك، إلا أن

الاعتقاد لدى بعض الأميركيين استمر عبر السنوات بتورط جونسون في عملية اغتيال الرئيس.

ومن جانب آخر، فإن ما يعتقد حول المؤامرة وببساطة، كما يقال، تعتمد أن بووث هو العقل المدبر في عملية الاغتيال، وليس ألعوبة في أيدي آخرين يقوم فقط بتنفيذ تعليماتهم. والمؤمنون بهذا القول يرون أن بووث كان مواطناً جنوبياً وعنصرياً. لقد خطط في البدء ليخطف الرئيس ويجعله رهينة إلى حين إطلاق سراح سجناء الحرب الأهلية الجنوبيون. وفي السابع عشر من آذار/ مارس 1865، أزمع بووث مع جماعة آخرين من المتآمرين على خطف لنكولن من المستشفى الواقع في ضاحية واشنطن حيث كان في برنامج لنكولن حضور إحدى المسرحيات. لكن المخطط خاب لأن الرئيس غيّر خطته، وكان للتاريخ مجرى آخر.

في التاسع من نيسان/أبريل 1865، تمّ خضوع الجنرال لي للجنرال أوليسيس غرانت في أبوماتوكس. وفقط بعد مضي يومين على ذلك، تحدث لنكولن إلى جمهور محتشد خارج البيت الأبيض، واقترح بأن يسمح لفئة معينة من السود بحقوق الاقتراع. ومن الواضح بأن بووث كان حاضراً ضمن المحتشدين وكان ساخطاً على ما سمعه. وقد تحولت أفكاره باتجاه عملية اغتيال تنفيساً عن غضبه.

وفي صباح الرابع عشر من نيسان/أبريل 1865 صادف أن مرّ ويلكس بووث على مسرح فورد وعلم بحضور الرئيس والجنرال غرانت في تلك الليلة وعاقداً اجتماعاً أخيراً مع أصدقائه في المؤامرة، باشر بووث برسم الخطط. كان على آزيرودت قتل نائب الرئيس أندرو جونسون، وبوويل قتل السكرتير للبيت الأبيض في الولايات وليام سيوارد. وكان على هارولد مرافقة بوويل. وجميع الخطط حول تلك الانقضاضات تمّ التخطيط لها في تلك الليلة في الوقت نفسه. لأنه وبالنسبة لبووث فإن ضعف الحكومة سيساعد الجنرال لي على الرجوع إلى الجنوب.

أما الرأي الثالث فقد طرحه أوتّو إيسنشمل، الذي حقق في عملية اغتيال لنكولن، وقد بسّط رأيه في كتابه "لماذا قتل لنكولن؟" الذي ذكر فيه تورط

السكرتير الحربي أدوين ستنتون في تلك العملية. وبالنسبة لإيسنشمل فإن باقي الآراء تفسر عملية الاغتيال تفسيراً غير مقنع. حيث افترض أن الجنرال غرانت لم يلغِ مشروعه بالذهاب إلى المسرح في الرابع عشر من نيسان/أبريل بلا أية أوامر، والشخص الوحيد الذي يتلقى منه الأوامر غير لنكولن هو ستنتون. ويمضي إيسنشمل في تعليله بأن ستنتون اتخذ قرارات تتعلق بما بعد عملية القتل التي ورطته وذلك يتضح من خلال عدة أمور وهي: أولاً، لقد ترك طريقاً خارج واشنطن بلا حراسة، وهي الطريق التي صادف أن بووث سلكها. ثانياً، إن جون باركر حارس الرئيس الخاص لم تتم معاقبته أبداً وذلك بسبب مغادرته لمركزه وذهابه لاحتساء مشروب أثناء تأديته واجبه. ثالثاً، إن المشتركين الرئيسيين بالمؤامرة تمّ إبعادهم إلى سجون بعيدة وتمّ القضاء عليهم وبهذا لن يكون هناك من يشير بإصبع الاتهام ضد أي شخص.

وقد كان أيضاً لرأي نيف الكيميائي دلائله التي بنى عليها اتهامه ضد ستنتون عند عثوره على رسائل مُشفّرة يعتقد بأنها كتبت في العام 1868 من قبل لافاييت بيكر، الرئيس في البوليس السري. وقد ورطته هذه الرسائل بالإضافة إلى السكرتير الحربي وآخرين من ضمنهم رجال من الكونغرس.

إلا أن رأيه هذا لم يذهب إلى أبعد من ذلك. وفي الحقيقة فقد عجز عن إحداث أثر في النفس. لقد تمّ استجواب المتآمرين خلال التحقيق وأعطوا فرصة سانحة لتسمية ستنتون أو على الأقل أسماء أخرى التي تقود على الأقل إلى ستنتون. والأبعد من ذلك، وبعد العفو عنهم وإطلاق سراحهم من السجن، لم يتفوه سبانغلر أو ماد ولا أرنولد مطلقاً بأي شيء. ويذهب الواحد إلى القول بأن الرجال الذين يكرهون الوحدة، لن يدعوا الفرصة في الارتداد

على رئيس الولايات من خلال توريط ستنتون، أحد الرجال الأداة في هزيمة الجنوب.

يقول الدكتور ويليام هانشيت في كلمات أخيرة في كتابه "مؤامرات اغتيال لنكولن": "لن يكون لنكولن ليسرّ بالمبالغين وبمدّعي الدين ليكال المديح باسمه من خلال العديد من الأميركيين. ومن الممكن أنه سيذكر ببعض الحكايات والنوادر التي تكشف عن بطلان الكثير من المبالغات. ولكن الواحد يتوقع أنه لو علم ما كتب عن الاعتقاد بتورط سكرتيره الحربي بموته، سيغدو وبكل بساطة غاضباً".

وللاقتصاديين بالطبع آراء أخرى حول عملية الاغتيال – فهم يعتقدون بأن لنكولن كان قد تم اغتياله على يد جماعة دولية من أصحاب المصارف ذات النفوذ! ولكن لماذا؟ وببساطة لأنه كان بحاجة إلى المال لتمويل حربه الأهلية. وقد كان وبكل وضوح يُمْنح القروض بنسب تتجاوز الحدود من البنوك في أوروبا. ولكن عوضاً عن ذلك، وجد لنكولن وسائل أخرى لتمويل عملياته القتالية ضد الجنوب. وبقيادة، روتشيلد، فقد عارض أصحاب المصارف سياسة لنكولن تلك. وفي ستينيات القرن التاسع عشر اعتقد بعض الرجال الإنكليز بأن التجارة البريطانية الحرّة والاحتكار الصناعي والعبودية الإنسانية مضوا معاً ليشكلوا دوافع لقتل لنكولن".

إن سياسة لنكولن لما بعد الحرب الأهلية حطمت أحلام روتشيلد التجارية. وكواحدة من مخططات لنكولن، لما بعد الحرب، فإن سياسة إعادة البناء سوف تساعد في البدء ثانية بالاهتمام بالمنتجات الزراعية. ومن ناحية أخرى، فإن آل روتشيلد كانوا يتوقعون أسعار عالية ناشئة بسبب سياسة إعادة البناء

المضنية باتجاه الجنوب. وكما كانوا يرون، فقد كان لنكولن يقتلع النظام المرعي في الأمور. لذا وفي سبيل ذلك، اجتمع رجال المصارف هؤلاء معاً، واستأجروا بووث إلى جانب أصحابه المتآمرين ليجعلوه يرتكب الجريمة بأعصاب باردة. وكان الغرض وكما هو واضح إضعاف الولايات المتحدة، وبذلك تمكن روتشيلد من السيطرة على اقتصادها. وقد تمّ نشر مقالة تحت عنوان "خطة روتشيلد الدولية لقتل لنكولن" وذلك في التاسع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر 1976 في New Solidarity.

وهناك اتجاه آخر يلقي اللوم على كنيسة الكاثوليك في عملية الاغتيال. فقد كشف القس السابق شارلز شينيكي في كتابه "خمسون سنة في كنيسة روما" بأن لنكولن كان ضحية تآمر الكنيسة الكاثوليكية الكبيرة. وقد تمسك بأن جيفرسون دافيس كان قد عرض مبلغاً وقدره 1.000.000 دولار إذا أقدم أحدهم على قتل مُؤلف كتاب سفك الدماء. وقد كتب وبوقاحة في كتابه بأن "... الرئيس أبراهام لينكولن تمّ اغتياله بواسطة قساوسة وآباء روما". وقد حدث في العام 1856 أن قام لنكولن بالدفاع عن شينكي في المحكمة. وبعد جدال مع مطرانه، قام بالادعاء بسبب افتراء أحد أصدقاء المطران. وتمّ سماع حيثيات القضية، وعمل لنكولن على تسوية متوازنة، إلا أن شينكي اعتبر بأن ذلك يمثل انتصاراً معنوياً على الكنيسة، واعتقد بأن الآباء قادوا تلك التسوية ضد لنكولن.

وهناك كتّاب آخرون شاركوا شينكي في وجهة نظره من خلال كتب لهم. فقد كتب إيمّيت ماك لوغلن في كتابه "الجدل حول عملية اغتيال أبراهام لنكولن" بأن الغالبية العظمى من الأميركان الكاثوليك يفضلون الاسترقاق. وقد دعّم رأيه بكلمات قوية حيث ذكر بأن الكنيسة "هي متورطة في عدد كبير من الالتماسات في عزل إلزامي لرؤساء الدولة الذين تدينهم".

كان الرأي الأكثر احتمالاً طبعاً أن اغتيال لنكولن كان نتيجة لتحالف تآمري. وقد برز الرأي على الغالب مباشرة بعد وفاته. فإن قاتله، بووث، لم يلجأ إلى

محاولة إخفاء تعاطفه مع التحالفات الجنوبية وعنصريته الصريحة المطلقة.

وعلى مدى الحرب، فقد كان لنكولن يترأس قائمة بأهداف الجنوبيين. والأكثر وأنه وبعد إخفاق الائتلاف قام دالفرين بالإغارة على ريتشموند والتي وافق عليها لنكولن نفسه. وقد توفي الكولونيل دالفرين في ذلك الهجوم وعاجلاً أصبح معروفاً بأن لنكولن قرر اتخاذ الخطوات اللازمة لإحراز النصر، بما في ذلك القضاء على رئيس التحالف جيفرسون دافيس. ويعتقد الداعمون لهذا الرأي بأن سكرتير الولايات المتحالفة، جوده بنجامين، لعب دوراً أساسياً في عملية الاغتيال. فهو فرّ هارباً إلى إنكلترا، ومارس فيها القضاء وتوفي لاحقاً في باريس. والمثير للاهتمام بأنه كان العضو الوحيد في حكومة التحالف الذي لم يرجع مطلقاً إلى الولايات المتحدة.

وهذه نظرية تدعي بأن بووث يمثل الشخصية المركزية في عملية خطف وقتل الرئيس. وبعد سقوط مدينة ريشموند في يد الاتحاديين، قام المتحالفون بالتخطيط لخطف لنكولن. وقد أخفق المخطط نتيجة للتغير الذي حدث في برنامج الرئيس، وتبع ذلك محاولة لتفجير البيت الأبيض وذلك في العاشر من نيسان/أبريل إلا أنه تمّ القبض على توماس ف. هنري، الخبير بالمتفجرات، عندما كان في طريقه إلى العاصمة. ولم يكن ليمضي أربعة أيام حتى أحدث بووث ما غيّر وجه التاريخ بإطلاقه النار على لنكولن في وسط حشد من الناس.

لقد مضت عملية اغتيال أبراهام لنكولن وخلال 136 عاماً ضمن مداولات متعددة. وكما رأينا ومباشرة وبعد عملية القتل فإن المقبول وعلى نطاق واسع هو تورط زعماء التحالف في هذه المؤامرة الكبيرة. وحوالى مُنقَلب القرن فإن

الرأي في عملية تآمرية هو الذي أخذ حيّزه الواسع والأكثر بروزاً. وقد ظهرت في الثلاثينيات برزت نظرية إيسنشمل التآمرية مع نشر كتاب "لماذا تمّ اغتيال لنكولن". بالإضافة إلى ذلك، ومع مرور الأعوام كان هناك نظريات أحاطت بعملية مؤامرات غريبة غير مألوفة. ومع مرور الوقت، بقي هناك واحدٌ ثابت: لقد أصبح لنكولن وسيبقى الأيقونة الأميركية ويثنى عليه ويعطى مكانة بسبب إنقاذه الشعب من الانقسام ومن الاندثار الأخلاقي.

وبالعودة؛ وبعد إطلاق النار عليه، تمّ حمل لنكولن إلى منزل بيترسون، منزل على أطراف الشارع، حيث تمدد غائباً عن الوعي على مدى تسع ساعات. وتمّ إعلان وفاته في الساعة 7:22 قبل الظهر في الخامس عشر من نيسان/أبريل العام 1865. وبينما كان الشعب غارقاً في حزنه حمله قطار في جنازة إلى سبرنغ فلد في إيليون حيث دفن هناك.

لقد غيّبت عملية الاغتيال وجهاً من أعظم الوجوه في ذاك القرن. ومع مرور الزمن، غدا غيابه أعظم ومكانته أسمى في الوجود الإنساني. لم يكن هو الرجل الذي غيّر صورة أميركا كشعب يعمل في تجارة الرق أو يبقي على العبودية إلى صورة شعب يسعى إلى المساواة ويحب الحرية. ولكنه كان أيضاً الإنسان الذي تجرأ وكسر أغلال الملايين من العبيد الذين هم اليوم، كرجال ونساء أحرار إنما يمثلون وجه أميركا كمجتمع متعدد الحضارات ويتمتع بالمساواة.

ولد أبراهام لنكولن في الثاني عشر من شباط/فبراير 1809 في كابين شبيه بغرفة منعزلة في مزرعة سنكينغ سبرنغ وتبلغ مساحتها 348 فداناً، الواقعة في الجزء الجنوبي الشرقي من إقليم هاردن في كنتاكي المعتبرة حدوداً متاخمة لمزرعة توماس لنكولن ونانسي هانكس. لم يكن والدا لنكولن متعلمين. كانا مزارعيْن أميين. وكان توماس لنكولن مواطناً محترماً على نحو كبير وثرياً إلى حدٍّ ما في بلدة خلف كنتاكي. وينتمي والداه إلى جماعة انفصلوا عن كنيسة كبيرة لأنهم رفضوا دعم العبودية. من هنا فقد عاش لنكولن ومنذ فترة صغره

في أجواء تعارض العبودية، إلا أنه لم يشارك أبداً والديه في أية كنيسة أخرى، وكشأن أي معارض للدين كان لنكولن يسخر من الدين. وقد بلغ مجمل مدة دراسته الأساسية ثمانية عشر شهراً حيث كان فيها يتلقى التعليم على يد مدرسين غير رسميين. وقام من ثم بتعليم نفسه بنفسه من خلال القراءة والأخذ من كل كتاب بإمكانه استعارته. وبرع بالإنجيل وفي أعمال ويليام شكسبير وبالتاريخ الإنكليزي والأميركي وقام بتطوير أساليب كتابة وقراءات بسيطة ومحببة والتي تحتل مكانة استثنائية في التاريخ.

وفي العام 1830 واجه لنكولن صعوبات اقتصادية وفي مسألة أحقية الأرض في أندريانا، وقد اختارت العائلة وبشكل نهائي أرضاً في بلدة ماكون في إيليونز. وفي الأعوام التالية وعندما، كان له من العمر 22 عاماً بدأ لنكولن رحلة اكتشاف ما حوله بنفسه، مجدفاً أسفل نهر سانغامون، باتجاه مقاطعة سانغامون، إيليونز في قرية نيو سالم. وفي وقت لاحق من ذلك العام، تمّ استئجاره من قبل رجل أعمال، حيث كان يحمل بضاعة من نيو سالم إلى نيو أورليانز على مركب عبر كل من نهر سانغامون والأيليونز والميسيسبي. وفي نيو أورليانز وفي أول الأمر شاهد عملية بيع عبيد بالمزاد العلني وترك ذلك أثراً سيئاً في نفسه على مدى حياته. وبالإضافة إلى أنه كان يعيش في بلدة كان مشهد العبيد فيها حاضراً، فربما كان يصادف فظاعة ووحشية دائماً متشابهة.

إلا أن ما جعل الرجل خالداً ذكره ليس لدى أتباعه فقط بل لدى العالم هو عزمه المتفرد برؤيته أن المجتمع الأميركي يعلو على ما يشين العالم الجديد في ممارسة استعباد العمال بالتسلط الزراعي في الولايات الجنوبية من البلاد. وكرئيس أصدر لنكولن في الأول من كانون الثاني/يناير 1863 إعلان العتق الذي يعلن فيه وإلى الأبد تحرير هؤلاء العبيد في داخل الولايات.

وفي خطاب أصبح المرشد الروحي للعديد من حركات الحقوق المدنية والحقوق الإنسانية عبر العالم، يقول لنكولن: "إن المنزل المنقسم على نفسه ليس بإمكانه الصمود أبداً. وباعتقادي فإن هذه الحكومة ليس بإمكانها الصمود وإلى الأبد في ممارستها التي في قسم منها تسمح بالاستعباد وفي

الآخر ندعو إلى الحرية. وأنا لا أتوقع ذوبان الائتلاف، ولا أتوقع سقوط البيت، إلا أنني أتوقع بالفعل أنه سيكون مآله التقسيم. سيكون حاله هذا أو ذاك؛ فإما أن يقبض المعارضون المناوئون للعبودية على المزيد من ناشريها وسيضعونها حيث يرتاح فكر العامة في ما يذهبون إليه أنها باتجاه الإبادة المطلقة، أو أن مؤيديها سيدفعون بها إلى الأمام إلى أن تصبح شرعية في جميع الولايات القديمة منها والجديدة، شمالها كما جنوبها".

وخلال فترته الرئاسية كما أيضاً أثناء سنواته السابقة كمحام وكسياسي غرٍّ، فإن الانطباعات التي حفرت فيمن حوله بشأنه هي استقامته المطلقة في فكره وفي عمله وفي كلمته – بأنه كان مخلصاً مع كل إنسان تعامل معه، وصادقاً مع نفسه وفي عواطفه وفي حبه للحقيقة وفي إيمانه المطلق بانتصار الحقيقة. إن البساطة والشفافية في طبيعة حكاية عواطفه ومحبته وسلوكه اللطيف، والذي رسم آثاره ليس على أبناء بلدته، بل على كل المعذبين والمتعبين على طريق الحقيقة والشرف.

وكلمات للأديب والشاعر والفيلسوف الأميركي إيمرسون تلخص شخصيته: "إن اعتلاءه للمقام الأول في الولايات المتحدة يعني انتصار التوجه السليم للإنسان ولضمير العامة. لقد نشأ في عوز، وأتقن التغلب على المشكلات اليومية، وكلما تعاظمت المشاكل، كلما تنامى فهمه لها. وفي الحرب ليس هناك محل لتعطيل قضاء، ولا هناك محل لصفاء جوٍّ لبحار. إن الملاح الجديد كان مسرعاً على رأس سفينته عند الإعصار".

"خلال الأربع سنوات، الأربع سنوات من أيام العداء – كان صبره، ووسائله

الخصبة، ونبله وشهامته كانت مبذولة إلى حدٍّ كبير ولم تجد لها محلاً. ومن هنا، فإنه ومن خلال شجاعته وعدالته ومزاجه المعتدل، وإرشاداته الثرية وإنسانيته، من خلال ذلك كله وقف لنكولن كنموذج بطولي في وسط ملحمة بطولة. إنه النموذج الحقيقي للإنسان الأميركي في وقته، الممثل الحقيقي لهذه القارة، والأب لبلده، والنّبْض للعشرين مليوناً الذي يخفّف في قلبه وفكرة عقولهم التي يُفصح عنها لسانه".

وأخيراً، من الممكن القول: "أنه وفي أيامه المبكرة، لقد ضرب بجذوره عميقاً في التربة الأصيلة للأرض. وفي أيامه اللاحقة، سما شخصه ولمع عالياً بين النجوم".

اللورد لويس مونتبتين

اتّسعت الإمبراطورية البريطانية في أوجها لتشمل ربع مساحة العالم. وقد كان تراثها، الجيد والسيئ على حدّ سواء مؤكداً، وكذلك نجاحها وفشلها وغزواتها وتوسعاتها. وافتخرت بأبطالها وأنذالها من مثل دراك، نيكلسون، بروك، كليف وتشرتشل. ومنحت الإمبراطورية للعالم لغة عامة، رأسمالية عالمية، وديموقراطية مؤسساتية. لقد بدأت بشن القراصنة حرباً ضد الإسبان في العام 1663. كان حينها قد تمّ تأسيس جمايكا كأول مستعمرة بريطانية. لقد مثلت الإمبريالية البريطانية مرحلة تاريخية متميزة من القرصنة إلى السيطرة والامتداد عبر ما يقارب الـ 300 عام.

إن استراتيجية الإمبراطورية في النهب وفي توظيف الأموال في الأقاليم التي اكتسحتها برزت من خلال رغبة في التجارة والاستعمار. وكانت إيرلندا المحاولة الأولى الجادة في بدء سلسلة محاولات من قبل التاج الملكي البريطاني والبرلمان. وكان ذلك بمثابة بداية هجرة واسعة بريطانية والتي تحولت باتجاه

شمال أميركا وأستراليا البيضاء. وقد هاجر حوالى العشرين مليوناً من البريطانيين على مدى ثلاثة قرون سعياً وراء أحلام استعمارية. وأظهر ذلك للعالم بأنه بالإمكان تأسيس إمبراطورية ليس فقط من خلال الغزوات المحضة ولكن من خلال الهجرة والاستيطان.

بلغت الإمبراطورية ذروتها مع سيطرتها على الهند حيث حكمت مئات الملايين من الهنود، الذين كانوا يمالقون القائمين على الخدمة المدنية البريطانية، جيش منضبط من 1.000 هندي مستخدم الذين لبسوا عباءة الإمبراطورية بإتقان محكم. وإلى منتصف القرن التاسع عشر، كانت الإمبراطورية البريطانية الأكبر والأغنى في الإمبراطوريات في العالم. لقد كانت الهند الجوهرة على تاج الإمبراطورية البريطانية. فإلى جانب اقتصادها المتميز، كانت الهند ذات جيش بالغ الأهمية. وفي العام 1876 أعلنت الملكة فكتوريا إمبراطورة على الهند، ولم يكن أحد ليتخيل بأن الإمبراطورية البريطانية ستكون نهاياتها بعد 75 عاماً قادمة.

لقد كانت الإمبراطورية "مثقلة بالذهب، سوداء بدخان الصناعات، وحمراء بدم الغزوات". جاء هذا التعليق في كتاب "حرية في منتصف الليل" للكاتبين دومينيك لابيير ولاري كولنز وهي الصورة المناسبة التي تصف حال الإمبراطورية بعد الحرب العالمية الأولى.

إن عباءة أثقال الرجل الأبيض، كما رسمها روديارد كيبلينغ، والتي تنكبها (تحمَّل مسؤوليتها) الإنكليز لقيت زوالها وذلك عندما وصل الحكم البريطاني في الهند إلى نهايته:

ارفعوا عبء الرجل الأبيض عن كاهله
وابعثوا من الآن فصاعداً الأفضل لهذه السلالة
اذهب والزِمْ أبناءك بالمضي بعيداً

إلى حيث يكون باستطاعتهم تحقيق رغباتك المقهورة
ولينتظروا في ظروف صعبة
على إيقاع خفقان انتفاضة شعبية واسعة
أناسك الواجمون المقبوض عليهم حديثاً
النصف شياطين والنصف أطفال.

لقد شهد القرن العشرون أعنف الفترات في تاريخ الإنسانية. وهذا يعكس إخفاق المجتمع الإنساني برمّته وصعود الهمجية. فشكل ذلك صراعاً لدى شعوبها بسبب العرقية المتزمتة. إن وصمة عار سفك الدماء تجاوز الشعوب والأديان والناس. ويعتبر تاريخ الإنسانية متشظياً بحالات شهدت سفك دماء جنوني. وكأمثلة على ذلك خلال القرن العشرين: الحربين الأولى والثانية، التبديد الأخير للعالم على يد النازية، الإبادة الجماعية للأرمن، التصفية الستالينية، النزوح الفلسطيني، شرق تيمور والبابونيو، ظهور الماو الماو في كينيا، الحرب الكورية، الصراع الصيني الياباني، الثورة الثقافية الصينية، ساحات القتل الكمبودية، الحرب الفيتنامية، الصراع بين الناجورنو والكراباخ، راوندا وبوسنيا، والبقية تأتي.

وقد تركت شبه الجزيرة الهندية بصماتها التي لا تمحى على تاريخ الإنسانية، حيث انتهى استقلال الهند بمجازر بشعة ووحشية، وتمّ تقسيم البلد إلى قسمين ضمن اتجاهين دينيين، وتم تشريد حوالى 14.5 مليون من البشر. وبناء على الإحصاءات الرسمية للعام 1951 فقد تمّ ترحيل 7.226 مليون مسلم من الهند إلى باكستان، في حين نزح من الهندوس والسيخ ما يبلغ الـ 7.249 مليون إلى الهند من باكستان وذلك بعد التقسيم مباشرة.

وظهر عنف جامح على حدود كلا الطرفين. ولم يكن باستطاعة الحكومة

الجديدة المؤلفة غير المتكافئة البحث في هجرة هذه الأعداد المذهلة. لقد أدّى التقسيم إلى نزوح الهندوس والسيخ من باكستان إلى الهند، والمسلمين من الهند، وترافق مع حمى طائفيةٍ ذهب ضحيتها هندوس وسيخ ومسلمين. وتفاوت تقدير أرقام الضحايا من المليون وما فوق.

وعند بدء الحرب العالمية الثانية، وفي اجتماع طارئ، تحدث ونستون تشرتشل داعياً للتسلح، تحدياً لاحتمال اجتياح مؤكد، ومتكلماً باسم الإمبراطورية نفسها قال: "دعونا بالتالي نتحمل واجباتنا، وكذلك نأخذ على أنفسنا عهداً أنه وإذا امتد عمر الإمبراطورية البريطانية والكومنولث إلى آلاف السنين سيظل الرجل يقول: "كانت تلك أروع الأيام".

لم تكن فترة المجزرة التي تلت عملية انتقال السلطة خلال استقلال الهند ويكل تأكيد من أحلى ساعات الإمبريالية البريطانية، بل كانت أكثرها حلكة. كانت هناك حالة ارتباك لأن بريطانيا التي كانت تدير الهند الموحدة بمبادرة آلية، لم يكن باستطاعتها السيطرة على العنف المريع. وإن الرجل الوحيد الذي كان يقف على مفترق طريق التاريخ في ذلك الوقت هو أللورد لويس مونتبتين كآخر نائب ملك على الهند. وقد تمّ تعيين اللورد لويس مونتبتين، الأثر الأخير لأقدام الإمبراطورية البريطانية المتهالكة، تمّ تعيينه من قبل حكومة العمال البريطانية التي يرأسها المعتدل أتلي في شباط/فبراير 1947 وذلك للإشراف على خطوات عملية استقلال الهند. ولم يكن ليدري بأن تلك المهمة ستجعله يترأس مجزرة مأساوية لم يكن باستطاعته كبحها.

ولد لويس مونتبتين تحت اسم لويس فرانسيس ألبرت فيكتور نيكولاس باتنبيرغ في الخامس والعشرين من حزيران/يونيو سنة 1900 في فروجمور هاوس، في ويندسور في إنكلترا. وكان والده الأمير لويس بتنبيرغ Louis Battenberg من كبار الدوقات في هيسّ وكانت أمه الأميرة أليس، حفيدة الملكة فيكتوريا. وقد أطلقت عائلة باتنبيرغ على ابنها الوليد اسم نيكي، ولكن

الأعراف الروسية آنذاك جعلتهم يغيرون لقبه فيجعلونه ريكّي.

كان لويس ينتمي إلى العائلة الملكية البريطانية سليلة كل من: القيصر تسار نيكولاس الثاني الروسي، الملك ألفونس الإسباني XIII، الملك فرديناند الأول الروماني، الملك غوستاف السادس السويدي، الملك قسطنطين الأول اليوناني والملك هاكون السابع النرويجي. ولكنه وكوالده كان ولاؤه الخالص لبريطانيا.

ففي العام 1868 أصبح والده وكان في الرابعة عشرة من عمره، مواطناً بريطاني الجنسية، وشارك في البحرية الملكية وشغل منصب لورد البحر الأول في البحرية الملكية. وسار لويس على خطى والده وشقيقه الأكبر وعمل في البحرية الملكية. ومع نشوب الحرب العالمية الأولى، فإن تعالي رأي المعارضين للألمان في صفوف العامة وفي الصحافة أرغم والده على الاستقالة من منصبه كأول لورد في البحرية في التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر العام 1914 على الرغم من سجله الوظيفي ومقدراته الحرفية العالية في هذا المجال. وقد كان لويس حزيناً إلى درجة كبيرة ومصدوماً من هذا التحول في مجرى الأحداث.

وعند دوران رحى الحرب العالمية الكبرى، قامت العائلة الملكية البريطانية بتبديل اسمها إلى اسم ذي طابع بريطاني خالص وهو "ويندسور". وبناء على توصية الملك جورج الخامس، تمّ تخلي الأمير لويس باتنبيرغ عن لقبه هذا وذلك في الرابع عشر من تموز/يوليو العام 1917، وليعطي في الوقت نفسه لعائلته الصبغة الإنكليزية بتغيير اسمها من باتينبيرغ إلى مونتبتين.

قام لويس من ثم بالانضمام إلى البحرية الملكية في الثالثة عشرة من عمره ودخل الكلية البحرية الملكية في دارت ماوث ودرس فيها بين الأعوام 1913 – 1916، حيث استطاع أن يكون من الناجحين الـ 15 من أصل 83 تلميذاً عسكرياً. وقد كان من ذوي المهارة البارعة في التجديف، حيث فاز بجميع المسابقات التي شارك فيها. ومن بين الرياضات التي كان الأبرع فيها هي رياضة البولو، وكان الكابتن في فريق البولو في البحرية وحاز على 110 كأس في ذلك المجال.

وقد أبدى نشاطاً أثناء الحرب العالمية الأولى على متن السفينة الملكية

ليون Lion والسفينة الملكية إليزابيت وقد خرج من الحرب كمعاون نقيب البحرية الجريء الذي أبلى في معركة جوتلاند بلاءً حسناً. وتابع أثناء فترة الحرب مهماته البحرية محافظاً على الروابط القوية مع العائلة الملكية البريطانية، كما أنه أيضاً عمل كضابط معاون لأمير ويلز عند زيارته لأوستراليا والهند والشرق الأقصى.

وفي العام 1922 تزوج لويس من إيدوينا آشلي Edwina Ashley. وكانت وعند لقائه الأول بها تعمل كعضو قيادي في المجتمع اللندني، وكان جدها السيد إيرنست كاسّيل، البارع في الشؤون المالية، مشهوراً في كونه أغنى شخص في تلك الحقبة، والذي توفي في العام 1921 عن ثروة تقدر بـ 2 مليون جنيه إسترليني وممتلكات عديدة. وكان زواج كل من إيدوينا ولويس في الثامن عشر من تموز/يوليو العام 1922 في كنيسة القديسة مارغريت في ويستمنسر.

بدأ بعدها الزوجان حياتهما على قمة المجتمع البريطاني. وكانت أوقاتهما مملوءة بالمتع وكانا يتناولان غداءهما في سافوي، وعشاءهما في كلاريدج، ويمضيان أمسياتهما ولياليهما في باريس في Folies Berger. وعندما كانا يقطعان بشكل مستمر الأطلنطي، كان من أصدقاء الزوجين جورج جيرشوين George Gershwin، فريد آستير Fred Astair وشارلي شابلن.

وسريعاً ما ظهرت على الزواج دلائل التنافر، وكان زواجهما عاصفاً يشوبه الافتتان والعلاقات الغرامية المتعددة. ومع الوقت دفعت إيدوينا وعلاقاتها الغرامية لويس إلى الكتابة إليها طالباً منها الحق في أن يكون له علاقاته أيضاً. وقد رفض كلاهما، وعلى كل حال، أي اقتراح في الطلاق، لأن عملاً صارماً كهذا؛ سيؤدي إلى إعاقة طموحات لويس، كما أنه سيشوه صورة العائلة المالكة، وسيجرّده من مقدراته المالية التي يحتاج إليها لتحقيق مستوى الحياة التي يعيشها. وقد كان ثمرة الزواج ابنتيْن: باتريسيا مونتبتين، كونتيسية مونتبتين بورما الثانية في بورما، والسيدة باميللا كارمن لويس.

وعند نشوب الحرب في العام 1939، كان لويس هو الذي يدير أمور السفينة الملكية H.M.S. كيلي Destroyer Flotilla ويقوم على مراقبة بحر الشمال والمداخل الغربية والمتوسطية. ومن خلال السفينة كيلي استطاع كسب شهرة لجرأته واندفاعه. وبعد وقت قصير أصبح لويس على إمرة/قيادة السفينة الملكة، حاملة السفن الذائعة الصيت.

كانت الحرب العالمية الثانية لتبرهن على أنها الحرب المفيدة فيما يتعلق بمونتبتين الشاب الطموح. لقد كان لويس هو الأثير لدى وينستون تشرشل، وفي العام 1941 وقبل قليل من الغزو لأوروبا من قبل قوى التحالف، حلّ مونتبتين محلّ روجر كيّيس كرئيس للعمليات الحربية المشتركة بلقب ليوتنانت جنرال ومشيراً في القوات الجوية.

وقد ورث تركة العمليات الحربية المشتركة والتي لا يمكن أن تتناسب مع المهمات التي في المتناول. لقد كانت أولوياته الفورية إنجاز تغييرات ابتداء من التغييرات الأساسية وصولاً إلى التغييرات الشخصية، تنظيمات واتصالات. وإن جسامة التحديات تثبط عزائم العديد من الرجال الأقل شأناً إلا أنه وخلال خمسة أسابيع استطاع مونتبتين إجراء تغييرٍ في آلية العمليات الحربية المشتركة.

وكان دوره في العمليات الحربية المشتركة تطوير برنامج إغارات المغاوير على طول بحر الشمال وخطوط ساحل الأطلنطي في المنطقة المرهونة للعدو. تلك الحملات كانت مصممة لتطويق مصادر الألمان التي بالإمكان أن تستعمل بشكل أو بآخر في إمداد الخطوط الأمامية الأخرى. وقد كانت الأولوية للتخطيط والتحضير لإعادة الإغارة على أوروبا والتفكير بهجوم عليها. كان عمل لويس يتمحور في المساعدة في التخطيط والتحضير لليوم المحدد للهجوم وكان يقوم بهذا الدور بكل ثقة.

ومع انضمام أميركا للحرب، قام لويس والجنرال جورج س. مارشال بتكوين مركز قيادة الحلف المتكامل في العام 1942. إلا أن الهجوم السيئ الحظ على ديبي، والذي أثناءه تمّ القضاء على نسبة 70% من 5000 من القوى الهائلة التي كانت منتشرة، بين قتلى وجرحى ومعتقلين، وهذا أثار نقداً عارماً لطريق إدارة مونتبتين لهذه العملية، وأدّى إلى إنهاء مهمات مونتبتين العسكرية. إلا أن خلفيته الملكية ورعاية مناصريه السياسيين له كان لهما الأثر في إنقاذه.

والأهم في ذلك كله وقوف تشرشل إلى جانبه حيث قام في تشرين الأول/ أكتوبر 1943 بتعيين مونتبتين كرئيس في قيادة جنوب شرق آسيا، وكان ذاك هو المنصب الذي احتله إلى ان انحلت تلك القيادة في العام 1946. وقد كان تعيين مونتبتين متمشّياً مع جدول أعمال تشرتشل للحصول على الأولوية لبريطانيا في منطقة جنوب شرق آسيا كتمهيد ليعيد للإمبراطورية البريطانية سلطانها بعد الحرب العالمية الثانية. ولم يلحظ تشرتشل الدور الذي سيلعبه مونتبتين ليقلل من شأن أجندته الاستعمارية.

فقد قام مونتبتين وفي جنوب شرق آسيا بالتخطيط وبالعمل باتجاه نيل بورما وسنغافورة حريتهما من الجيش الياباني. وشعر العديد من الجند الذين حاربوا من أجل بريطانيا في آسيا بأنهم أصبحوا منسيين من قبل الجيش ومن قبل الناس في أوطانهم. وعمل مونتبتين وبأسلوبه الخاص على رفع معنوياتهم. إلا أنه تمّ حل تلك المشكلة على أحسن وجه من خلال الانتصارات التي تمّ تحقيقها ضد اليابان وذلك في كل من آراكان وأمفال.

استطاعت القوات البريطانية الصمود في ميدان المعركة ضد اليابان وتابعت القتال أثناء فصل الأمطار في محاولة لمنع اليابانيين من التجمع ثانية، وهذه الاستراتيجية جعلت القبضة في يد بريطانيا وأخيراً تمّ دحر اليابانيين من بورما مع انتصارات في ميكتيلا وماندالي وشيئاً فشيئاً دخلت القوات البريطانية رانغون دون مقاومة وذلك في أيار/مايو 1945.

وقام مونتبتين بعد الحرب بالإشراف على عملية النقل من الإدارة العسكرية

إلى الإدارة المدنية في جنوب شرق آسيا. وهو اعتقد بأن تكون هناك صداقة بين السلطات الغربية وبين القوميين الآسيويين. وكان يشعر بأن المبادئ في حق الشعب في تقرير مصيره في الميثاق الأطلنطي يجب احترامه وهو مطلوب تطبيقه في كل من بورما وملايا.

وقد حوّلت الحرب العالمية الثانية الليدي مونتبتين إلى سيدة ذات أهداف، وذلك عندما قبلت مركزاً إدارياً مع القديس جون أمبولنس بريغيد St John Ambulance Brigade، حيث طافت في سبيل تأمين الحماية والملاجئ والمعونات لضحايا الحرب بحماس فائق. وسعت إلى تحقيق تنفيذ دورات مكثفة على مدى أسبوعين في الإسعافات الأولية، وقد صممت على تعليم المدنيين كيفية معالجة الجروح. وأدّت مشاركتها على حثّ آلاف اللندنيين للدخول في هذه الدورات.

ومن جهة أخرى، شلّت الحرب العالمية الثانية بريطانيا ولم يعد لديها الرغبة بعد لمتابعة المضي في جدولها الاستعماري. وفي العام 1945 وعند مجيء حكومة العمال الجديدة في بريطانيا إلى السلطة، قرّرت حلّ ارتباطها بالهند. ومع بداية العام 1947 فقد كليمنت آتّيل Clement Atlee، رئيس الوزراء من حزب العمال كل ثقته بنائب الملك في الهند، اللورد ويفل، وأخذ في البحث عن بديل له.

وقد كان لبطولات مونتبتين أثرها حيث جعلته يحوز على سمعة حسنة في الإخلاص. ويضاف إلى ذلك تعاطفه مع حكومة العمال، لذا فضله كليمنت آتلي ليتولى بشكلٍ متميز مهمات على مستوى عالٍ. وتمّ تعيين اللورد لويس مونتبتين نائباً للملك على الهند في شباط/فبراير 1947. ومهما يكن من أمر فإن لويس لم يكن شديد التوق لقبول المهمة عند شعوره بأن البحرية الحربية كمهنة بالنسبة له قد تمّ التضحية بها على حساب تكليف ليس لديه أقل فرصة للنجاح. وعند تسلمه مسؤولياته، قال في تلك المناسبة: "أنا لست بواهم بشأن صعوبات مهمتي هذه، وانني سأكون بحاجة إلى عظيم حسن نية بي، وإنني أسأل الهند أن تمدني بها".

وقد أعطاه آتلي مهلة نهائية إلى حزيران/يونيو 1948 لنقل السلطة. واستنبط، وبعد شهر من قدومه، بأن التقارب بين مختلف الأحزاب في الهند، على وجه الخصوص بين المجلس التشريعي ورابطة المسلمين هو صعب حصوله، ويجب نيل الحرية في أقرب وقت. هذا وإن إخفاق مهمة السيد ستافورد كريس والتي كان وصفها غاندي ب.: "شيك بتاريخ محرر لدى بنك مفلس". وإن انهيار الحكومة المرحلية تحت خطة مجلس البعثة الاستشاري أدى بشكل حتمي إلى تقسيم الهند. وفي الثالث من حزيران/يونيو 1947 قدم رئيس الوزراء كليمنت آتلي مشروع قانون في مجلس العموم يدعو فيه إلى منح الهند الاستقلال وتقسيمها، وأعلنت بريطانيا في السابع من حزيران/يونيو 1947 خطة لتقسيم الهند، وفي الرابع عشر من آب/أغسطس والخامس عشر منه 1947 نالت كل من الهند وباكستان وعلى التوالي استقلالهما.

خسرت كل الرهانات وتمّ تقسيم الهند. وكان تفجّعاً لغاندي، لم يلقَ آذاناً صاغية: "إني وبكل جوارحي أقاوم فكرة أن الهندوس والإسلام إنما يملكان ثقافات ومبادئ متعارضة".

وبلغ القتل المجنون قمة انحرافه. وكان هناك فترة تعتمد في استهداف الرجال فيما إذا كانوا مختونين أم لا؛ فإن كان الرجل مختوناً كان مستهدفاً من قبل السيخ والهندوس حيث كانوا يقتلونه وامرأته وأولاده. وإن لم يكن كذلك، قتله المسلمون مع أفراد عائلته. ويمكن الرجوع بالذاكرة إلى قول لغاندي خلال حركة الهند الفعلية في العام 1942 حيث قال: "اتركوا الهند لله، وإذا كان ذلك كثيراً فاتركوها للفوضى". وبالفعل فقد تركت السلطة الملكية جوهرتها للفوضى.

ولكن ويكل الملامة التي كان مونتبتين مستحقاً لها بسبب أخذه بيد الهند لنيل استقلالها، إلا أنه كان يُذكر بالخير وذلك لصموده في وجه التقليديين الملكيين الذين أرادوا المحافظة على الوضع الذي كانوا عليه والتمسك بالهند. ولم يكن ليُغفر له من قبل التقليديين بمن فيهم تشرشل. ومع ذلك فلم يغادر الهند بعد استقلالها وأصبح الحاكم العام الأول على الهند الحرّة. وقد ذاع صيت مونتبتين وزوجته من خلال اهتمامهما الشخصي واشتراكهما في إجراءات إسعاف حالات الطوارئ حيث استطاعا إنقاذ حياة الكثيرين من

المشردين. كما أنه لعب دوراً حاسماً في إقناع المهراجا والنواب للمشاركة في الائتلاف الهندي لتقليص النزاعات الكشميرية. وأخيراً ترك الهند في الواحد والعشرين من حزيران/يونيو 1948 بعد عشرة أشهر من ترأسه تقطيعها.

عند عودته منتصراً من الهند، عاد مونتبتين إلى القوات البحرية وخدم فيها من العام 1948 إلى العام 1956. وكان الرابع من لوردات البحرية، ثم ضابط بحرية في أسطول بحر المتوسط، وأخيراً حقق مونتبتين حلمه عندما أصبح اللورد الأول على البحر في العام 1955، مسترداً بذلك كبرياء العائلة الضائع والذي ثُلِم عند طرد والده كلورد بريطاني أول على البحر. وقد جنى رفعة شخصية عالية وسعادة بخدمته لورداً أولاً على البحر ثم قائداً في أركان الدفاع على مدى ست سنوات من العام 1959 إلى العام 1965. وقد فقد إيدوينا في العام 1960 بسبب مرض أصابها وكان لها من العمر 58 عاماً.

وكقائد في أركان الدفاع قام مونتبتين بالإشراف على عملية دمج وزارة الحرب، وزارة القوات الجوية والأميرالية (إمارة البحر) ضمن وزارة موحدة. وكان أيضاً معنياً في سياسة بريطانيا النووية وعلى وجه التحديد في بناء الغواصة البريطانية النووية "البارجة الحربية الملكية H.M.S. Dreadnought". كما كان معنياً بشكل شخصي بالدفاع عن ماليزيا وسنغافورة بكل ما يتعلق بالمواجهة مع إندونيسيا خلال العام 1962 إلى العام 1966. ثم أصبح الحاكم في العام 1965 وفي النهاية أصبح مونتبتين لورد ليوتنانت على جزيرة وايت Isle of Wight (في بريطانيا) وذلك في العام 1974.

ومن ثم، وإثر تقاعده بعد ما يقارب النصف قرن من الخدمة الفاعلة، استمر في الظهور على مرأى من الناس، كان مبتهجاً بوظائفه الملكية في المراسم، كمثل تعيينه كولونيلاً على فريق إنقاذ الغرقى، والضابط الشخصي المعاون للملكة إليزابيت الثانية. وحصل على تقدير عظيم لتعزيزه فكرة تفهم ثقافات الآخرين، وأصبح رئيساً لمنظمة كليات العالم المتحدة، مشجعاً رؤساء الدول والسياسيين والشخصيات البارزة في جميع أنحاء العالم لمشاركته

اهتماماته. وحصد نجاحات عامة بسهولة ظاهرية مترافقة مع جاذبية غير مشوشة.

مع ذلك فقد قام البعض بانتقاده بقسوة، منتقدين طموحاته غير المحدودة التي رأوا بأنها عديمة القيمة ودافعها الغرور. إلا أنه كان محباً متسامحاً نابضاً بالحياة ومتألقاً على حدٍّ سواء. لقد كان مُوقَّراً. وهذا وعلى ما يبدو، وإلى حدٍّ كبير جزء من الحياة البريطانية العامة مثل الملكة إليزابيت والأمير فيليب. وقد مدحه الرئيس فاليري جيسكار، ديستان بقوله: "إنه يمثل الشجاعة البريطانية ووقارها وتأنقها".

هكذا كانت حياة الرجل الاستثنائي الذي شاهد جور الإمبراطورية، إلا أنه لم يتخلّ أبداً عن مبادئه في تقرير المصير حيث يشير بكبرياء قائلاً: "لقد تخليت عن مظاهر التطرف، وأؤمن بأنه يجب علينا الكفاح، وقبل أي شيء آخر، أن نكافح من أجل الكرامة ومن أجل حقوق الإنسان للجنس البشري، بغض النظر عن العرق، اللون، والعقيدة". وعلى كل حال، فقد ترك مصرعه المستهجن علامات لا تمحى على صفحات التاريخ البريطاني وتاريخ العالم.

إن من أحد العوامل الأكثر بروزاً في الحياة العامة في القرن العشرين هو القتل، وعادة لأسباب سياسية، لشخصيات عامة. ففي العام 1900 كان هناك العديد من زعماء العالم ورجال دول ضحايا.

لقد كان اللورد لويس فرانسيس ألبرت فيكتور نيكولاس مونتبتين، فيكونت بورما الأول مونتبتين، وبارون رومسي، بطل الحرب المتميز الدبلوماسي ورجل الدولة الأكبر للعائلة المالكة البريطانية، كان ضحية عملية اغتيال. وتمّ اغتياله على يد شرطي في الجيش الجمهوري الإيرلندي وذلك في السابع والعشرين من آب/أغسطس 1979، وكان القتل من أجل الشهرة هو بمثابة تغطية للسبب الذي من أجله تمت عملية الاغتيال.

وكان البيان الصادر من جهة جناح الاحتياطي في جيش إيرلندا الجمهوري (ج. أ. ج) في بلفاست للتأكيد على ذلك: "إن هذه العملية هي واحدة من الطرق المتميزة لجلب أنظار البريطانيين إلى الاحتلال المستمر لبلادنا". لقد قامت هذه المرافعة على فرضية أن العنف والاغتيالات هي ردات فعل أخلاقية تجاه مؤسسات وحكومات غير أخلاقية.

كان يوم السابع والعشرون من شهر آب/أغسطس 1979 يوماً مألوفاً برطوبة شمسه حيث يمضي الواحد في ذلك اليوم الصيفي وقته وهو شبه نائم في عملية صيد في مولاغمور الصغيرة غافلاً عن خليج دونيجال على شاطئ إيرلندا الشمالي الغربي. حينها كان اللورد مونتبتين يمضي عطلته في قلعته ذات الأبراج كلاسباون في التلال الخضراء، المكان الذي اعتاد قضاء عطلته فيه على مدى 35 عاماً.

في ذلك اليوم، مضى إلى حوض السفن حوالى الساعة الحادية عشر والنصف صباحاً من أجل ما وعد ليكون يوماً لرحلة رائعة حيث يرافقه فيها ابنته وصهره اللورد برابورن، وتوأماهما الصبيان وأرملة أحد الأشراف الليدي برابورن. قام ماكسويل الطالب الإيرلندي الذي قام مونتبتين بتوظيفه كصبي على القارب كعمل في فصل الصيف، قام بسحب المرساة، لينطلق القارب Shadow ذو قوة محرك ديزيل ثلاث سلندرات، لينسحب ببطء عبر المياه وخارجاً في وسط البحر.

ومع إبحار القارب على طول الشاطئ، مزّق السكون المخيم على الميناء صوت انفجار هائل. حيث نسف الانفجار القارب إلى أجزاء صغيرة قاذفاً بالأشخاص السبعة الذين كانوا عليه إلى الماء. وقد تمّ سحب اللورد مونتبتين الذي كان ما زال يتنفس إلى أحد القوارب، إلا أنه توفي بعد وقت قصير، وكان تقريباً قد فقد ساقيه. وأما الباقون وهم أحد التوائم، وبول ماكسويل وأرملة من النبلاء الليدي برابورن فقد سقطوا جرحى.

وقد سئل مونتبتين من فترة ليست بالطويلة إن كان يخاف من هجوم من قبل الجيش الإيرلندي الجمهوري، أجاب رجل الدولة السبعيني: "ماذا يريدون من رجل عجوز مثلي؟" ولم يكن ليتصور بأن موته سيكون نتيجة لكرهه للإثنية التي كان يذمها مدى حياته.

وقد ترافق مقتل مونتبتين مع موت ثمانية عشر جندياً ينتمون إلى فوج المظليين العسكري، وفي نفس اليوم، وفي كمين في نقطة وورين في كونتي داون County Down. وفي الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1979 تمّ الحكم على ثوماس ماك ماهون الذي قام بعملية الاغتيال بالسجن مدى الحياة، ليطلق سراحه من ثم في العام 1998 نتيجة لمعاهدة Good Friday/اتفاقية يوم الجمعة الخيّر.

وببساطة، وبسبب منزلته الرفيعة، فقد اعتبر مونتبتين هدفاً واضحاً، إن لم يكن غير منطقي بالنسبة للجيش الجمهوري الإيرلندي. اغتالوا الرجل الذي عمل على إزالة الصفة الاستعمارية عن بريطانيا، الرجل ذا الكياسة الذي كافح من أجل بناء جسور عوضاً عن العمل على التقسيم. ولو أن مونتبتين كان قد نجا من محاولة الاغتيال لكان لعب دوراً فاعلاً في حل مشاكل الأولستر. بعد ذلك كله، فقد لعب سابقاً دوره في تشكيل مصير الإنسان بطريقته المتواضعة. لقد عاش اللورد مونتبتين المتميز بطلاً ومات بطلاً.

القيصر نيكولاس رومانوف

"يجب أن يموت الملك لتعيش البلاد". قال ذلك ماكسميليان روبيسبير زعيم أنصار جيمس الثاني متوعداً في إحدى خطبه المتعددة التي لا تنسى في مناسبة الثورة الفرنسية. وذلك في أمسيات أحداث السادس عشر والسابع عشر من شهر حزيران/يونيو 1918 حول عدم الانتشار في روسيا الذي يمكن أن يميز ذروة تلك الحقبة.

في سرداب بارد ورطب تحت الأرض في منزل أباتيف Ipatieve House في ياكتيرنبرغ كانت عائلة رومانوف تجثم معاً في ذلك المكان حيث كان الوالد، الروسي المخلوع القيصر نيكولاس رومانوف يمسح وبمحبة على شعر وريثه الذكر الحي أليكسس. وكانت بناته الأربع يحدقن بشدة نحو ما يحيط بهنّ من ظلام بينما كانت أمّهن تسارينا ألكسندرا باعتزازها بألمانيتها مخدرة بالأحداث التي كانت قد هزّت الإمبراطورية.

بعد تنازل نيكولاس رومانوف عن منصبه، كقيصر على كل الأراضي الروسية، أبقت الحكومة الروسية المؤقتة العائلة الملكية مسجونة في قصر ألكسندر ومن ثم تمّ ترحيل أفرادها إلى مدينة توبولسك في سيبيريا وذلك في

شهر آب/أغسطس 1917. وقد مكثوا هناك خلال ثورة البلاشفة في تشرين الأول/أكتوبر، إلا أنهم بعدها نقلوا ليبقوا تحت سيطرة الجيش الأحمر والبلاشفة في ياكتيرنبرغ.

ومخافة وصول "الجيش الأبيض" إلى تلك البلدة والاستيلاء عليها وتحرير القيصر اقترحت مفرزة البلاشفة التي يقودها ياكوف ياروفسكي التصفية السريعة لعائلة رومانوف متباحثين بأنه ليس هناك من عودة عن هذا القرار. وتمّ إرسال البرقية بالنيابة عن حاكم السوفيات الأعلى في موسكو، موقعة من قبل جاكوف سفردلوف.

وقد تمّ إطلاق النار على ملك روسيا نيكولاس الثاني رومانوف وعائلته في السادس عشر والسابع عشر من تموز/يوليو 1918، وتمّ إحراق جثثهم ورميها داخل منجم مهجور ثم دفنها في مكان آخر على عجل. وبعد مضي ثمانين عاماً أُقيم لرفاتهم مأتماً على مستوى الدولة في السابع عشر من تموز/يوليو 1998، وأعيد دفنهم في مدينة القديس بطرسبرغ في سرداب كاتدرائية القديس بيتر والقديس بول. وفي العشرين من آب/أغسطس 2000 قامت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بتطويب الإمبراطور وعائلته وتسميتهم "حاملي الآلام" (الدرجة الأدنى في القديسين) بسبب الولاء الذي أبدوه خلال أيامهم الأخيرة.

ومن قبيل المفارقة أن يكون اسم المنزل أباتيف Ipative هو نفس اسم دير الرهبان "أباتيف" في كوستروما Kostroma، حيث عُرِض على ميخائيل رومانوف التاج الروسي في العام 1613. فمن هم هؤلاء الرومانوف وكيف أن واحداً من سلالتهم لاقى ذلك المصير؟ إنها رواية مشوقة نتابع وقائعها عندما نمضي في عمق التاريخ الروسي.

لقد كانت عائلة رومانوف هي آخر الأسر الملكية الحاكمة التي حكمت روسيا من العام 1613 إلى العام 1917. وكان أول عهدهم بالملكية عندما تزوجت أناستازيا زخارينا إيفان الرهيب في العام 1545 من سلالة روريكيد. وعلى أية حال، فقد وصل رومانوف إلى السلطة مع بدايات القرن السادس عشر بعد العمر القصير لسلالة جودونوف. وكان ميخائيل رومانوف البالغ من

العمر 17 عاماً هو الأول في عائلة رومانوف الذي يصبح قيصراً. وقد خلفه ابنه الوحيد أليكسي الذي سبّب للبلاد مشاكل هائلة. وبعد العمر القصير لحكم شقيقه المنحرف، قام إيفان ف. وبيتر العظيم بإدارة روسيا معاً إلى العام 1696. ومع موت إيفان في العام 1696 أصبح بيتر الحاكم المتفرد. كان بيتر، ربما، الأكثر معرفة في عائلة الرومانوف. وبنى العاصمة القديس بطرسبرغ في العام 1712 (وتمّ تغيير اسم المدينة إلى بيتروغراد Petrograd وذلك عند نشوب الحرب العالمية الأولى في العام 1914، على اعتبار كون اسم القديس بطرسبرغ ذا وقع ألماني لبلد كان في عداء مع ألمانيا). وقد كان يعزى إليه جعل المجتمع الروسي أوروبي بشكل منضبط. ومن أشهر قراراته بأنه يجب إزالة اللحية كما يجب ارتداء الملابس الأوروبية. وبعد وفاة بيتر العظيم بدأت صراعات جديدة على الحكم ضمن السلالة إلى حين وفاة آخر سلالة ذكور رومانوف في العام 1730 بوفاة بيتر الثاني.

وطالما أنه لم تنجب أيّ من إناث رومانوف وريثاً ذكراً انتقلت الخلافة إلى سلالة هولستين غوتورب Holestein-Gottorp مع اعتلاء بيتر الثالث السلطة في العام 1762. إلا أن عائلة هولستين غوتورب الروسية أبقت على لقب رومانوف. وخلف بيتر الثالث زوجته كاثرين العظيمة (1762 – 1796) وتابعت ما بدأه بيتر العظيم في تحديث روسيا. وكانت تستعين في سعيها كثيراً بغريغوري بوتمكن Gregory Potemkin، حبيبها ورجل الدولة العظيم. فإنه ومما يثير السخرية أن هناك غريغوري آخر (ويعرف بشكل أكثر براسبوتين) كان صديقاً للقيصرية ألكسندرا وتآمر على سقوط عائلة الرومانوف وذلك بعد ما يقارب 150 سنة.

إن بول الأول (1796 – 1801)، الابن لكاثرين، خلفها على العرش مؤسساً قانوناً لعائلة رومانوف وهو يعدّ الأكثر صرامة في أوروبا. وإن على أقرانه من حكام روسيا أن يكون لهم نفس المشارب (على سبيل المثال مولودين من عائلة أوروبية عريقة) وأن يكونوا أرثوذكسيين، وإلا فإن أولادهم سيتخلون عن حقوقهم بالحكم.

ولقد كان ثاني أبرز الحكام من عائلة رومانوف ألكسندر الثاني (1856 – 81)، والذي من خلال خطوته المتحررة والمتقدمة باتجاه تحرير الأربع

والأربعين مليوناً من الرقيق في العام 1861 بواسطة مرسوم تحرير الرق، لقي المزيد من الدعم. ومهما يكن من أمر فقد جرى اغتيال ألكسندر حيث قتل بقنبلة أحد المتطرفين في 13 آذار/مارس 1881.

وقد خلف ألكسندر الثاني ابنه ألكسندر روسيا الثالث (1881 – 96) الذي كان يرهب أن يلقى المصير الذي واجهه والده. لذا، قام بتوطيد الحكم التعسفي في روسيا، إلا أن الكثير من التجديدات التي دفع بها ألكسندر الثاني لاقت نكوصاً. وفور موته المفاجئ أصبح ابنه نيكولاس القيصر على روسيا من العام 1896 إلى العام 1917.

وفي كونه لم يكن مهيئاً تماماً لخلافة العرش، هتف نيكولاس بما اشتهر عنه: "أنا لست مهيئاً، لا أريده أنا لست بالقيصر". كما برهنت هذه الكلمات على مصداقية نبوءتها. ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن جميع الأباطرة منذ بول الأول باستثناء ألكسندر الثالث، كانت لهم امتدادات ألمانية، وهي مسائل كانت لها حساباتها في شعبية عائلة رومانوف أثناء الحرب العالمية الأولى.

وقد كان نيكولاي ألكسندروف المعروف بلقبه الملكي نيكولاس روسيا الثاني (نيكولاي الثاني) هو آخر الأباطرة الروسيين. وقد حكم من العام 1894 إلى حين تخليه القسري عن السلطة في العام 1917. وولد نيكولاس في السادس من أيار/مايو العام 1868، وكان الابن الأكبر للإمبراطور ألكسندر الثالث وماريا فيودوروفنا Maria Fyodorovna.

وكان نيكولاس شديد اللين نسبة لوالده الصارم صاحب القرارات، الذي لم يكن يُتوقع موته المبكر، ولذلك لم يعمل شيئاً لتحضير ولده لاستلام العرش. وقد وقع نيكولاس وفي عمر مبكر في غرام أميرة هيس أليكس، وهي من سلالة ملكية كونها حفيدة ملكة إنكلترا فيكتوريا. لم يوافق والده على هذا الزواج، آملاً بدل ذلك زواجه من الأميرة هيلين، ابنة الكونت فيليب من عائلة أورلينز لإتمام الصلة المتواجدة الجديدة مع فرنسا الجمهورية الثالثة. وفقط

وعندما كان ألكسندر يحتضر على فراشه، وافق على زواج نيكولاس من الأميرة الألمانية.

وقرّر نيكولاس تبني سياسة والده المحافظة. وعلى كل حال، فقد عمد إلى التركيز بشكل أكبر على التفاصيل الإدارية حيث كان والده أكثر تركيزاً في سياساته العامة.

ونلقي الآن نظرة على شخص نيكولاس، الذي سيفسر بشكل واسع اتجاه الأحداث التي كانت مسيطرة على بدايات القرن العشرين الماضي الصاخب. لم يكن لدى نيكولاس منطقاً عقلياً إلى حدٍّ ما عند حكمه على الأشياء، إلا أنه كان بارعاً في التجهيزات المتعلقة بالحياة العسكرية. وبالإضافة إلى شخصيته الآسرة دون تكلّف، فقد كان شديد الخوف، وبقي متحفظاً مع من حوله، مفضلاً عُزلَة محيطه العائلي. وكانت حياته الأسرية هادئة وسعيدة، والأبعد من ذلك أن نيكولاس كان هائماً بزوجته (وتمّ تخليد حبهما في ملحمة شعرية نيكولاس وألكسندرا في العام 1971). لقد كانت تمتلك الشخصية القوية التي يفتقدها، ولذا كان نيكولاس واقعاً إلى حدٍّ كبير تحت تأثير زوجته. وقد كان ابنهما الوحيد ووريث العرش مصاباً بمرض النعور Haemophilia، الذي لم يكن يعرف علاجاً له بعد. وهذا وضع حياة الشاب وريث العرش على أعتاب القبر. وأمام فقدان الأمل بحالته، توجهت القيصرية لأساليب غير معتادة للعلاج. وتحت تأثيرها، بحث نيكولاس عن النصائح عند الروحانيين والمعالجين الذين وبشكل تدريجي مارسوا نفوذاً كبيراً على الزوج الملكي.

لقد كان يعتمد وبقدر عظيم على نصائح أعمامه، الدوق الكبير (أشقاء ألكسندر الثالث الراحل) وأيضاً على نصائح ابن عم زوجته القيصر ويلم. وكان عادةً يستند أكثر على نصائح "ابن العم ويلي" الذي كان يأمل بمنع التقارب بين روسيا وبريطانيا وفرنسا. وقد زوّده رجال مشكوك بإخلاصهم بصورة مشوهة ومحرّفة حول وضع المجتمع الروسي مرفقة بتقارير تضمنت وثائق

رسمية. لم يكن نيكولاس يثق بوزرائه، ويعود ذلك على وجه الخصوص لإحساسه بأنهم يفوقونه ثقافة وفكراً، ولأنه كان يخاف أن يسلبوه حقه المطلق في الحكم. وقد أفسد نيكولاس نظام الحكم بسبب تشبثه بمبدأ (الحكم الأوتوقراطي) الانفراد بالسلطة إلى أبعد حدٍّ. وقابل المطالب الأساسية المتصاعدة عند الاضطرابات الشعبية بقمع قوي من قبل البوليس. وبالنسبة للسياسة الخارجية فقد كان ساذجاً وعديم الخبرة إلى درجة كبيرة بحيث إنه كان عائقاً أمام دبلوماسية المحترفين. وكان نيكولاس يعتبر كل معارضيه، بغضّ النظر عن آرائهم، متآمرين ماكرين وخاضعين لضغط ألكسندر. لذا، لم يكن من المستغرب أن تكون الأحداث المتتابعة التي لحقت بعائلة رومانوف على درجة كبيرة نتيجة أعمال الطبقة الحاكمة وطبقة النبلاء التي كانت خرقاء ومتفسخة.

وكانت بداية السقوط مع الصراع المأساوي مع اليابان في العام 1904 الذي قاد إلى الهزيمة المدمرة؛ لقد أدّت الحرب إلى تحريك وتطوير المنافسة بين روسيا واليابان حول السيطرة على كوريا ومنشوريا. وقد أجبرت اليابان المنتصرة روسيا التنازل عن سياستها التوسعية في الشرق الأقصى، لتصبح القوة الآسيوية الأولى في العصر الحديث والتي باستطاعتها التغلب على القوى الأوروبية. إن هذه الهزيمة المخزية إلى جانب الهزيمة المبكرة في حرب الكريمين Crimean War، والخسارة في مؤتمر برلين وخسارة ثمار الانتصار على الترك كلها أضعفت هيبة النظام الملكي، وشجّعت المعارضة الداخلية على إطلاق العنان لقيام الثورة الروسية الأولى في العام 1905.

ففي نهاية القرن التاسع عشر، بدأ عمال المصانع في روسيا بتنظيم أنفسهم، وكانوا يندفعون بفعل البحث عن حقوق اجتماعية وإصلاحات سياسية. وفي شهر كانون الثاني/يناير، احتدمت موجات من الإضرابات في بطرسبرغ، وعلى أمل عرض مطالب العمال في الإصلاحات مباشرة على

القيصر نيكولاس الثاني، قام رئيس المجلس النيابي القسيس جورجي جابون Georgy Gapon، بالتهيئة لاجتماع كبير وذلك في التاسع من شهر كانون الثاني/يناير. وكان قد أخبر السلطات حول خطته هذه ليقوم من ثم بقيادة العمال بسلام وهم يحملون الأيقونات الدينية وصور لنيكولاس، وعرائض تحمل مظالمهم ومطالبهم الإصلاحية، وذلك باتجاه قصر وينتر Winter Palace. إلا أن نيكولاس الذي لم يحمل تلك التحركات على محمل الجد، كان قد غادر لقضاء عطلته في قصره في بلدته.

وعلى كل حال، فقد بلغت الغطرسة الروسية الأرستقراطية ذروتها عندما أمر الدوق الكبير فالدمير Valdmir، قائد الشرطة بفتح النار على حشود الناس، مما أدى إلى قتل أكثر من مئة من المتظاهرين، وجرح العديد. وقد أصيب غابون Gapon نفسه بالصدمة جرّاء تلك المجزرة، ليقول مكرراً، ومراراً: "ليس هناك قيصر". وهذا اليوم الذي عرف باسم "الأحد الدامي" دفع روسيا إلى الثورة، وقد تبع المجزرة سلسلة إضرابات في مدن أخرى، وانتفاضات للفلاحين في البلاد، وتمرد في قوى الجيش والذي أدّى بشكل فعلي إلى تهديد نظام القياصرة، وقد أصبح ذلك معروفاً باسم ثورة الـ 1905.

وعندما ووجه نيكولاس بهذه المعارضة المتصاعدة وبالفوران الثوري، وبناء على نصيحة سيرجي يليفيخ ويت Sergey Yulevich Witte، قام نيكولاس بإصدار بيان أكتوبر October Manifesto، وتعهّد بضمان الحرية المدنية (حرية الخطابة، الصحافة، وحرية مجلس النواب)، وبالتأسيس لحقوق دستورية عريضة، وبإحداث هيئة تشريعية (مجلس الدوما – الروسي للتشاور)، والتي يتم انتخاب أعضاؤه من قبل الشعب، والتي تكون موافقته هامة قبل سنّ أي تشريع.

وتمّ إعلان القوانين الأساسية التي خدمت كدستور، وذلك في الثالث والعشرين من نيسان/أبريل العام 1906، إلا أنها جاءت دون التوقعات، حيث تمّ تجريد مجلس الدوما من نفوذه على وزراء الدولة ومن مجموعة حصص ميزانيته، وحدّ من قدرته على مباشرة القوانين بشكل فعّال. ذلك جعل علاقة نيكولاس بمجلس الدوما إلى انحراف.

وعلى نحو سريع، فإن مجلس الدوما الأول دخل في صراع معه. وعلى

الرغم من أن نيكولاس كان على علاقة جيدة نسبياً منذ البداية مع رئيس وزرائه الليبرالي، سيرجي ويت Sergey Witte، فإن ألكسندرا لم تعد تثق به، وعند تدهور الوضع السياسي، قام نيكولاس بحلّ مجلس الدوما، وحيث لم يكن ويت قادراً وعلى ما يبدو بالإمساك بزمام المشاكل المستعصية بشأن إصلاح روسيا والملكية عمد إلى تقديم استقالته من منصبه.

هذا وإن مشاكل البلاد الداخلية أسهمت في تعقيد المسائل بالنسبة لنيكولاس. وبالنسبة للوريث الشاب أليكسي، الذي كان مولده بعد أربع فتيات متعاقبات. إن ألم مرض النعور Haemophilia المصاب به والذي يمنع من تخثر الدم بشكل تام، والذي ومع الوقت لا علاج له، ألقى ذلك المرض بظله على العائلة كلها. واختار كل من نيكولاس وألكسندرا عدم الكشف عن حالة أليكسي لأيِّ شخص من خارج العائلة المالكة.

ومن واقع قنوطها، بحثت ألكسندرا عن مساعدة من الصوفي جورج راسبوتين George Rasputin. بسبب قواه الخارقة على معالجة مرض النعور Haemophilia لدى أليكسس، قد أصبحت ألكسندرا تعتمد وبصورة متزايدة على راسبوتين وعلى نصائحه التي تقبلتها كنصائح مصدرها إلهي. وراسبوتين الذي انضم إلى العائلة المالكة مضى ليصبح القصة المأساوية التي أدّت إلى انهيار سلالة رومانوف الحاكمة. إن تطلعات ورغائب شخص واحد ونفوذه أضعف وحطّ من اسم وشرف سلالة رومانوف.

وبالعودة إلى المناخات الاجتماعية والسياسية التي أثرت وبشكل خطير على العائلة الملكية، فإن مجلس الدوما الثاني والذي تمّ انتخابه حسب الأصول أُنشأ في الخامس من آذار/مارس 1907. إلا أن رئيس الوزراء بيوتر ستوليبن Pyotr Stolypin قام ومن جانب واحد بحلّ مجلس الدوما في 16 حزيران/يونيو 1907 عندما وقف في مواجهة العرش. ثم قام بتغيير القوانين الانتخابية للسماح مستقبلاً لمجلس الدوما ليكون لديه ما يكفي من المحافظين وللتقليل من كلٍّ من الحضور الراديكالي ومن جماعات الأقليات القومية.

كان مجلس الدوما الثالث (الرابع عشر من شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1907 إلى الثاني والعشرون من شهر حزيران/يونيو 1912) محافظاً. وقد قام بدعم الحكومة في الإصلاح الزراعي، وفي إعادة تنظيم الجيش. وبالرغم من

انتقاده أيضاً التعسف الإداري ومستشاري الحكومة فإنه بقي قائماً مدى فترته وهي خمس سنوات بتمامها. ومهما يكن من أمر، فقد كان على بيوتر ستوليبن معالجة مهمة صعبة وذلك في مناورة المحافظين في البرلمان والذين كان لديهم تأثير أكبر على الإمبراطور. وقد تجرّأ بالحديث حول تأثير راسبوتين، وبذلك عرض نفسه لسخط الإمبراطورة. وقبل عملية اغتيال ستوليبن في العام 1911، كان بينه وبين الإمبراطور قطيعة إلى حدٍّ ما حيث إن سقوطه كان متوقعاً كثيراً.

وأما مجلس الدوما الرابع (28 تشرين الثاني/نوفمبر 1912 إلى 11 آذار/ مارس 1917) كان أيضاً من المحافظين، وقد لعب دوراً رئيسياً في تغيير تاريخ روسيا وعلى نحو حاسم وذلك خلال فترة الحرب العالمية الأولى.

وعلى الجانب الآخر، فقد عجلت عملية اغتيال أرشيدوق النمسا فرانز فرديناند بتجمع غيوم الحرب التي خيّمت على أفق الإمبراطورية الأوروبية. وعند نشوب الحرب العالمية الأولى في الأول من آب/أغسطس 1914 لم يكن لدى روسيا ميل للقتال إذ لم تكن بالإجمال مهيأة لذلك. وقامت ألمانيا في شرق بروسيا بدحر الجيشين الروسيين. إلا أن الجيوش الروسية قد أحرزت لاحقاً نصراً معتبراً ضد كلٍّ من الجيوش النمساوية – الهنغارية، وضد قوى الإمبراطورية العثمانية.

وتدريجياً فإن حرب الاستنزاف بدأت على امتداد الجبهة الشرقية حيث كان الروس يواجهون القوى المشتركة للإمبراطوريات الألمانية والنمساوية – الهنغارية، معانين من خسائر صاعقة. حينها أخذ نيكولاس على عاتقه أعباء منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة بعد إقالة ابن عمه والذي كانت له مكانته المعتبرة وخبراته الواسعة، من ذلك المنصب، عقب ضياع بولندا. وقد خلّفت جهوده في الإشراف على الحرب خلافات عائلية، لدى ألكسندرا بشكل رئيسي.

وعلى مشارف الربيع من العام 1915، أصبح مجلس الدوما يشكل بؤرة

معارضة ضد النظام الملكي. ومع مضي الحرب العالمية الأولى قدماً صار غير مقتنع بذلك النظام وبحكومته التي أبدت وبشكل متزايد عدم صلاحية وإهمال في إدارة شؤون البلاد، وبشكل خاص في مسألة تزويد الجيش بالعتاد.

واستمرت الاضطرابات السياسية خلال الحرب. ومنقطعاً عن رأي العامة، لم يكن نيكولاس يدرك كيف أن العامة من الشعب يشككون بزوجته من حيث أصلها الألماني وبسبب اعتمادها على راسبوتين.

وقد أدّى عجز الحكومة عن تأمين الإعانات المتواصلة على مدى فترة الحرب المضنية الطويلة إلى تراكمات من المآسي وإلى شظفٍ في العيش، كما أدّى إخفاق الجيش الأولي في الحصول على فوز عسكري مرحلي إلى تجدد الإضرابات وإلى أحداث الشغب في جميع أنحاء الإمبراطورية. وبدأت الإضرابات في بيتروغراد، العاصمة الروسية، في شباط/فبراير، وترافقت مع شكاوى ربات المنازل على شحّ الخبز أثناء فترة الحرب. وقد رفضت فرق في المواقع العسكرية في العاصمة فتح النار على المتظاهرين، كما تمرّدت أفواج عسكرية على ذلك. وحاول نيكولاس العودة إلى بيتروغراد، ولكن قطاره حوّل وجهته، بسبب إضراب عمال سكة الحديد، ليتوقف عند قرية بسكوف، مركز القيادة للجبهة الشمالية. وكان مستشاروه من الجنرالات في الجيش. إنهم هم الذين قاموا بنصحه بتقديم تنازلات سياسية بدلاً من أن يقوم بإجراءات قمعية.

وفي نهاية "ثورة شباط/فبراير" العام 1917، وفي الثاني من آذار/مارس 1917، أُجبر نيكولاس الثاني على التنازل عن منصبه. وبذلك انتهى النظام الإمبراطوري الروسي في الخامس عشر من آذار/مارس وهو نفس اليوم الذي جرت فيه عملية اغتيال يوليوس قيصر. وقد برهن نيكولاس عن عدم اتساق في حمل مهمات إدارة البلاد أثناء الاضطرابات السياسية، وفي عدم القدرة على

الإمساك بزمام الجيش.

وقام نيكولاس بالتنازل شخصياً باسمه، وباسم ابنه لأجل شقيقه الدوق الكبير ميخائيل ألكسندروفيش. وأعلن الدوق الكبير قبوله العرش، واضعاً نهاية الدور الذي لعبته سلالة رومانوف في الحكم لمدة ثلاثة قرون.

ولو قدّر لنكولاس تسيير الأمور بنفسه، لكان قبل بالملكية الدستورية ولأصبح الإمبراطور المصلح. ولكن وبسبب تأثير فاعليات سياسية، وعلى وجه الخصوص زوجته وأقربائه، وراسبوتين، فإنهم جعلوا من ذلك أمراً مستحيلاً.

وقد جلبت استقالة القيصر إلى السلطة فلاديمير إليخ إليانوف، والذي كان يعرف بشكل أوسع بـ "لينين"، وأيضاً تأسيسه لما يدعى اليوم اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية.

ومع تنازل نيكولاس عن الحكم، قام مجلس الدوما بتعيين حكومة مؤقتة برئاسة ألكسندر كيرينسكي، إلا أن تلك الحكومة واجهت في بيتروغراد منافسة لدى العمال السوفياتيين ولدى ممثلي الجنود في البرلمان؛ وهؤلاء هم مزيج من جماعة من 25000 نائبٍ مختارين من المعامل والجيش ضمن وحول بيتروغراد.

وصل لينين إلى بيتروغراد بمساعدة ألمانية في السادس عشر من نيسان/أبريل 1917 مع حشد واسع من الأتباع عند محطة فنلند للقطارات. وسرعان ما شرع بأعمال ثورية في بطرسبرغ منظماً عصياناً مسلحاً في تموز/يونيو في ذلك العام. وفشلت محاولته، ليضطر من ثم إلى الاختباء في فنلند. بين آذار/مارس وتشرين الأول/أكتوبر أُعيد تنظيم الحكومة المؤقّتة أربع مرات، ولكن في أيلول/سبتمبر كان البلشفيون وحلفاؤهم، الثوريون الاشتراكيون اليساريون، قد تجاوزوا الثوريين الاشتراكيين والمنشقيين (جماعة معتدلة من الحزب الثوري الاشتراكي الروسي كانت تدعو إلى التدريج في بناء الاشتراكية في روسيا) وكان لهم الأغلبية في كلا البرلمانيين السوفياتيين في بتروغراد

وموسكو.

قائماً بالردّ على المشاعر الثورية النامية في بلده، عاد لينين إلى بتروغراد في تشرين الأول/أكتوبر وبدأت الثورة المسلحة المعروفة باسم ثورة تشرين الأول/أكتوبر الكبيرة الاشتراكية. وتمّ إسقاط الحكومة المؤقتة في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر وأدّى ذلك إلى مجيء حكومة طبقة الفلاحين والعمال إلى السلطة. في ذلك المساء، انعقدت كل البرلمانات الروسية السوفياتية بأعضائها جميعاً، وتمّ تنصيب لينين رئيساً على أعضاء الحزب الشيوعي في اللجنة الشعبية. وتمّ افتتاح إذاعة لينين المشهورة "للجميع" في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني/نوفمبر. ذلك شكّل بصمة من بصمات إنجازات حقبة الثورة الروسية.

وكان قد قال كارل ماركس: "الثورات هي عربات التاريخ". لذا دعونا نتفحص أين أخفقت عائلة رومانوف حيث قاد إخفاقها وبالنتيجة إلى حركة ثورية كانت حتمية.

إن المئة وخمسين مليوناً من مواطني الإمبراطورية الروسية كانوا مشدودين إلى بعضهم بعضاً ليس بدافع المصالح الاقتصادية ولا برباط الهوية القومية، ولكن كان ذلك نتيجة للحكم الأوتوقراطي عبر القرون. لقد كانوا في انتظار فرصة لتحرير أنفسهم من الاضطهاد والظلم، حيث توفرت تلك الفرصة من خلال أهل الفكر الروس. ويقول صاموئيل آدمز Samuel Adams: "ليس هناك من حاجة للأغلبية للفوز بالنصر، ولكن وعلى نحو أدق هناك حاجة إلى غضبة، إلى حماس أقليات متواصل لإيقاد الفكر في أذهان الناس" ومن يفعل ذلك هم طبقة المثقفين من أهل الفكر فقط.

إن طبقة الفلاحين التي كوّنت 80% من سكان البلاد كانت شبه معزولة عن الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، وتدنى وضعهم الاجتماعي إلى درجة

نبذهم من قبل المجتمع. وأما عمال المصانع الذي يبلغ تعدادهم المليونين فقد كانوا متحضرين بشكل ظاهري. لذا لم يبقَ هناك سوى أهل الفكر لإيقاظ الجماهير من الهجوع. ومن ناحية ثانية، فإن غياب التمثيل المؤسساتي، والصحافة الحرّة إلى العام 1906 مشتركيْن مع انتشار التعليم، حرّكا النخبة المثقفة لمطالبة اليمين بالتحدث باسم الشعب الصامت. وقد عزّز أهل الفكر في روسيا والى أقصى حدٍّ التعصب الفكري. وإن أعضاء مختلف أحزاب الجناح اليساري: الفوضويين، الثوريين الاجتماعيين، المنشڤيين، والبلشفيين، كانوا جميعاً ثوريين لا من أجل تحسين أوضاع الشعب، ولكن من أجل كسب سلطات وسطوة على الناس، وإعادة تشكيلهم على هواهم الخاص. لقد واجه هؤلاء النظام الإمبريالي وتحدّوه لأنه لا وسيلة لصدهم. وساعد الليبراليون والمحافظون أهل الفكر، ولكن من أجل مصلحتهم الفكرية فقط، وكانوا مزروعين بخوف أنه وفي حال بقاء نيكولاس في السلطة فإن الثورة تصبح حتمية. لقد كانوا يتبرمون من صلة راسبوتين بالعرش، ومن عدم السماح لأي من المزارعين بأن يكون له مركز مهم. ولم يكن بالمقدور وقف الشائعات حول معاشرة الإمبراطورة للسفلة. كان يُنظر إلى راسبوتين على أنه "القوة الغاشمة" التي كانت تدمّر روسيا الأم.

"من الأسمال البالية إلى الشهرة"، فإن الخط البياني لسيرة جورجي راسبوتين يشمل الكثير من الأسباب التي أدّت إلى عملية الاغتيال اللاحقة لرومانوف. لقد لعب راسبوتين دوراً صغيراً ولكنه دور مذهل.

إنه القدر الذي قضى بسقوط السلالة الحاكمة على يد واحد من طبقة الفلاحين، والذي وعلى مدى قرون كان يرزح تحت نير العبودية ويعيش حياة أسوأ من حياة العبيد. وعلى الرغم من العقود التي مرّت على موته، استمر ظل اسم راسبوتين محاطاً بقصص من الخداع والمكائد أحاطت به كما أحاطت بموته. فمن هو جيورجي إيغمونتيش راسبوتين، وما الذي جعله محبوباً من قبل العائلة الملكية؟

ولد جيورجي إيغمونتيش راسبوتين في عائلة قروية في قرية سيبيريا. في العاشر من كانون الثاني/يناير وربما في عام 1869. وعرف كشاب متهتك فكان مدمناً، سارقاً، وزير نساء، ليتحوّل توجهه وفي عمر الثامنة عشرة إلى وجهة دينية، ممضياً ثلاثة أشهر في دير فيرخوتيري Verkhoturye، حيث كان مشدوداً هناك إلى طائفة مرتدة من الطائفة الأرثوذكسية، وهي طائفة السكوبستي. وإن أتباع هذه الطائفة اعتقدت وبإصرار بأن الطريق الوحيد للوصول إلى الله هو من خلال ارتكاب الآثام. ثم وعند ارتكاب الإثم والاعتراف بارتكابه، سيحصل النادم على الغفران. وفي الواقع، فإن ما تتمسك به هذه الطائفة "سكوبستي" هو المبدأ" ارتكب الإثم فتتخلص من الإثم". وقد كان راسبوتين متعلقاً بالمبدأ الكامن وراء هذا المبدأ. وبعد زواجه من بروسكوفيا فيودوروفنا Proskovia Fyodorovna والتي عاش معها حياة وجيزة، لبس رداء الراهب، وطور تعاليمه الشخصية التي ترضيه، وطاف في البلاد كمرشد روحي، وارتكب الإثم من أجل إرضاء سريرته.

وعند بلوغه أوائل الثلاثين، كان راسبوتين قد سافر إلى الأراضي المقدسة وعاد منها. وفي العام 1903 وعند عودته إلى سانت بطرسبرغ كان ذلك الرجل المشهور بقداسته الذاتية الذي يمتلك القوى الشافية والذي يتكهّن بالمستقبل. كل ذلك والمشعوذ الدجال لديه القليل من الإخلاص للإيمان الأرثوذكسي الروسي.

وفي البدء عمد إلى الدخول إلى المحيط الأرستقراطي في العاصمة. وحاول دون جدوى كبح انغماسه في الملذات الحسية وأساليب مغازلة النساء، إلا أن الإغواءات كانت هي المسيطرة. وخلال أشهر، استطاع راسبوتين، القديس الآثم، أن يكتسب اهتماماً خاصاً، ومجموعة من الأتباع في سانت بطرسبرغ. كما استطاع الحصول على ثقة آنا فيروبوفا Anna Vyrubova، كما وثق به أصدقاء الإمبراطورة ألكسندرا، وقد تمّ استدعاؤه للحضور لديها لمعالجة مرض النعور Haemophilia لدى ألكسس. وعلى خلاف السلف من المنجمين، استطاع راسبوتين معالجة الصبي. واعتقد البعض بأنه استعمل التنويم المغناطيسي لتهدئته موظفاً قدراته الباطنية الشافية ليكون لها تأثيراتها، بينما كان البعض الآخر يقول بأنه كان يستعمل العلق لوقف النزف.

لقد تدبّر راسبوتين الأمر لإعادة الأمل في حياة نيكولاس وألكسندرا، ونتيجةً لذلك، موظفاً قواه للتأثير على العائلة الإمبراطورية وعلى شؤون الدولة. وعاجلاً أصبح الصديق الحميم والناصح لألكسندرا. وقد كان غير مقبولٍ بالنسبة للطبقة الأرستقراطية في أن يكون الفلاح هو الناصح للإمبراطورة والذي كان بدوره يمارس قدراً عظيماً من النفوذ على القيصر. وأصبح راسبوتين في غضون ذلك شخصاً مثيراً للجدل، موجهاً الحياة الشخصية الشائنة لدى أتباعه، ومعظمهم من النساء في مجتمع الطبقة الراقية في سانت بطرسبرغ. والأبعد من ذلك، فقد كان يُرى بصحبة المومسات، مغرقاً نفسه بالشراب إلى حدِّ الغيبوبة، ليعود إلى منزله في وقت مبكر صباحاً. لقد كان شخصاً سيئ الأخلاق فظاً، قلّما يغتسل، مبرزاً سلوكه الشنيع أمام العامة. ولم يمضِ وقت طويل إلى أن أخذت دوامات الشائعات المؤذية في سانت بطرسبرغ تطاله، متهمة إياه في كونه عشيقاً للإمبراطورة ولبناتها أيضاً. وبذلك تشوّهت سمعة الإمبراطورين الزوجين، ولم يكن أحدٌ مسؤولاً عن تنامي الشائعات أكثر من راسبوتين نفسه. وخلال حفلات الشرب، كان الراهب يتفاخر باستغلاله للإمبراطورة وبناتها. والأبعد من ذلك، أنه كان يعلن بأن القيصر كالخاتم في إصبعه وأعلم البوليس السرّي القيصر بهذه الشائعات.

وتمّ استدعاء راسبوتين للحضور أمام القيصر الغاضب، إلا أن ألكسندرا دافعت عنه وحمته. وعاقبه القيصر بإعادته إلى الأبرشية، إلا أنه تركها حالاً بسبب أزمة نزيف دموي أخرى لدى ألكسس حتى كادت تقتله. وكان تأثير الراهب راسبوتين على الصبي هو الضمان لعودته إلى سانت بطرسبرغ. ولم

يعد هناك أبداً من تحديات لعلاقته مع محيط العائلة المالكة مرة ثانية.

وصل راسبوتين لقمة نفوذه في البلاط الروسي بعد العام 1915. خلال الحرب العالمية الأولى، حينها أخذ نيكولاس الثاني قراراً بقيادة قواته ومضى إلى الجبهة الأمامية، تاركاً ألكسندرا لإدارة شؤون البلاد الداخلية بينما كان راسبوتين يعمل لديها كمرشدها الشخصي. وامتد تأثيره من وكيل معتمد من الكنيسة إلى شخص وصولي غير كفء في المجلس الاستشاري الوزاري، وكثيراً ما كان يتدخل في الشؤون العسكرية محدثاً الضرر لروسيا. ولتوسيع نفوذه أكثر، كان يعاشر نساء الطبقة العليا في المجتمع ليحوز على مطالبه السياسية.

كان الجميع يتحدث عن ضرورة التخلص من راسبوتين. محاولين التوضيح للملكين الزوجين الخطر الذي وقعا فيه بسببه، قام العديد من المقربين ذوي النفوذ لدى كليهما نيكولاس وألكسندرا بالحديث عن حقيقة راسبوتين وعن الشائعات التي كانت منتشرة إلا أن الزوجين لم يصغيا.

وبعد خيبة أملهم في كسر الحواجز التي وضعها نيكولاس وألكسندرا، قام بعض أعضاء عائلة رومانوف بأخذ الأمر على عاتقهم. وكان من بين هؤلاء الدوق الكبير ديمتري بافلوفتش والأمير فيليكس يوسوبوف، إذ كانا من ضمن من تزعم خطة الوقوف في وجه راسبوتين. وكانت الخطة نسبياً سهلة وبسيطة، وهي تقضي بتقرب يوسوبوف من راسبوتين فيصادقه ويستدرجه إلى قصره يوسوبوف لقتله. وقد تقرّر أن تنفّذ عملية القتل ليلاً في 16 – 17 من شهر كانون الأول/ديسمبر. وكان غطاء الليل هو الأفضل للتنصل من الجريمة ولإخفاء الجثة. والسؤال كيف الوسيلة إلى استدراج راسبوتين من محل إقامته؟ وبمعرفة مدى انغماس راسبوتين بالجنس، تقرّر استخدام زوجة فيليكس الجميلة إيرينا كطعم.

وكما هو متوقع، فقد وقع راسبوتين في الفخ، وجاء إلى قصر يوسوبوف مساء السادس عشر من شهر كانون الأول/ديسمبر العام 1916 وقد قُدّم له الكيك (كعكة) والمشروب المفضل مخلوطاً بمحلول السيانيد؛ وتبعاً للرواية فإن

راسبوتين لم يتأثر على الرغم من أنه كان في المحلول من السم ما يكفي لقتل عشرة رجال. بعد ذلك تمّ إطلاق الرصاص عليه ثلاثاً، وضُرب بهراوة وأُغمي عليه وأُلقيت جثته من ثم بنهر النيفا. وبعد ثلاثة أيام من وضع السم لراسبوتين وإطلاق النار عليه ثلاثاً وضربه بضراوة، تمّ العثور على جثته في النهر، ليصار من ثم إلى تشريحها. وكان سبب الموت يعود إلى الغرق!

إن تلك الميتة العظيمة التي تأخرت، وكما يسردها فيليكس يوبوسوف في مذكراته، هي موضع تعجب وتندّر إذ كيف خادع راهب فوق البشر ملك الموت لعدة ساعات. وبقيت تلك القصة متجاوزة حدّ الخيال في كل المقاييس، إلا أن الغموض والهالة المحيطيْن براسبوتين يرفضان الزوال. وإن الصحافة المعاصرة وأيضاً المقالات المثيرة والكتب المنشورة في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين حوّلت شخصية الفلاح المثيرة إلى معتقد شعبي.

هذا وإن الطبقة الحاكمة باستثناء مجموعة ضئيلة من البطانة بالإضافة إلى المتعبدين الصوفيين يرون بأن هذه الجريمة إنما هي خلاص من الخطيئة. ومهما يكن من أمر فإن نسبة 80% من سكان روسيا يرون في راسبوتين "رجل الشعب". لقد كان أملهم في أن لا ينسى الزوج الملكي أبداً أزمة الفلاحين وأوضاعهم. إن قتله على يد أرستقراطيين الذين هم أعضاء في العائلة المالكة، سرق من الطبقة العالية الكثير من الدعم بين مواطني طبقاتهم الاجتماعية.

لقد لعبت عملية قتل راسبوتين دوراً مهماً، إلا أنه دور مختلف يختلف عن الدور الذي حسب حسابه مرتكبو العملية ومنظموها. فهي لم تخفف المشاكل بل زادت من حدتها. وبصورة عامة، فإن الملكية استمرت فقط عشرة أسابيع بعد موت راسبوتين.

إن تعليقات راسبوتين التكهنية ستظل تردد إلى الأبد "عندما يدق الجرس

ثلاث مرات، فإنه يعلن بأنني قُتلت. وإذا ما قُتلت على أيدي ناس عاديين فإنكم وأولادكم ستحكمون روسيا على مدى قرون. وإذا ما قُتلت على يد أحد منكم، ستموتون أنتم وعائلتكم على يد الشعب الروسي! فلتصلِّ أيا قيصر روسيا، صلِّ".

إنها الحرب تعلنها الحكومة عندما تخبرك عن الفساد، وإنها الثورة عندما تكتشف ذلك بنفسك. هذه المقولة دعّمت مشاعر العداء العميقة لدى قدر غالبية الشعب بالنسبة للنبلاء الروس في زمن الثورة الروسية. إن الملكية الفاسدة ونبلاءها حكموا عنوة على مدى قرون وأصبح سقوطهم محتملاً. وإذا كان هناك من أحد يعلق في مثل هذه الظروف، فيما إذا كان الروس وتاريخ العالم يأخذ منحنىً مختلفاً فيما لو نجى نيكولاس رومانوف، فإن الجواب سيكون وبشكل قطعي "كلا".

ولم يكن هناك من سؤال حول ملكية دستورية لتحل محل الحكم المطلق والأوتوقراطي للقيصر. إن نيكولاس وخلال فترة حكمه على مدى قرنين كان واعياً في تأجيج السخط ضد حكمه؛ إلا أنه لم يفعل شيئاً لإصلاح الأمور لحل المشاكل. لقد فقد الشعب الروسي الاحترام كله للعائلة المالكة التي أخذت في الانحدار على طريق الشعوذات الصبيانية والضلال. لذا، فإن الشعب لن يقبل بعودة القيصر كحاكم.

ولو أن نيكولاس وعائلته كانوا فرّوا من عملية الإعدام يوم السادس عشر – ليلة السابع عشر من شهر حزيران/يونيو لكانوا طلبوا اللجوء إلى أية دولة أوروبية، كما فعل العديد من الناجين من عائلة رومانوف، ولكان هو وعائلته

سيموتون في صمت هناك. إنه قدر العديد من الملكيات المعزولة في القرن العشرين.

لقد كانت الثورة الروسية لحظة حتمية في تاريخ الإنسانية، الإنسانية التي تمّ التخطيط لها على ضوء مبادئ أول مجتمع ماركسي كان مُتَخيلاً من قبل رجل. ولو أن نيكولاس كان قد بقي حياً في تلك الليلة المشؤومة، لوقف كشاهد متفرج على الثورة.

ومهما يكن من أمر، فإن لينين المنتهك للقانون وعند سماعه في تشرين الأول/أكتوبر بأن روسيا قد ألغت عقوبة الإعدام أثار جدالاً حول قيصر روسيا فيما إذا كان سينجو بسبب تصريحه الشهير: "كيف بإمكان صناعة ثورة بلا عمليات إعدام".

رفيق الحريري

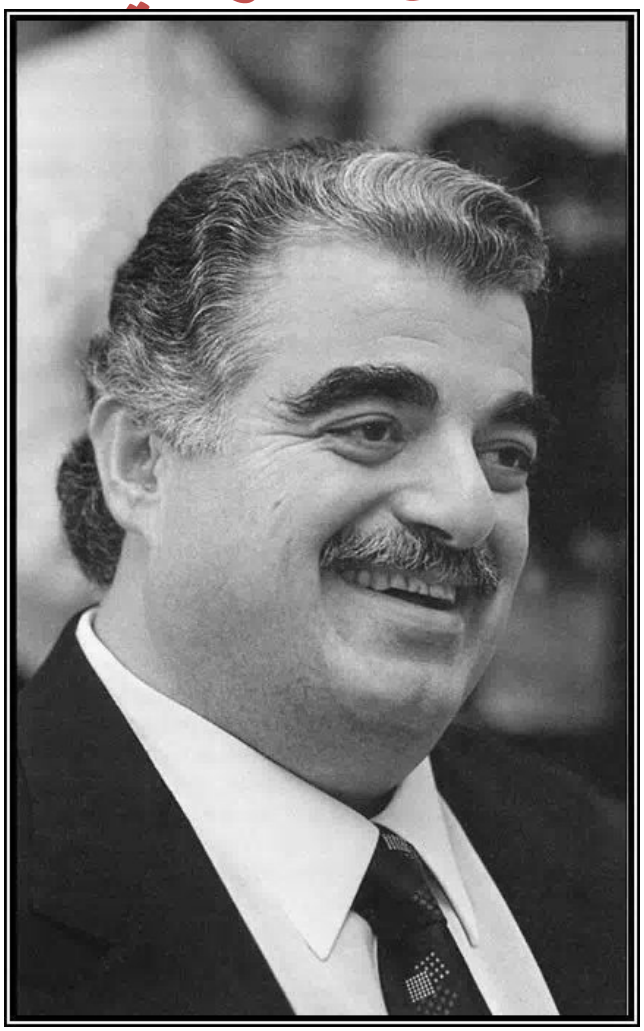

يقول أوسكار وايلد: "إن معظم الناس لا يمثلون أنفسهم، فأفكارهم هي لآخرين، وحياتهم إنما محاكاة لحياة آخرين، وعواطفهم هي اقتباسات". وإن رفيق الحريري هو عكس ذلك، إذ يجب على الفرد أن يختار، وهنا تكمن قوته، وصلابة قراره. لقد اختار الحريري أن يصبح "سيد لبنان" وكان يمثل وجه لبنان في الخارج، وها إنه قد لعب هذا الدور إلى النَّفس الأخير من حياته.

في الثامن والعشرين من شباط/فبراير 2005 كان هناك بحر من الأعلام اللبنانية رفعها متظاهرون معارضون للحكومة بلغ تعدادهم أكثر من مليون

شخص متهافتين إلى شوارع بيروت هاتفين بإنهاء الاحتلال العسكري السوري للبنان الذي استمر على مدى ثلاثين عاماً (منذ العام 1975)، ووحّد ذلك جميع اللبنانيين في نضالهم في سبيل الحرية والاستقلال. ولكن ما سبب نزول هذا الطوفان البشري إلى الشوارع؟ لقد جاء ذلك استجابة لما حدث قبل أسبوعين في يوم عيد الفالنتين. في ذلك اليوم، تمّ اغتيال العصامي البليونير رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري في بيروت بواسطة تفجير هائل أودى بموكبه.

في الرابع عشر من شباط/فبراير 2005 اغتيل رفيق الحريري بسيارة مفخخة قتلت 21 شخصاً وجرحت ما يقارب المئة. وقد تطاير موكب السيارات مستقراً في قاع البحر المواجه عند انفجار ما يساوي تقريباً 1000 كلغ من مادة الـ T.N.T، مذكراً هذا الحدث بحادث وقع في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني/نوفمبر العام 1989 عند انفجار سيارة تحمل 250 كغ من المتفجرات أطاحت بموكب الرئيس السابق رينيه معوض في بيروت الغربية والتي قضت عليه مع 23 شخصاً آخرين. وانضم الحريري بموته إلى قائمة زعماء لبنانيين لامعين مثل بشير الجميل، كمال جنبلاط ورينيه معوض، إلى جانب وجوه وطنية لا تُحصى دفعت حياتها من أجل لبنان.

وقد عاد صدى كلمات بيار الجميل، المؤسس للكتائب اللبنانية ورئيسها (والمعروف أيضاً بالكتائبي)، عاد ليعلو بموت الحريري: "إنه وإذا كان موتي سيحقق السلام لهذه الأرض، عندها لفوني بعلم لبنان وقوموا بحرق جثتي بقرب أرزه". وعند وفاة بيار الجميل في العام 1984 كان لبنان يحترق. فهل حقق موت الحريري السلام لهذه الأرض؟ وللحظة يبقى هذا السؤال بلا جواب.

ومن المفارقة أن لبنان الذي يعتبر مهد الحضارات، يملك تاريخ عنف بقي على حدته إلى اليوم. وإلى حين انفجار الحرب الأهلية اللبنانية، كانت بيروت، عاصمة لبنان، بشوارعها الواسعة ذات النمط الهندسي الفرنسي وبحداثتها، تعرف بـ "باريس الشرق الأوسط". وكان لبنان ككل يعتبر سويسرا الشرق الأوسط (سويسرا الشرق).

ولفهم مسيرة حياة الحريري ودوره في السياسة اللبنانية، إنه من الضروري الانعطاف نحو الماضي والإيغال (التنقيب) في مسيرة حياته. لقد تمّت صياغة لبنان الحديث من قبل فرنسا في العام 1926، ومن خلال أمر رسمي من هيئة الأمم المتحدة، أصبح لبنان موطناً للموارنة الكاثوليك القاطنين في سوريا. ونال لبنان استقلاله الأول في كانون الثاني/يناير عام 1944. وفي العام 1948 كان على الفلسطينيين الفرار من فلسطين مع تأسيس اليهود للوطن الجديد وقدوم الملايين منهم بأعداد كبيرة من كل الأماكن في حركة لما كانوا يطلقون عليها "العودة التاريخية إلى الوطن".

وفي أوائل الخمسينيات شكّل لبنان علاقة وثيقة مع الغرب وقَبِل بمساعدة الولايات المتحدة تحت مبدأ أيزنهاور. وقد أدّت سياسة تأييد الولايات المتحدة بالنتيجة إلى اضطرابات وتدخلت قواتها في تموز/يوليو 1958. وانتهى النزاع المدني مع تغييرات تمّ إجراؤها في الحكومة وكان على القوات الأميركية مغادرة البلاد. ومن ثم اتخذ لبنان مساراً أقرب لذاك الذي اتخذته دول عربية أخرى. وأثناء الحرب العربية – الإسرائيلية في العام 1967 قدّم لبنان دعماً شفهياً للجهود النضالية إلا أنه لم يستخدم أية قوة عسكرية فعلية. وبعد ذلك أصبح وضع لبنان يتزايد صعوبة بسبب نشاطات اللاجئين الفلسطينيين الذين جعلوا لبنان قاعدة للهجوم على إسرائيل، التي أخذت وبشكل متكرر باتهام لبنان بعدم قيامه بأي تصرف للسيطرة على العنف وبدأت القوى الإسرائيلية سلسلة عمليات للرد بالمثل ضد معقل الفلسطينيين في لبنان وذلك في العام 1968. وفي العام 1969 اندلع القتال بين الجيش اللبناني وبين رجال الصاعقة الفلسطينيين بعد أن هددت الحكومة بتقليص نشاطهم.

ومن جهة أخرى، لم يدخل لبنان حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973 العربية – الإسرائيلية ولم يقم الجيش اللبناني بالتدخل بالعمليات الفدائية الفلسطينية في جنوب لبنان. إلا أن الحرب الأهلية اللبنانية (1975 – 1990) كان لها جذورها في التسوية والصراع السياسي، وهي تعود إلى الفترة الاستعمارية للبنان وتفاقم الوضع بسبب النزعات الديموغرافية الإقليمية المتغيرة، والنزاع الديني المسيحي – الإسلامي، والتورط السوري. وقد استغل كل من إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف) تلك الفوضى. وحرّكت إسرائيل الحرب الأهلية، محرضة

المسيحيين الذين تبلغ نسبتهم 40% على المسلمين ونسبتهم 60%. واتجه لبنان لطلب قوة عسكرية من سوريا في العام 1976 التي قامت بإرسال قواتها إلى لبنان. والواقع أن البعثيين في سوريا كانوا يقاتلون ضد الفلسطينيين وهذا من المفارقات. وهكذا عمد السوريون والموارنة معاً في دفع الفلسطينيين إلى جنوبي لبنان، ومن ثم وعلى مدى بضع سنوات فإن تقلبات المناخات السياسية سببت في قيام سوريا بعقد تحالف مع الفلسطينيين، وبعقد الموارنة تحالفاً مع إسرائيل. وكان أن نتج عن ذلك الأمر الأكثر جسامة وسوءاً بقاء القوات السورية في لبنان، والتي كانت تسيطر وبشكل فاعل على حكومته عند دخوله عتبات القرن الواحد والعشرين.

لقد كانت الحرب الأهلية الآفة الأكثر مضاءً في حقبات لبنان التاريخية، وكانت في وضع ربما تشابهت فيه مأساتها بمأساة هوميروس. كان لديها سخرية القدر، عنف أرعن، لحظات بطولية، حسد وانفعال. وقد تبدلت التحالفات وبشكل سريع ومفاجئ أثناء مسار القتال، وإلى نهاية الحرب، فإن جميع الأحزاب تحالفت، ونقضت تحالفات مع محالفيها على الأقل مرة واحدة.

إن كلمات الرئيس اللبناني الضحية رينيه معوض، هدرت عالياً بلهجة استعطافية خلال الحرب، لكن وللأسف لم يكن هناك من يسمع: "ليس هناك من بلاد أو كرامة دون توحد الشعب، وليس هناك من توحد بدون توافق. وليس هناك من توافق بدون مصالحة، وليس هناك من مصالحة بدون تسامح وتسوية".

لقد كانت فترة الثمانينيات على وجه الخصوص فترة كئيبة كانت فيها بيروت بمعظمها ترزح تحت الدمار خلال الغزو الإسرائيلي الذي أخرج منظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف) من البلاد. وأدخلت الحرب البلاد أكثر من أي وقت مضى في الإثنية وفي المجازر الدينية، وفي النهاية أصبح الاستقلال اللبناني في عداد القتلى. وفي إحصاء تبيّن أن هناك ما يقارب الـ 50.000 لبناني من

القتلى وضعف هذا العدد من الجرحى. البلاد هُدّمت، وصار هناك عجز في الاقتصاد، والسياحة، التي هي من أحد دعائم الاقتصاد، هبطت في قاع لا قرار له. في هذا الوقت العصيب، ظهر الحريري في المشهد في لبنان، مصمماً على قيادة مصير لبنان وتوجيهه خارج مساره المأساوي. وكانت فرصته في قناعته بأن النتيجة ستكون إيجابية. ومهما يكن من أمر، فقد كانت هذه المهمة شاقة إلى حدٍّ كبير، وليس باستطاعة أي رجل القيام بإعادة إعمار دمار شعب وقع في مثل تلك المأساة.

ودعونا الآن نرجع قليلاً إلى الوراء إلى بدايات الستينيات والسبعينيات عندما ترك العديد من المواطنين اللبنانيين دولتهم بحثاً عن مستقبل أفضل. واليوم هناك ما يقارب المليونا لبناني الذين يعملون خارج لبنان، والمنتشرون في جميع أنحاء العالم، وأعدادهم تقل عن 3.5 مليون من اللبنانيين الذين يكوّنون سكان لبنان، وفيهم حوالى ما يزيد على المليون تقريباً هم من القادمين من العمال السوريين. وإن التغيرات السكانية عبر السنين قد أحدثت تغيراً ديموغرافياً في الملامح الإثنيّة للبنان. فالأكثرية من السكان الذين تركوا لبنان كانوا من المسيحيين ويتبعهم المسلمون.

وكان رفيق بهاء الدين الحريري من العديدين الذين تركوا لبنان الساحلي.

ولد الحريري في صيدا القرية اللبنانية في العام 1944 وكان أحد أبناء رجل مسلم سني فلاح وبائع خضار. وعند إتمامه مرحلة الدراسة الثانوية في العام 1964، انتسب الحريري إلى جامعة بيروت العربية لدراسة المحاسبة. وكان خلال تلك الفترة عضواً فعالاً في حركة القوميين العرب (ح. ق. ع)، طلائع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لجورج حبش (ج. ش. ت. ف).

وفي العام 1965 قطع الحريري دراسته (وعلى ما يُقال إنه بسبب عدم قدرته على دفع القسط الجامعي) مهاجراً إلى المملكة العربية السعودية. وبعد عمله كمعلم رياضيات في جدة، وثم محاسب في شركة هندسية، قام بتأسيس شركة مقاولات خاصة به في العام 1969. وبرزت شركته كلاعب أساسي في منجم الثراء بسبب أعمال البناء الذي جاء نتيجة تعاظم شأن النفط في السبعينيات، متعهداً عقود بناء حكومية وخاصة لبناء مكاتب، مستشفيات، فنادق، قصور ومباني سكنية ضخمة. وبعد شرائه الشركة الفرنسية للبناء الضخمة "أوجيه"

في أواخر السبعينيات، كان الحريري على رأس أكبر إمبراطورية إعمار في العالم العربي. وتزوج من نازك عودة في العام 1965 وكان له خمسة أطفال.

ونظراً لصيته في الأمانة والوفاء في عمله (قام بتشييد فندق المسرة في الطائف خلال ستة أشهر فقط لاستقبال القمة الإسلامية)، فاز الحريري باحترام العائلة المالكة وتمّ منحه الجنسية السعودية في العام 1978. وفي الثمانينيات أصبح الحريري من بين المئة في العالم الأكثر ثراء، واتسعت إمبراطورية أعماله لتشمل شبكة البنوك في لبنان والمملكة العربية السعودية وأيضاً شركات التأمين، والمطبوعات، والصناعات الخفيفة وقطاعات أخرى.

وقد مثلت إنجازاته صورة السنّي العصامي الذي أصبح بليونيراً، والذي هو الآن جاهز لتوحيد لبنان بمختلف أحزابه وزمره ولإعادة إعماره. وقد شغل منصب رئيس وزراء لبنان من العام 1992 إلى العام 1998، ومرة ثانية من العام 2000 إلى أواخر العام 2004.

وخلال الثمانينيات عمل الحريري كمبعوث شخصي للملك فهد إلى لبنان، متزعماً جهود الوساطة السعودية لإنهاء الحرب الأهلية. وقام في أوائل الثمانينيات بالمساعدة في تنظيف شوارع بيروت على نفقته الخاصة، وساعد المشاركين في مفاوضات المؤتمر العالمي للحوار الذي ضمّ المتحاربين من جميع الأطراف والذي عقد في جنيف في تشرين الثاني/نوفمبر العام 1983.

وفي صيف العام 1989 ساهم الحريري في تنظيم مؤتمر لأعضاء البرلمان اللبناني "للمصالحة الوطنية" في الطائف في المملكة العربية السعودية. وهذا ما أدّى إلى تبدل وجهة مستقبله وجعله في دائرة الضوء السياسية. وأسفرت الاتفاقية على تغطية مجموعة إصلاحات، وهي إنهاء الحرب في لبنان، التأسيس لعلاقات متميزة بين لبنان وسوريا، وإطار عام لبدء الانسحاب السوري التام من لبنان. وتمّ توقيع الاتفاقية في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر العام 1989. وأدّت المصالحة إلى توزيع الوزارات بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين. إلا أن سوريا لم تكن جاهزة بعد لترك لبنان لأجهزته الخاصة؛ إذ إن القوات السورية قامت باختراق شرق بيروت في تشرين الأول/أكتوبر 1990 جارفة المعالم الأخيرة لجمهورية لبنان الأولى.

ومستشعراً الفرصة، عاد الحريري إلى لبنان بادئاً بمفاوضات حول عقود

إعادة البناء مع الحكومة المعينة من قبل سوريا. ومع حلول الصيف عام 1992 ترأس الحريري مشاريع إعادة إعمار العاصمة، وهذا دعا إلى البدء بما يسمّى "متخرجي الحريري". وأصبح الحريري مثار استحسان في الأوساط اللبنانية إذ كان بالنسبة لهم "منقذ الاقتصاد". وفي تلك الأثناء بدأ البليونير الطموح بالحديث على الملأ ولأول مرة حوّل آرائه في "المصير المشترك" بين لبنان وسوريا في دعوة واضحة للتأكيد على النظام السياسي السوري بأنه لن يعارض مسألة نشر نفوذها على جميع الأراضي اللبنانية.

وهكذا فإن المعارضة السورية للحريري في إمساكه بالدفة السياسية تقلصت شيئاً فشيئاً وذلك بسبب تنامي ثقتهم في قدراته على حماية مصالحهم في لبنان. وبعد تنسيقها للانتخابات البرلمانية عام 1992، لتأليف برلمان طيِّع، سلّمت سوريا رئاسة الوزارة للحريري. وكان تعيين الحريري مثار حماس كبير من قبل معظم اللبنانيين.

وإن الحريري الذي كان يتمتع بصلات وثيقة مع الولايات المتحدة وأوروبا والخليج العربي، فإنه كان محل ثقة لدى الجميع في أنحاء العالم. ومن أجل تأمين الدعم من مختلف الأطياف لدى رؤساء الميليشيات، وبسبب الإيديولوجية السورية السابقة في تمثيل سوريا في الحكومة، سمح الحريري بأخذ ضريبة من الشعب لصرفها لإغناء جميع المرافق الحكومية. وبالتالي فقد حصل على مطلق الحرية في الأمور الاقتصادية. وتعاون الحريري مع القيادة السورية لتثبيت نفوذها على لبنان.

إلا أنه ومع حلول العام 1998 كان الاقتصاد اللبناني على حافة انهيار مفجع، وبدأت سوريا ترى في الحريري مسؤولاً عن ذلك. وكنتيجة لإطلاق يد الحريري في الصرف العام، والفساد المتفشي في الحكومة، ارتفعت الديون اللبنانية القومية إلى 18.3 بليون من الدولارات، وهو الدين العام الأعلى لكل فرد في أي سوق للعرض. وأخذ الاقتصاد بالتراجع من نسبة 8% في العام 1994 إلى ما تحت 2% وذلك في العام 1998.

ومن المفارقات أن علاقات الحريري مع رموز نظام الأسد الطويل الأمد برهنت أنها كانت سيفاً ذا حدّين. فخلال التسعينيات عمد بشار الأسد ابن وولي عهد الدكتاتور السوري الراحل حافظ الأسد إلى الإمساك بالملف اللبناني كجزء من تدريبه السياسي، مقترحاً بعزل الحريري. وتمّ تعيين الجنرال إميل لحود كرئيس، وسليم الحص كرئيس جديد للوزارة، وقد تمّ تعيينه لإصلاح الاقتصاد.

وبعد إقصاء الحريري قامت إدارة الحص الجديدة بحملة كان هدفها المعنيين في الوظائف والحلفاء السياسيين لرئيس الوزراء السابق، بينما كانت أوساط الدولة تسعى بلا هوادة إلى تشويه سمعة البليونير. وعبر العامين التاليين، فإن موجات الدعم الحذرة لدى العامة لإدارة لحود – والحص تبدّدت عندما بدأت البلاد مرحلة الانكماش الاقتصادي.

وعاد النظام السوري لبناء جسوره مع الحريري في العام 2000 وذلك مع قرب حلول وقت الانتخابات في ذلك العام. وقد حاز الحريري ومحالفيه على انتصار لدى صناديق الاقتراع، ليعاد ثانية إلى تعيينه رئيساً للوزراء.

ومن ناحية أخرى، إن مصائب الاقتصاد اللبناني أحدثت ضغطاً بالغاً على الحريري من قبل صندوق النقد الدولي I.M.F ومن قبل البنك الدولي للالتزام بإصلاحات اقتصادية أكثر احتياجاً. فتعهّد بإنقاص حجم التضخم الحكومي الإداري، وخصخصة الصناعات في القطاعات العامة غير الفعّالة، وتخفيض إنفاقات الحكومة.

وقد استعمل الحريري خصائصه الشخصية المتميزة مع الفرنسيين في العام 2002 لتخليص الاقتصاد مرة ثانية من مغبة الهبوط الاقتصادي، وكان ناجحاً في تنظيم مؤتمر للمانحين (الداعمين الماليين) في باريس. وفاز برنامج الحكومة الإصلاحي بدعم المشاركين في المؤتمر. ووافق البنك الدولي وبنك الاستثمار الأوروبي على التزويد باعتمادات مالية للمشاريع المالية المتطورة

حيث كان الممولون بقيادة فرنسا ودول الخليج، يمدون بالمال الذي تستعمله الحكومة لمقايضة القروض الباهظة الثمن بقروض أقل منها سعراً.

لكن لم يكن كل شيء مشرقاً بالنسبة للحريري على الجبهة السياسية. فإن حزب الله رفع من وتيرة حربه ضد إسرائيل وهذا يؤكد على أن الانتعاش الاقتصادي في البلاد سوف يحتل المقعد الخلفي تبعاً للمصالح الاستراتيجية السورية. وأدّى البقاء المستمر للجناح العسكري لحزب الله بعد العام 1990 إلى تقويض اتفاقية الطائف التي أنهت الحرب الأهلية اللبنانية، وحيث ألزمت اتفاقية الطائف الجميع بحلّ كل الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية بواسطة الحكومة لنشر الجيش اللبناني على المنطقة الحدودية المتاخمة لإسرائيل. لكن الحكومة اللبنانية لم تحاول تجريد حزب الله من سلاحه خلال الأعوام 1990 – 2000 مبررة موقعه من خلال الواقع في أن حزب الله إنما هو قوة الدفاع الوطنية الشرعية المقاتلة في سبيل تحرير الجنوب المحتل من قبل إسرائيل.

وبعد طرد الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان وذلك في العام 2000 كان لحزب الله صدامات مع الجيش الإسرائيلي. وحزب الله الذي يمثل في هيكليته الحزب السياسي الشيعي والاجتماعي بتفوق، قام في العام 1982 بتأثير من إيران بطرد المحتلين الإسرائيليين من جنوب لبنان. هذا ويذكر بأن معظم متطوعيه ومناصريه هم من فقراء الشيعة الذين يستفيدون كثيراً من أعمال حزب الله الخيرية الاجتماعية.

وقد تمّ تعيين الشيخ حسن نصر الله قائداً على حزب الله بعد اغتيال إسرائيل لقائد الحركة عباس الموسوي في العام 1992. وما زال حزب الله تحت قيادته إلى الآن وهو يمثل الخصم العسكري الخطير للوجود الإسرائيلي.

وبالعودة، فإنه وفي التالي من الأيام، ازدادت الأمور تعقيداً بين الحريري وبين الحكومة السورية. فقد وضع السوريون الأمن الخاص بالوزراء تحت سيطرة الحلفاء الموالين للسوريين، الذين كلفوهم تجنّب رئيس الوزراء وإعطاء التقارير الفورية للرئيس لحود. وقد أصبح التوتر بين الحريري وبين السوريين أكثر جلاء عند بدء حزب الله بمتابعة هجوماته ضد القوات الإسرائيلية.

إلا أن الحريري تابع تهكمه على الهيمنة السورية عندما أعلن على الملأ بأن ميشال عون الأشد انتقاداً لسوريا، وقائد الجيش اللبناني السابق لن يتم اعتقاله في حال عودته من منفاه في فرنسا. وعاجلاً اندلعت المواقف مع سوريا. ولم يكن إخفاق الحريري فقط بالطلب بموافقة من السوريين أو من لحود لاستقبال عدوهم الرئيس عائداً إلى لبنان إلا أنه حتى كان منزعجاً في إخبارهم على عزمه فعل ذلك. وفضلاً عن ذلك، وبعد إعلانه هذا، نبّه معاونوه الصحافة بأن القضاء اللبناني وقوى الأمن هما وتبعاً للدستور اللبناني محسوبان على مجلس الوزراء والذي يترأسه الحريري. وحالاً سارع الرسميون السوريون وبشكل حثيث للبدء في العمل للسيطرة على هذا الخرق.

أطلق الحريري بعدها رصاصة أخرى على السوريين وذلك عندما نشرت صحيفته "المستقبل" على صفحتها الأولى في مقالها الافتتاحي تساؤلاً حول فيما إذا كان باستطاعة لبنان تحمّل تبعات أعمال حزب الله الأحادية الجانب ضد إسرائيل، وخاصة النتائج السياسية الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عنها. هذا وإن الواحد بإمكانه التأكيد على صواب صحة تلك الآراء بعد مشاهدته الخراب الذي نزل ببيروت في تموز 2006 كإجراءات انتقامية بسبب خطف حزب الله لجنديين إسرائيليين.

وبالعودة، فقد مضى الحريري بعيداً في إغضاب السوريين وذلك من خلال فتحه قناة تواصل مع الرسميين الأميركيين وإهماله وزير خارجيته وآخرين من الرسميين المؤيدين لقضايا السوريين، الذين بدأوا الآن بالتطلع إلى استبدال الحريري بآخر.

وبالرغم من الكثير من النكسات، بقي الحريري في الحكم لمدة أغلب الاثنتي عشرة سنة الماضية قبل تركه الحكم في تشرين الأول/أكتوبر 2004 وسط انشقاق مرير مع الرئيس إميل لحود. وعاجلاً، تمّ تعيين عمر كرامي، رئيس

وزراء سابق، من قبل السوريين ليتولى السلطة محل الحريري.

وبالإمكان الاعتماد على الحريري، في أحسن الأحوال أو في أسوأها، لطرح اهتماماته السياسية الخاصة بتصميم على حسب جميع الاعتبارات الأخرى. ففي الماضي، هذا دفعه لاسترضاء السوريين وإسكات معارضة داخلية. وهو ما زال مصرّاً على عدم التسليم. فمع اقتراب موعد الانتخابات والغضب الشعبي المتزايد ضد حكومة عمر كرامي المؤيدة لسوريا، باتت كل الظروف مؤاتية لعودة الحريري. ولكن كانت ضربة القدر، وتمّ اغتيال سيد لبنان بواسطة عملية تفجير وحشية في الرابع عشر من شباط/فبراير 2005.

وكانت هناك إدانات عالمية جاءت من كل أنحاء العالم على موت الحريري. وفي الثامن والعشرين من الشهر نفسه قدمت حكومة رئيس الوزراء عمر كرامي المؤيدة لسوريا استقالتها داعية لانتخابات جديدة. وفي الثاني من آذار/مارس 2005 أعلنت سوريا الانسحاب على مراحل لجميع قواتها وسط غضب عالمي ضد تدخلاتها في سياسة لبنان الداخلية.

ويمكن أن يسأل الواحد منا، من هو المستفيد الأكبر من هذا الاغتيال؛ الفئة الفاعلة في النخبة اللبنانية أم السوريون الذين كانوا يفقدون وبسرعة سلطتهم على الاقتصاد اللبناني أم بعض القطاعات في إسرائيل التي تكره ثباته وإقدامه؟

ولكن أيهما كان الأكثر خطراً: الحريري رجل الأعمال، أم الحريري رئيس الدولة؟ إن الذي ضاعف من خطر الحريري، بالنسبة لمناوئيه يعود إلى فطنته الخلاقة في الأعمال التجارية، بصرف النظر عن طموحه السياسي. أرست هذه المهارات الدعائم للبنانَ نابضٍ بالحيوية. لقد بلغت نسبة حصص سوريا التجارية في لبنان إلى نسبة عشرة بلايين من الدولارات. وشيئاً فشيئاً تدنى هذا المبلغ بسلطة الحريري. إن سيطرة النخبة في السلطة السورية، التي كان لها مصالحها التجارية الواسعة في لبنان كانت الأكثر ربحاً في ذلك من أي

شخص آخر، وكانت لها كل الأسباب للكسب من وراء إبعاد الحريري.

ومن جانب آخر، فإن مجلس الأمن في هيئة الأمم المتحدة تبنى القرار 1595 لإرسال لجنة تحقيق للنظر في قضية اغتيال الحريري. وكان يرأس لجنة هيئة الأمم ديتليف ميلس، وقد عرض تقريره الأولي على مجلس الأمن الذي ورّط فيه رسميين لبنانيين وسوريين. وعلى الرغم من النقص، ولغاية اليوم، لأي دليل فعلي، وأساسي، يورط أي حزب أو شخص، إلا أن سوريا ولّدت صدمة كبيرة لدى اللبنانيين بانتهاكها حرمة القانون تجاه عملية القتل بسبب انتشارها العسكري الواسع وبتأثير استخباراتها في لبنان وأيضاً العداء بين الأسد وبين الحريري.

وقد سدّدت لبراءة السوريين رصاصة قاتلة وذلك عندما قام اللواء غازي كنعان، وزير الداخلية السوري، بإطلاق النار على نفسه إلى حدِّ الموت في تشرين الأول/أكتوبر 2005. وكان غازي كنعان قد لعب دوراً مثيراً للشك والريبة في الاغتيالات التي وقعت في لبنان.

ويضاف إلى ذلك، أن الحملة ضد سوريا تزايدت عندما عبد الحليم خدام، النائب للرئيس السوري السابق، وفي مقابلة تلفزيونية، ورّط سوريا في عملية الاغتيال، ذاكراً بأن الأسد الابن هدّد الحريري شخصياً قبل أشهر من وفاته.

ومهما يكن من أمر، فإن هناك تساؤلاً فيما إذا سيحضر قاتلو الحريري للمثول أمام العدالة. وعلى اعتبار أن ملف أحداث الشرق الأوسط البائس في أمور كثيرة، ونظراً لتورط الكثير من القوى المركزية، فإن موت الحريري قد يبقى لغزاً ليس له حل. وهذا ما تمّ التأكيد عليه من قبل فيتزجيرالد في تقريره وهو الذي كان قد تمّ تكليفه قبل ميلس. ومضى التقرير في المساءلة ومشككاً أكثر في قدرة المفوض الدولي المضي قدماً في متابعة التحقيقات، فيما قوى الأمن اللبناني ما زالت تحت إمرة الرئيس الحالي، والتأثير السوري العلني ما زال فاعلاً على مجريات الأمور اللبنانية.

وبالعودة، فقد كان للحريري نصيبٌ في الطعن في سمعته، كما هو الحال كسياسي في منزلته. فقد لامه الكثيرون على حميميته وتملقه في العمليات السياسية والاقتصادية. ومن بعض الجهات، فإن هذا الرأي أتى ليحتل الصدارة على قائمة إنجازاته العديدة. ولكن هذا لم يلطخ تصوراته السياسية والاقتصادية المستقبلية، ولم يثلم توقه لتحدي هؤلاء الذين يكرهون مرونته. فقد كان سجله الاقتصادي متنوعاً: إن شعاراته الطموحة (اقترض وعمّر)، سبب في تكريس دين عام هائل وعجز في الميزانية وهذا أدّى إلى رفع قيمة الأسهم وأعاق النمو الاقتصادي. وقد اتهم بتجاهل الفقراء كقضية في السياسة العامة، وذلك على الرغم من سجله الشخصي الطويل الحافل في منحه اعتمادات مالية بدوافع إنسانية خيرية. ومهما يكن من أمر، ليس هناك من شخص واحد لعب دوراً أكبر من الذي لعبه الحريري في إعادة بناء الثقة بالاقتصاد اللبناني في جميع أنحاء العالم؛ ويبقى هناك شك فيما إذا كان باستطاعة أي شخص الاضطلاع بتركته الاقتصادية.

ومن ناحية أخرى، فإن الحريري سيظل اسمه يتردّد من حيث مهارته في إقامة توازن في لبنان، المجتمع المتعدد الأديان. فهو يتشكّل من 17 ملة دينية. وقد لعبت القوى المسيحية والمسلمة (الشيعة والسنَّة) والدروز في المجتمع دوراً جعلت صورة لبنان – الذي يتمتع بالاقتصاد الحر والسياحة المرموقة – تتمزق، وهذا كان قبل الحرب الأهلية. إلا أن الحريري رجل الأعمال الألمعي الذكي وظّف إمبراطورية أعماله فجعل النزاع الطائفي يدخل في حساب الماضي.

لقد كان الحريري الرمز من بين أكثر من المليونين من المهاجرين اللبنانيين الأقوياء الذين نشأوا جميعاً على حلم إعادة لبنان والمساهمة في تطوير

اقتصاد الوطن. كان هناك بعض الأقوياء الداعمين له، الذين عُرّفوا به كواحد منهم وجاء موته كمصيبة ثبطت عزائمهم. وكانوا قد بدأوا بدفع المال بسخاء للتمويل ولإعادة بناء الاقتصاد وتحسين الشوارع للاستخدامات الوطنية. لقد حضنوا جميعاً حلمهم في أن يروا لبنان وقد استعاد ماضيه المتألق كمحط لأنظار الشرق. فهل سيبزغ حريري آخر من وسط هذا المجتمع؟ ويُترك العالم... في تساؤله...

وقد ورث تركته السياسية ابنه سعد الحريري الذي أدارها بشكل حسن، حيث حاز وشركاؤه في الائتلاف السياسي تقريباً ثلثي الأكثرية في مجلس النواب في الانتخابات الأخيرة. إلا أنه يبقى النظر فيما إذا كان بمقدور حكومة السنيورة الإمساك بزمام الوطن بأكمله خصوصاً في جنوب لبنان، معقل حزب الله. وهذا كان موضع اختبار في العام 2006 وذلك مع عملية اختطاف الجنديين الإسرائيليين من قبل حزب الله. إن القصف الجوي الإسرائيلي الذي جاء كعملية انتقامية ترك بيروت محطمة مستعيدة المشاهد التي بقيت في أذهان العامة لمدينة متحسرة على دمارها خلال الحرب الأهلية.

وماذا عن اقتصاديات الدول العربية المجاورة التي كان لبنان ساحة لها على الدوام؟ إلا أنه، ومهما يكمن من أمر، ومنذ عهد قريب فإن هذه الصورة للبنان باتت متغيّرة، فقد كانت الدول النفطية تغدق عليه المال لإعادة بناء الدولة. لقد رأت في لبنان البديل عن الغرب للاستثمارات المالية وذلك بعد أحداث أيلول/سبتمبر 2001. وكانت لديهم الثقة بمقدرة الحريري على تجنب أي أزمات أهلية أو سياسية؛ إلا أنه وبعد مصرعه فقد أصبح هناك شرخ، ويبقى الانتظار والترقب لرؤية كم من الأموال بالإمكان أن يستمر إغداقها من قبل الدول العربية. وشيء آخر، فإن الاعتداءات الإسرائيلية في العام 2006 إنما جاءت لتؤكد على أسوأ المخاوف.

ومع ذلك، فإذا أراد الواحد فلسفة تضحيات الحريري باختصار، بالإمكان التعبير عنها بكلمات لتوماس ميرتون: "إن السلام يستدعي الجهد الأكثر

بطولة، والتضحية الأكثر صعوبة. فالسلام يتطلب استبسالاً أكثر مما يتطلبه الحرب. إنه يتطلب إخلاصاً للحقيقة، كما وأنه يتطلب ضميراً نقياً خالصاً". لقد حاول الحريري ذلك جاداً، ودفع حياته ثمناً لهذه الصفقة، إلا أن إرثه السياسي في ثورة الأرز سيستمر ليزدهر لبنان على الدوام.

لم يكن هناك من مسوغ لقتل الحريري، إلا أنه ساهم في إيقاظ الشعب وأدّت تحركات الكتل البشرية الهائلة إلى إخراج القوات السورية بعد ما يقارب الثلاثين عاماً. وبمعنى آخر، فإن الحريري بموته وحّد اللبنانيين من خلال إيمانهم بمطالبتهم بحكم ذاتي، إلا أنه أخفق في توحيدهم ضد الاعتداءات الإسرائيلية في العام 2006. إن أزمات ذلك العام تتيح لنا الفرصة لتصورات تمكننا من تحليل كيفية تصرف الحريري تجاه تلك الحالة وكيفية إدارته لها. لم يكن هناك من رغبة سياسية بين القادة اللبنانيين الموجودة الآن لإجراء أية مفاوضات إن مع حزب الله أو مع إسرائيل، إلا أن الحريري كان لديه فكرٌ لبقٌ في العالم العربي، وقد استطاع إقناع حزب الله لتحسين مواقفه هذه. وإن عدم رغبة الدول العربية في أخذ موقفٍ موحدٍ تأتّى وبشكل واسع جرّاء الآراء المتحزبة داخل لبنان، وبسبب غياب سيد لبنان فيهم. إن مناشدات الحريري الدمثة المتميزة كانت ستحرك بواعث الدعم بين الزعماء الأوروبيين، ولكانت أجبرت الولايات المتحدة على تبني مقاربات أكثر استرضاءً، ولكان الحريري قاد لبنان بجميع فئاته ولكان تحاشى الحرب ضد إسرائيل. ولكونه مدير أعمال برغماتياً (واقعياً)، لم يكن ليسمح أن تقصف بيروت معشوقته.

وليس هناك من إنكار بأنه وفي حال فشل عملية الاغتيال لكان الحريري سيفوز بانتخابات العام 2005 وسيتسلم السلطة، وكان سيبقى هذا بمثابة إشارة للسوريين لتقديم الكثير من التنازلات تحت الضغط العالمي المتزايد. وفي كونه سياسياً فطناً، فإنه كان سيقوم بدعم القوى العسكرية وبإقناع حزب الله بأن مصير لبنان هو بأيديهم، وأخذ خطوات متميزة وهامة للتخفيف من معاناة وفقر المتخلفين اقتصادياً إلى حدٍّ كبير من المواطنين الشيعة. لقد كان الحريري واعياً لازدياد الاستقطاب الشيعي نظراً لمأزقهم الاقتصادي. وكانت سوريا تستثمر حلقة الضعف تلك إلى أقصى حد بتقديم المساعدة لحزب الله.

وحتى إن الحريري كان سيطلب من القوات السورية مغادرة لبنان ولكان طلب انسحاباً تدريجياً، كيلا يعرض بذلك لبنان إلى فقد أي استقرار داخلي، أو سياسي أو يعرضه إلى صراع أهلي. هذا وإن القوات السورية، وإلى حدٍّ كبير، كانت تضبط هذا الطموح المذهبي لدى جنرالات لبنان بما في ذلك ذاك لدى حزب الله. وكان الحريري على علم بذلك، وكان يرغب في المحافظة على الوضع الراهن إلى حين يكون لديه السيطرة التامة على ذلك الوضع.

وعلى الجانب الاقتصادي، فإن لبنان كان سيحظى تحت قيادته بالكثير؛ كان الرجل الحكيم الذي كان قد تعلم من أخطائه السابقة، وكان سيتبنى مواقف اقتصادية توفيقية تؤدي إلى نمو اقتصادي متقدم بحسٍّ ضمن حركة نهضوية اجتماعية قوية في القطاعات الأضعف اقتصادياً.

كان قد ساهم الحريري وإلى حدٍّ بعيد في أن يكون لبنان في حالة جيدة في وقت سابق مرتين، عندما تمّ انتخابه كرئيس للوزراء مرتين. وكان سيجلب في المرة الثالثة السلام لمعشوقته بيروت. وبكلمة أخرى طالما بقي الحريري حيّاً كان سيمنع أيّاً من كتابة مرثاة لبيروت.